

من أجل حوار
لا يفسد للود قضية

دكتور

محمود محمد عمارة

جامعة الأزهر

مكتبة الإيمان المنصورة

من أجل حوار

لا يفسد للود قضية

دكتور

محمود محمد عماره

أستاذ بجامعة الأزهر

مكتبة الإيمان بالمنصورة

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م

مكتبة الإيمان بالمنصورة

أمام جامعة الأزهر

تليفون: ٣٥٧٨٨٢

سنة الاختلاف

تمهيد

فى مجال الطبيعة: تتعدد الألوان، وتختلف الأشكال.. فيكون الجمال: يقول الله سبحانه:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[١].

إن خشية العلماء هنا لتنبع من استشعار قدرة الله سبحانه وإرادته البادية فى هذا الصنع العجيب الجميل، والذى كان اختلافه وتنوعه سر جماله.

وهل يَعيب السماء أنها مرعى للسحب المختلفة، يسوقها الرعد بسياط من البرق؟ وكما قيل بحق:

سوف تصبح السماء فراغا لا نهائيا، إذا خلت من السحب المختلفة الراكضة، وإذا لم تكن سحب لم تكن أمطار، ولا أنهار، ولا زروع، بل ولا حياة.

وبنفس القوة فإنا نقول:

إن الحياة لتبدو فراغا لا نهائيا مملا إذا خلت من الآراء المشتجرة الباحثة عن الحق.

وإذا لم يكن هناك خلاف فى وجهات النظر.. لم تكن هناك آمال فى مستقبل أفضل.. ولا قضايا أصح.

إن الشجرة تتجرد من أوراقها الجافة.. لتفسح المجال أمام براعم جديدة، تتحقق بها نضارتها، فتورق وتثمر.

وكذلك الإنسان:

إنه لا يورق ولا يثمر إلا بالتخلص من آرائه الجافة اليابسة. يتخلص منها بعقله هو.. أو بعقول الآخرين.

(١) فاطر: ٢٧ ـ ٢٨.

يقول الشاعر:

إذا عـنَّ أمـر فـاسـتـشـر فـيـه صـاحـبـا
وإن كـنـت ذا رأى تـشـير عـلـى الـصـحـب
فـإنـى رأيـت الـعـين تجـهـل نـفـسـهـا
وتـدرك مـا قد حـل فـى مـوضـع الشـهـب

وقال آخر:

إقْرِن بـرأيـك رأىَ غـيـرك واسـتـشـر
فـالحـق لا يـخـفـى عـلـى الاثـنـين
والمـرء مـرآة تـريـه وجـهـه ويـرى قـفـاه بِجَمـعْ مـرآتـين

وقال ثالث:

الـرأى كـالـلـيـل مـسـود جـوانـبـه والـلـيل لا يـنـجـلـى إلا بمصـبـاح
فـاضـمـم مـصـابـيـح آراء الـرجـال إلـى
مـصـبـاح رأيـك تـزدد ضـوء مـصـبـاح.

ولا بأس فى الإسلام من تعدد الآراء، لتتسع الدائرة التى يتحرك فيها المكلفون تيسيراً وعونـا؛ ذلك بأنها ليست أهواء تتـناطح، بيد أنها زهور تتكـامل وتتلاقح، زهور متعددة الألوان والطعوم والروائح.

وبعد الخلاف يبدو أكثر من لون، وأكثر من طعم، وأكثـر من رائحة، وذلك أمر ضرورى حتى لا نصاب بعمى الألوان فلا نبصر إلا لونا واحدا!

إذن، فلاخلاف على ضرورة الاختلاف. لكن المهم، كيف نتفاهم؟!

كيف نوسع قلوبنا وعقولنا.. لنستقبل آراء الآخرين بحفاوة؟

يقول بعض الباحثين:

[فى عصر اختفـت فيه الحدود، وتداخلت الثقافات، وذابـت الجزر المنعزلة،

تصبح النظرية الآحادية للأمور مستحيلة، إن لم تكن نوعا من الانتحار الفكرى، وَازْدوَاجِية النظرة هنا لا تَعنى أن يكون للإنسان أكثر من رأى، أو أن يكون قادرا على مسايرة الأمور، وعلى التكوّن حسب الظروف، بل تعنى ببساطة: «آخَرِية الآخرين، أو حقّ الآخرين فى الاختلاف».

ليست العملية عملية تسامح فكرى أو ثقافى، بل هى حق الإنسان الآخر فى أن يكون مختلفاً، ولا يستتبع هذا بالطبع أن يفقد المرء تفرده واختلافه، إذ إن حق الآخر فى أن يكون آخر، ينسحب أيضا بنفس القدر الذى ينسحب فيه على الآخر.

وهذا الحق ليس تنازلا أو هبة، بل انه حق أساسى قديم قدم الخليقة ـ إذ لو كان الأمر كذلك لخلق الله تعالى الخلق على شكل واحد، ولخَلَقَ البشر بنفس الصورة، ونفس اللون ونفس الطباع.

المهم أن هذه الحقيقة الأبدية تحتم علينا التسليم ببعض الفَرضيات، فنحن لا نعيش بمعزل عن الآخرين: أفكارنا لم تعد قاصرة فى تأثيرها على دائرتنا الصغيرة، قراراتِنا لا يجب أن تُتخذ بمعزل عن الآخرين، لأنها قرارات قد تؤثر فى الآخرين بقدر تأثيرها فينا] أ.هـ.

[اختلاف الرأى.. واختلاف الهوى]

أما اختلاف الرأى. . فذلك ما لا يمارى فيه أحد. .

فالناس مختلفون. . . ولا يزالون. فى:

العلم. . والفهم. . والأخلاق. . والتجارب. . والمصالح. .

يقول العلماء[1]:

[ان رأى الإنسان يتوقف على خمسة عوامل:

---

(١) توحيد الخالق للشيخ الزاندانى صـ١٩ ـ ٢٠.

١ ـ علم الإنسان:

فإذا اختلف العلم اختلف الرأى.

٢ ـ فهم الإنسان:

فمن الناس من يفهم فهما عميقا.. ومنهم من يكون فهمه سطحيا..

أو بعيدا..

٣ ـ أخلاق الإنسان:

فرأى الكريم يختلف عن رأى اللئيم.

٤ ـ تجارب الإنسان:

فإذا زدت فى التجارب غيرتَ رأيك.

٥ ـ مصلحة الإنسان:

إن مصلحة الإنسان تؤثر تأثيرا كبيرا فى الرأى:

فالأيكى يقاتل مع الأمريكى. لأن مصالحه ارتبطت بهذه الدولة.

والروسى كذلك وهكذا..

« ونضيف نحن: المزاج:

فمن الناس من هو حاد المزاج.. دموى النزعة.. ومنهم الهادى الرزين.. ولكل وجهة هو موليها»

ويعنى ذلك كله: أننا إذا أردنا أن نوحد آراء الناس.. فعلينا أن نوحد هذه العوامل المؤثرة فى تكوين الرأى عند الإنسان.. فنجعلهم على علم واحد. وفهم واحد وخلق واحد. وتجربة واحدة. ومصلحة واحدة.. ومزاج واحد» وهذا مستحيل..

فمن المستحيل على البشرية أن تتحد على رأى واحد.

●●●●●

[فى مجال التطبيق]

يرى أبو حنيفة سقوط القراءة عن المأموم ولو قرأ خلف الإمام أثم، بينما يرى الشافعي وجوب قراءتها، ولو تركها عمداً بطلت صلاته.

يرى الشافعي نقضَ وضوء من مسٍّ امرأة بشهوة، بينما يرى أبو حنيفة عدم نقضه سواء كان المس بشهوة أو بدونها.

لقد اختلفوا ومع ذلك قَدَّر بعضهم بعضاً، ولم يعط أحدهم لنفسه حق التفرد بالحق فى موضوع النزاع. ولكنهم تصرفوا طبق هذه القواعد: قولى صواب يحتمل الخطأ، وقول غيرى خطأ يحتمل الصواب، أى أن وجهة نظره التى يملك دليلها هى الحق فى نظره، لكنه لا يحتكر النظر هنا. تاركاً الباب مفتوحاً لكل رأى قد يُنْسِخُ رأيه، وحينئذ فسوف يُسلِّم به إن تبين صدقه.

ومن هنا كان قولهم:

١ ـ إذا صح الحديث فهو مذهبى.

٢ ـ إذا تعارض قولى والحديث. فاضربوا بقولى عرض الحائط.

إنه كما قيل بحق:

خلاف فى الرأى الباحث فى النهاية عن الحق، وليس هو الاختلاف المحكوم بالأمزجة المتقلبة.

وهو الخلاف الصادر من مشكاة واحدة. هى: توخى الحق أوَّلا وآخرا. وهذا ما يشير إليه قول عثمان رضى الله عنه حين عوتب فى إيثار أقربائه بالوظائف. فقال: كان عمر يمنع أقرباءه لله، وأنا أعطيهم لله!!

يقول ابن تيمية[1]:

«ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الله قبولا عاماً يعتقد مخالفة رسول الله ﷺ فى شىء من سنته دقيق ولا جليل، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينيا على وجوب اتباع الرسول ﷺ، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام ٢/ ٤.

الرسولﷺ، ولكنْ إذا وجد لواحدٍ منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه. فلابد له من عذر بتركه.

وجُمَّاعُ الأعذار ثلاثة أصناف:

أحدها: عدمُ اعتقاده أن النبىﷺ قاله.

والثانى: عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول.

والثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ. وهذه الأصناف الثلاثة تتفرع إلى أسباب عدة.

●●●●●

[الاختلاف ظاهرة بشرية]

قال أبو حيان التوحيدى فى «الإمتاع والمؤانسة»:

(وبعد. فما دام الناس على فطرٍ كثيرة وعادات حسنة وقبيحة، وأمور محمودة ومذمومة، وملاحظاتٍ قريبة وبعيدة. فلابد من الاختلاف فى كل ما يُختار ويجتَنب).

وإنك لترى العجب فى مملكة الإنسان: يتحاور الناس، ويساكن بعضهم بعضا، ثم يشاهدون:

(أ) مرئيات كونية واحدة.

(ب) حقائق تاريخية ثابتة.

(جـ) يسلمون ببدهيات عقلية.

(د) ويسلمون أيضاً ببدهيات نفسية.

(هـ) وعلى أسس أخلاقية واحدة.

(و) ومع كل هذه المسلمات الجامعة فإنهم يختلفون.

●●●●●

---

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام٢/ ٤.

أسباب اختلاف الهوى

تتلخص هذه الأسباب فيما يلى:

الجهل، والتقاليد الموروثة، والتعصب للرأى، وسوء الفهم، وسوء النوايا، وشبه المضلين، وتغير المفاهيم وتطورها.

ومعنى ذلك:

وجود الاختلاف مع تحقق دواعى الاتفاق، وعلى قدر تفاوت الناس فى درجات التفكير تكون مسافة الخلف بينهم، تضيق هذه المسافة، وتتسع طبق ما يتوافر لها من عناصر الحكمة الضابطة. إن الاختلاف سنة اجتماعية تفرض نفسها.

﴿وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾.

[هود: ١١٨ ـ ١١٩]

أوّل أسباب الاختلاف:

(اعلم أن أول شبهة وقعت فى الخليقة شبهة إبليس لعنه الله. ومظهرها: استبداده بالرأى فى مقابلة النص. واختياره الهوى فى معارضة الأمر. واستكباره بالمادة التى خلق منها وهى النار على مادة آدم عليه السلام وهى الطين. وانشعبت من الشبهة سبع شبهاتَ. وسارت فى الخليقة. وسارت فى أذهان الناس حتى صارت مذاهب بدعة وضلاله[(١)]).

ويمكن تلخيص أسباب الاختلاف المنبثقة عن موقف إبليس اللعين فيما يأتى:

الجهل:

لقد كان الجهل ولا يزال مانعاً من الوصول إلى الحق. يقول سبحانه:

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ . [الأحقاف: ٢١ ـ ٢٣]

---

(١) الملل والمنحل للشهرستانى جـ١/١٦.

وعن قوم موسى يقول سبحانه: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]

التقاليد الموروثة:

وعن تحكم التقاليد الموروثة وصدِّها عن الحق مهما كانت درجة وضوحه يقول سبحانه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]

ولقد سئل أحدهم عن محمد ﷺ فقال:

أنا أعرف ابنى وأعرف محمداً، ومعرفتى بمحمد أشد.

ومع ذلك، فقد فرضت عليه التقاليد البالية أن يبقى أسير هذه التقاليد.

التعصب للرأى:

بحكم فطرة الإنسان الخيرة فإنه يتجه إلى الحق. إنه يحبه ومن ثم يبحث عنه، وقد يصل إليه، وإن لم يصل إليه فإنه يتصوره. وقد يكون فى تصوره مخطئا وقد تغريه مخيلته باختراع صور للحق من نسج خياله ولا أساس لها فى الواقع. وقد يغلبه هواه فيحسب وهمه حقا، ثم يبدأ فى الدفاع عنه كقضية مسلمة، وقد يحقق نصراً مبدئيا، فيغريه ذلك بالانتقال من موقع الدفاع عن رأيه إلى الهجوم على من يخالفه فيه ولو كان محقا.

فإذا أخذنا فى الاعتبار أن آراء الإنسان هى «بنات أفكاره» تأكد لنا كيف تكون عزيزة عليه كبناته من صلبه!! ومهما كانت بعيدة عن الجادة. وقد يشتد التعصب للرأى حتى ليختلطَ رأى المتعصب بذاته، ومن ثم فهو يدافع عن ذاته لا عن فكرته أو يدافع عنهما معاً، وبالتالى فكل من يجادله إنما يضع ذاته فى معرض المساومة، ومن ثم يتصدى له، مع أن الفكرة ينبغى أن تظل منفصلة عن صاحبها.

وحين حزن الصحابة على وفاة رسول الله ﷺ إلى حد أظهرهم وكأنما ينكرون عليه أن يموت.

وقد ذكرهم بذلك أبو بكر الصديق رضى الله عنه حين وقف فيهم خطيبا بعد

وفاة الرسول ﷺ، وبعد ظهور بعضهم كأنهم ينكرون ذلك حين قال: أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت. ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤ ـ ١٤٥].

سوء الفهم وسوء النوايا

وقد يسوء فهم الإنسان، فيترك ذلك أثره على مجرى الحوار فينحرف به عن الجادة.

وقد يتطور إلى مؤامرة يراد بها بلبلة الأفكار حتى لا تصل فى موضوع النزاع إلى قرار عن طريق إلقاء الشبه والتساؤلات التى لا تغنى عن الحق شيئاً، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ [الكهف: ٥٦].

تغير المفاهيم:

التلاعب بالألفاظ، ومحاولة تغيير مفاهيمها، كانت أحد وسائل الأعداء فى النيل من الإسلام.

يقول الإمام الغزالى فى ذلك[١].

[اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامى المحمودة، وتبديلُها ونقلُها بالأغراض الفاسدة إلى معانٍ غير ما أراده السلف الصالح والقرون الأول. وهى خمسة ألفاظ.

الفقه، والعلم، والتوحيد، والتذكير، والحكمة.

فهذه آسام محمودة، والمتَّصفون بها أرباب المناصب فى الدين، ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة، فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسامى عليهم.

ثم يبين أن اسم الفقه كان يطلق فى العصر الأول على علم طريق الآخرة،

---

(١) الإحياء جـ١ ـ ٢٨ بتصرف.

ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومُفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، والتطلع إلى نعيم الآخرة. فخُصِّص فى هذا العصر بمعرفة الفروع الغريبة فى الفتاوى، والوقوف على دقائق عللها، واستكثار الكلام فيها وحفظِ المقالات المتعلقة لها.

وكان لفظ العلم يطلق على العلم بالله تعالى، وبآياته وأفعاله فى عباده، فنقلوه حتى صار علما على من يشتغل بالمناظرة مع الخصوم فى المسائل الفقهية وغيرها.

وكان التوحيد عند الأولين: أن يرى الإنسان الأمور كلها من الله عزوجل رؤية تقطع التفاته إلى الأسباب فلا يرى الخير والشر إلا منه سبحانه، وصار الآن عبارة عن: صناعة الكلام، وطرق مجادلة الخصم، والإحاطة بها والقدرة على التشدق بها، وإثارة الشبهات!!

والتذكير هو ما عناه الله تعالى بقوله: ﴿**وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين**﴾.

فنقل إلى ما تراه بِضاعة الوعاظ من: الأشعار. والقصص. والشطح.

والحكمة هى التى أثنى الله عزوجل عليها فقال:

يؤتى الحكمة من يشاء..

فصار اسم الحكيم يطلق على الشاعر، والطبيب، والمنجم[(١)].

ومن واجبنا كما قيل بحق: [أن نحمى الكلمات الجليلة فى حياتنا من الاستهلاك والتآكل والاستغلال.

نريد أن نعلنها «منطقة حرام» تلك المساحة التى تضم مختلف رموز وصياغات مُثُلنا العليا دينية كانت أم دنيوية. حتى لا تُستَدرج إلى الشارع فى غفلة منا، فلا تبتذلُ على الأرصفة، ولا تطرحُ فى السوق لتكون مادة للاستظراف أو وسيلة للدعاية والإعلان.

---

(١)انظر الأحياء جـ١ ـ ٢٨: ٣٤.

باختصار: نريد لتلك الكلمات بما تحمله من معان وقيم أن تظل نجوما يستضاء بها، ومنارات ترشد النفس إلى الحق والخير. ورصيدا فى الضمير العام: يُؤمِّنُهُ، ويبعث فيه من الثقة بقدر ما يثير من الإجلال[1].

الإسلام.. والرأى الآخر

«ادعى بعض الباحثين من المستشرقين أن أنصار الإسلام فى عهد النبوة وما وليه من حُكم الخلافة الراشدة قد عملوا على محق الشعر المعارض للدعوة الإسلامية فلم يجرؤ أحد من الرواة على روايته، ولا من المؤلفين على تدوينه، وسار على هذا النهج خلفاء العهد الأول، فحالوا دون رواية كل شعر يعارض الإسلام، أو ينسُب لكبار المشركين فى عهد النبوة، أو لخصوم هذا الإسلام فيما تلا هذا العهد من عصور.

هذا ما ادعاه «مرجليوث ومن تبعه من الباحثين»[2].

وقد فند العلماء هذا الزعم بما رُوى من أشعار بلغت فى معارضة الإسلام ما يشبه التحدى، ويكفى ما رواه ابن هشام فى غزوة بدر وحدها دليلا على تخرص من يرمون بالدعاوى الكاذبة عن عمد كذوب، فقد ظل« الأخطل» يعيش بُحبوحة النعيم، وفى ظل الدولة الإسلامية ، وهو القائل:

ولست بصائم رمضان عمرى ولست بآكل لحم الأضاحى
ولست بقائل مادمت حيا قبيل الصبح حى على الفلاح

وقد كان موقف رسول الله من أهـل مكة الذين كذبوه وناوءوه وأخرجوه من مدينتهم وحاربوه، كريما سخيا وقت فتحها إلى أقصى حدود الكرم والسخاء.

فهو حين التقى جمعا من سادتهم وسألهم عما يظنونه فاعلا بهم، وأجابوه بقولهم: أخ كريم وابن أخ كريم، قال عليه الصلاة والسلام: اذهبوا فأنتم الطلقاء. فهو قد أمنهم على أنفسهم وأموالهم دون أن يشترط إسلامهم. والواقدى يحدثنا

(١) الأهرام مارس ١٩٨٦م.

(٢) التضامن الإسلامى ١٣٩٩ للدكتور محمد رجب البيومى.

فى كتابه «المغازى» أن سهيل بن عمرو دخل داره حين فتح المسلمون مكة، وأرسل ابنه عبد الله إلى النبى يطلب له جوارا. فلما التقى عبد الله بالنبى قال: تؤمن أبى يا رسول الله؟ قال: نعم، هو آمن بأمان الله فليظهر، لعمرى إن سهيلا له عقل وشرف. وما مثلُ سهيل يجهل الإسلام. فخرج عبد الله إلى أبيه فأخبره. فكان يُقْبِل ويدبرِ وهو آمن دون أن يُسلم.

بل وخرج بعد ذلك فى جيش النبىﷺ إلى حُنين وهو على شركه حتى أسلم بعد ذلك فى الجعرانة.

سماحة وغفران

[وجاءت أم حكيم امرأة عكرمة بن أبى جهل، فقالت للنبى: يا رسول الله، قد هرب عكرمة منك إلى اليمن وخاف أن تقتله، فأمِّنه. قال هو آمن. فخرجَت أم حكيم فى طلب زوجها حتى أدركته فقالت: أىْ عكرمة! قل لا إله إلا الله ولا تُهلك نفسك. فأبى وقال: ما هربْت إلا من هذا!. قالت: على أىٍّ فقد استأمنت لك محمدا. فرجع معها. وإذْ رآه النبى مقبلا قال لأصحابه: لا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذى الحى ولا يبلغ الميت. فلما وصل عكرمة إلى مكانه وثب النبى إليه فرحا به. قال عكرمة مشيرا إلى زوجته: يا محمد، إن هذه أخبرتنى أنك أمنتنى. قال النبى: صدَقت ، فأنت آمن. قال فإلام تدعو يامحمد؟ قال: أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله. وأنى رسول الله، وأن تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتفعل ونفعل، حتى عَدَّ خصال الإسلام.، فقال عكرمة: والله ما دعوت إلا إلى الحق وأمر حسن جميل. ثم نطق بالشهادة. فقال النبى: لا تسألنى اليوم شيئا أعطيه أحدا إلا أعطيتكه. قال: فإنى أسألك أن تستغفر لى كل عداوة عاديتكها أو حرب لقِيتك فيها أو كلامٍ قبيح قلته فى وجهك أو وأنت غائب عنه. قال النبى: اللهم اغفر له.

وفى تفسير الطبرى أن رجلا فى حياة رسول الله قرأ أمام عمر بن الخطاب سورة قراءة غير قراءة عمر لها. فلما أراد عمر أن يصحح له قراءته قال: لقد

قرأتها على رسول الله فلم يغيِّر على. فاختصما عند النبى، وقال الرجل: يارسول الله، ألم تقرئنى آية كذا وكذا؟ قال: بلى. فوقع فى صدر عمر شىء، وعرف النبى ذلك فى وجهه فضرب صدر عمر وقال: يا عمر، إن القرآن كله صواب، ما لم تجعل رحمة عذابا، أو عذابا رحمة. وفى «أسباب نزول القرآن» للواحدى أن عثمان بن طلحة كان سادن الكعبة. فلما دخل النبى ﷺ مكة يوم الفتح. أغلق عثمان باب البيت «وكان لا يزال على شركه» وصعد السطح. فطلب رسول الله المفتاح. فقيل له إنه مع عثمان. فلما أرسل فى طلبه أبى، وقال: لو علمت أنه رسول الله لما منعته المفتاح. فلوى على بن أبى طالب يده وأخذ منه المفتاح عَنوة وفتح الباب. فدخل النبى البيت وصلى فيه ركعتين. فلما خرج سأله العباس بنُ عبد المطلب أن يعطيه المفتاح ليجمع له بين السقاية والسدانة. فأنزل الله تعالى آية: **﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾** . وأمر رسول الله ﷺ عليا أن يرد المفتاح إلى عثمان بن طلحة ويعتذر إليه عما بدر منه. فلما فعل علىّ ذلك قال له عثمان: يا على، أكْرهت وآذيت ثم جئت ترفُق؟ فقال علي: لقد أنزل الله قرآنا فيك. وقرأ عليه الآية؟ فقال عثمان: أشهد أن محمدا رسول الله. وأسلم.

●●●●●

السهل الممتنع

هنا فى قصة الواحدى مثل واضح لأسلوب النبى فى الدعوة ولسماحة دين الإسلام يذكرنا بخرافة لافونتين عن الريح والشمس اللتين تراهنتا أيهما أقدر على أن تجرد رجلا فى أحد الحقول من عباءة يلبسها.

فأما الريح فهبت تحاصره وتشدد من هجومها، فإذا الرجل يزيد من تشبثه بالعباءة وإحكام قبضته عليها.

وأما الشمس فقد طلعت فى هدوء وثقة إلى كبد السماء، تبث حرارتها، حتى رأى الرجل من المناسب أن يخلع العباءة من تلقاء ذاته ويلقى بها جانبا!][1].

---

(١) مجلة العربى.

ونضيف إلى ذلك: أن القرآن الكريم سجل دعاوى المبطلين على فسادها. ثم ذكر عليها فدمرها تدميرا، ونقرأ فى ذلك قوله تعالى:

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾. [الطور: ٢٩ ـ ٣٣]

بل إن صدر الإسلام ليتسع لكل رأى مهما بلغ فى الانحراف منتهاه شريطة أن يكون مع صاحبه دليله.. يقول سبحانه:

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]

أهمية الجدل:

ومن أجل هذه الأسباب كان لابد من الجدال تحريراً للحق من شوائب الباطل، وكان من الضرورى وضع أداب تصونه كى يحق الحق ويدحض الباطل. إنه أحد الوسائل المجدية فى مواجهة الخصوم الماكرين، يقول المرحوم الشيخ حسن مأمون فى تحديد مسئوليتنا:

« إذا كان المسلمون قد استقبلوا قضايا الإسلام بالثقة بها، والغيرة عليها؛ لأنها من عند الله، فإن من واجبهم أيضا: أن يؤكدوا هذه الثقة بالمقارنة بين كمال شرعه الخالق، ونقص ما انتهى إليه المخلوق، حتى يكون مع الثقة دليلها، ومع الغيرة حيثياتها».

قال ابن تيمية:

« فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفّى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور، وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين[1]».

---

(١) تعارض العقل والنقل ٣٥٧ .

والنكوص عن هذه الوظيفة بحجة أن الجدل باطل ضعف وتقصير فى أداء الرسالة: يقول ابن حزم فى كتابه «أصول الأحكام» :

[وبالجملة فلا أضعف ممن يروم إبطال الجدال بالجدال، ويريد هدم جميع الاحتجاج بالاحتجاج، ويتكلف فساد المناظرة بالمناظرة، لأنه مقر على نفسه أنه يأتى بالباطل؛ لأن حجته هى بعض الحجج التى يريد إبطال جملتها»[1].

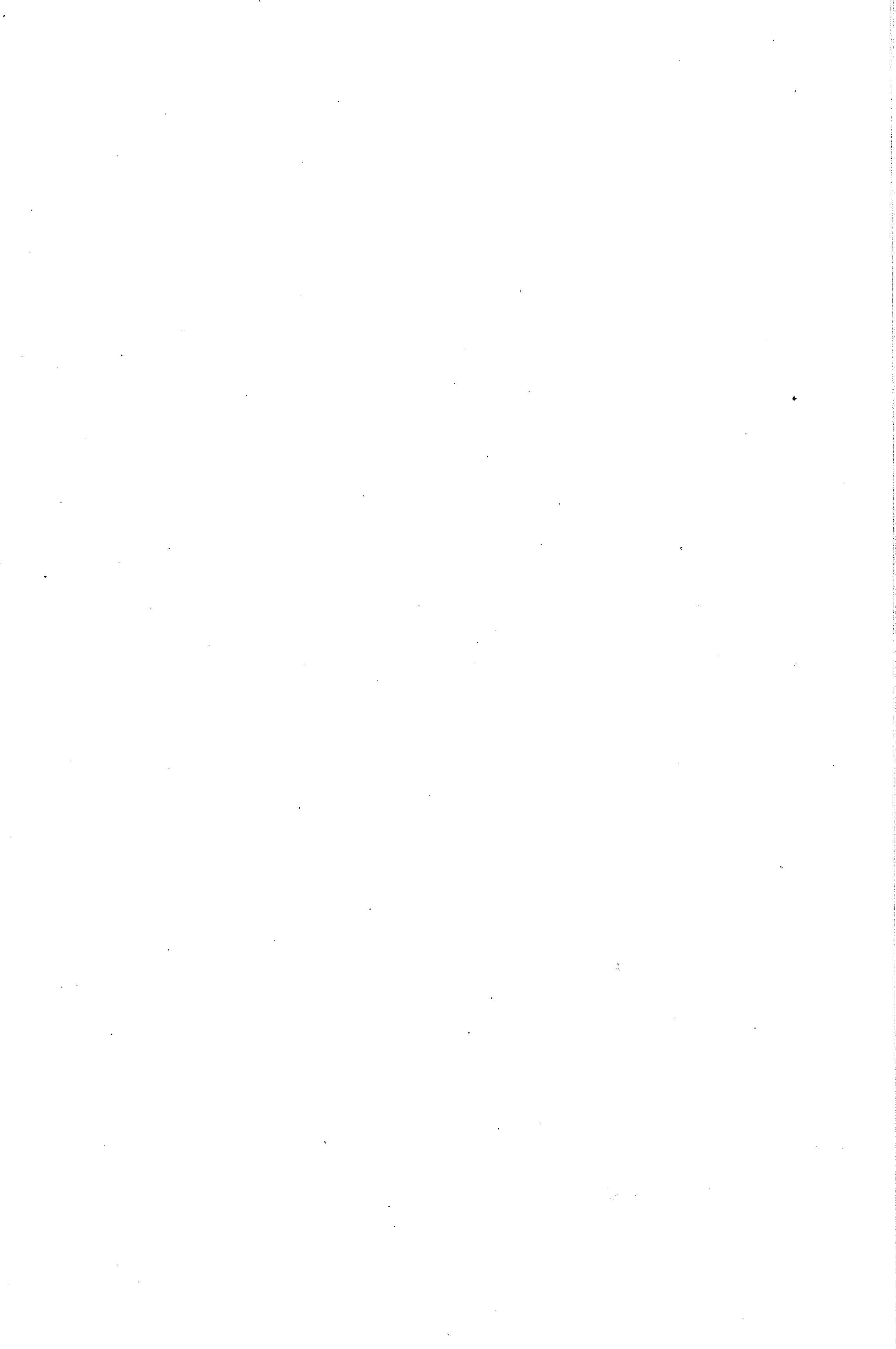
●●●●●

(١) ج١/ ٢٧.



الفصل الأول

ضوابط الجدل



معنى الجدل

ذكر ابن فارس فى «مقاييس اللـغة» الجيم والدال واللام: أصل واحد وهو من باب: استحِكام الشيء فى استرسالٍ يكون فيه امتدادُ الخصومة ومراجعة الكلام.

ف «الجدل» : « شدة الفتل»[1].

يقال: جارية حسنة الجدْل، وهى مجدولة، أى: مفتولة الخَلْق[2].

ويقال: « جدلتُ الحبل أجدله جدْلا إذا شددت فتله وفتلته فتلا محكما»[3].

ونلاحظ فى مـعنى الجدل: الشدة، والمـغالبة، وإرادة الانتصـار، والإحكام، والإلزام وامتداد الخصومة، وما يستتبعـه من عرامة الانفعال، وتوقع الصدام إن لم يقع بالفعل مما يجعل المجادلَ على خطر عظيم إن لم يلتَزم بآداب الإسلام.

وذلك يـحملـنا علـى القول: بأن الجـدل مزلق مـن مزالق الخـطر قد يـصل بالمتجادلِين إلى الحق أو ينتهى بهما إلى طريق مسدود.

ومن ثم قـسَّمه العلمـاء إلى محمود ومـذموم، ونشأت عن ذلـك آراء تقول بجوازه، وأخرى تحكم بكراهته أو حرمته.

جاء فى المصباح المنير:

(جدِل الرجل جدلا ، فهو جدِل، من باب: تعب إذا اشتدت خصومته. وجادل مجادلـة وجدلا ، إذا خاصم بمـا يشغل عن ظـهور الحق ووضوح الـصواب، هذا أصله. ثم استـعمل على لسان حملة الـشرع فى: مقابلة الأدلة لظـهور أرجحها، وهو محمود إن كان للوقوف على الحق، وإلا فمذموم).

قال الرازى: تفسيراً لـقوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ الـلَّهِ إِلاَّ الَّذِيـنَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤]

---

(١) لسان العرب.

(٢) المشوف المعلم.

(٣) لسان العرب.

[الجدل: نوعان:

جدال فى تقرير الحق

وجدال فى تقرير الباطل.

أما الجدال فى تقرير الحق فهو حرفة الأنبياء عليهم السلام. قال تعالى لمحمد ﷺ: « **وجادلهم بالتى هى أحسن** ».

وقال حكاية عن الكفار أنهم قالوا لنوح عليه السلام:

« **يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا** ».

أما الجدال فى تقرير الباطل فهو مذموم، وهو المراد بهذه الآية حيث قال تعالى:

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُو ﴾

وقال: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ﴾ [الزخرف: ٥٨]

وقال: ﴿**وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق**﴾.

●●●●●

الجدال من البداية إلى الغاية

بواعث الجدل، وطريقته وغايته، كل أولئك يحدد سمة الجدال: هل هو بالحق، أم بالباطل، وعلى هذا الأساس اختلفا: فالجدل المحمود: ما سلمت بواعثه من الخلل، واستقامت طريقته على الجادة، ثم استهدف غاية شريفة تحق الحق وتبطل الباطل.

والجدل المذموم:

ما كان خبيثا فى بواعثه، وطريقته، وغايته:

ومن وراء الجدل المذموم باعثان:

(أ) الترفع.

(ب) إرادة إظهار نقص الغير.

وحُمِلَ الترفعُ وهو الباعث الأول على الاستكبار وكراهة ظهور الحق على يد غيره، وإظهاره عليه والتباهى به: أما إرادة إظهار نقص الغير وهى الباعث الثانى فتُحمل على التهجم عليه بإيذائه وتمزيقه.

وأما غايته فهى: إفحام الغير وإسكاته وتعجيزه، لا تقوية الحق وإعلاؤه.

يقول الإمام الغزالى فى هذا المعنى:

(أما المجادلة فعبارة عن قصد إفحام الغير، وتعجيزه، وتنقصه بالقدح فى كلامه، ونسبته إلى القصور والجهل فيه، وآية ذلك: أن يكون هو المُظهر له خطأه، ليبين به فضل نفسه، ونقص صاحبه، ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يأثم به لو سكت عنه.

وأما الباعث على هذا فهو: الترفع بإظهار العلم والفضل، والتهجمُ على الغير بإظهار نقصه، وهما شهوتان باطنيتان للنفس قويتان لها.

أما إظهار الفضل فهو من قبيل تزكية النفس، وهى مقتضى ما فى العبد من طغيان ودعوى العلو والكبرياء، وهى من صفات الربوبية.

واما تنقيص الآخر فهى من مقتضى طبع السبعية، فإنه يقتضى أن يُمزق غيره، ويقْصِمه ويصدِمه ويؤذيه)[1].

الجدل المحمود:

جاء فى الإتقان جـ٢/ ١٣٥ : المحمود من الجدل :(احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجةٍ تقطع المعاند له فيه، على طريقة أرباب الكلام).

وقد أورده القرآن على عادات العرب ليفهموه : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم :٤].

ولم يجئ به على طريقة أرباب الكلام:

(لأن المائل إلى دقيق المحاجَّة، هو العاجز عن إقامته بالجليل من الكلام، فإنَّ من استطاع أن يفهم بالأوضح الذى يفهمه الأكثرون، لم ينحط إلى الأغمض الذى لا يعرفه إلا الأقلون، ولم يكن ملغزا، فأخرج تعالى مخاطباته فى مُحاجَّة خلقه فى أجلى صورة، ليفهم العامة من جَلِيِّها ما يُقنعُهم، وتلزمهم الحجة، وتَفْهمُ الخاصة، من أنبائهم ما يُربى على ما أدركه الخطباء) [2].

وهناك ألفاظ مرادفة للجدل، ومنها:

١ ـ المحاورة أو الحوار.

وقد وردت مقترنة بالجدل فى أول سورة «المجادلة»: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة:٣] :

ثم فى سورة الكهف فى قصة الرجلين: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ [الكهف:٣٧].

٢ ـ المناظرة.

وربما جاز لنا أن نقول:

---

(١) الأحياء جـ٣/ ١١٦و وما بعدها بتصرف.

(٢) نفس الموضع.

إن الجدل فى جانبه المحمود يأخذ شكل المناظرة أو الحوار. وهو فى جانبه المذموم ما يسمَّى بالمراء.

فما هو الحوار؟

وما هى المناظرة؟

وما هو المراء؟

فى معنى الحوار نقول: الحوار مشتق من الحوَر وهو(الرجوع على الشىء، وإلى الشىء).

حار حورا إلى الشى: رجع عنه وإليه.

وأحار عليه جوابه: أى رده.

وهم يتحاورون: أى يتراجعون فى الكلام.

والمحاورة هى: المجاوبة.

والتحاور: التجاوب.

يعنى: عملية تتم بين اثنين فأكثر:

يطرح أحدهم شيئا، فيتمثله الآخر، يجيب عنه، فيحدث تجاوب فيولد عند كل منهما مراجعة لما طُرِح، وينتهى الأمر بالاتفاق، أو إغناء الفكرة بمزيد من الوضوح. عن طريق النظرة الشاملة.

وبالتأمل فى مادة الحوار تجده خاليا من العنف والمغالبة، وهو أقرب إلى المناظرة إن لم يكنها، بخلاف المراء على ما نبينه بعد قليل.

وأما المناظرة، فإذا تأملنا كلمة «مناظرة» وتتبعنا أصل اشتقاقها. فسوف نخرج ببعض الملامح التى تتميز بها كى تؤدى دورها فى إحقاق الحق.

١ ـ فهى إما أن تكون مشتقة من المناظرة بمعنى المماثلة.

٢ ـ وربما رَجَعت إلى معنى «المقابلة» على معنى أن يكون المتناظران متقابلين.

٣ ـ وقد تكون من النظر بمعنى التبصر، والتفهم لوجهة نظر الخصم.

٤ ـ وربما كانت مأخوذة من الانتظار والتمهل.

فماذا تعنى المناظرة بمعنى المماثلة:

قال أفلاطون فى الجمهورية:

(الوسيلة الصحيحة الوحيدة لتوصيل المعرفة هى: وضع ذهنين فى اتصال أحدهما بالآخر).

وحتى تكون لهذه المعرفة قيمة ينبغى أن يكون المتناظران فى مستوى عقلى واحد تقريبا:

إن لقاء فريقين غير متكافئين فى مجال الرياضة مثلا لا يحقق المتعة المنشودة.

كما وأن لقاء اثنين متناظرين بينما مسافة الخلف بينهما بعيدة يحرمنا من متعة صراع الخصمين، كما يَحرمنا من الفائدة الحاصلة عند صراع القمم.. نَقلَ أبو حيان التوحيدى فى «الإمتاع والمؤانسة» قول أحد الفلاسفة:

(العاقل يَضل عقله عند محاورة الأحمق).

قال أبو سليمان: هذا صحيح. ومثاله:

إن العاقل إذا خاطب العاقل فهم. وإن اختلفت مرتباتهما فى العقل فإنما يرجعان إلى أصل العقل.

وليس كذلك العاقل إذا خاطب الأحمق. فإنهما ضدان: والضد يهرُب من الضد».

يقول باحث:

(وتبلغ العملية ذروتها فى حوار الأكفاء، كالذى يدور فى المجامع العلمية، فهو يدور بين أنداد نذروا أنفسهم للعلم، ونالوا منه حظا أوفى.

وللحوار الذى يجرى بين فردين أو أفراد من جيلين روعته أيضا: فهو التعبير عن تواصل الأجيال، وتحكمه علاقة خاصة يكون الجيل الأصغر فيها متعطشا إلى المعرفة، بينما يكون محاوِره تواقا إلى العطاء. لشده روعة الفتوة والبكارة).

وأما المقابلة فنعنى: أن يأخذ المتناظران سمتا واحدا. فلايميز أحدهما عن الآخر بأن يجلس بينما يظل زميله واقفا مثلا.

وقد حرص القضاة فى الإسلام على أن يأخذ المتخاصمان وضعا واحدا بلا تمييز؛ لأن من شأن ترجيح أحد الخصمين فى ساحة القضاء التأثير على الطرف المرجوح، لأن فى ذلك إضعافا لروحه المعنوية، وبالتالى قد لا يقدر على الإفصاح عن وجهة نظره تماما. وربما ضاع الحق حينئذ. وقد رد على رضى الله عنه القاضى لأنه كَنَّاه فقال:

يا أبا الحسن دون خصمه.. وقال له:

أنت لا تقضى بيننا: لأنك كَنَيْتنى. ولم تكْنِه.

وقد أشار إلى هذا عمر رضى الله عنه فى رسالة بعث بها إلى أبى موسى الأشعرى:

(ساوِ بين الناس فى: مجلسك، ووجهك. وعدلك، حتى لا ييأس الضعيف من عدلك ولا يطمع الشريف فى حيفك).

ودخل الأشعث بن قيس على شريح القاضى فى مجلس الحكومة فقال: مرحبا وأهلا بشيخنا وسيدنا وأَجلَسه معه.

فبينما هو جالس، عنده إذ دخل رجل يتظلم من الأشعت فقال له شريح:

قم فاجلس مجلس الخصم، وكلِّم صاحبك:

قال: بل أكلمه من مجلسى!

فقال له: لَتَقومن أو لآمرن من يقيمك!

فقال له الأشعث: لشدَّ ما ارتفعت!

قال: فهل رأيت ذلك ضرك؟! (أى رفعتى)

قال: لا

قال: فأراك تعرف نعمة الله على غيرك. وتجهلُها على نفسك.

وإذا كان ولابد من تمييز، فليكن التمييز المُعين على ظهور الحق، وذلك برفع الروح المعنوية لدى أضعف الخصمين وغريب الدار منهما، ليتمكن من إعلان وجهة نظره بلا خوف.

كتب عمر بن الخطاب كتابا قال فيه:

(إذا تقدم إليك الخصمان: فعليك بالبينة العادلة، أو اليمين القاطعة وإدناءِ الضعيف، حتى يشتد قلبه، وينبسط لسانه، وتعاهد الغريب، فإنك إن لم تتعاهده ترك حقَّه من لم يرق له، وآس بين الناس فى لحظك وطرفك، وعليك بالصلح بين الناس ما لم يتبين لك فصل القضاء).

وربما كانت المناظرة مأخوذة من: التبصر والتفهم. على معنى أن يحاول كلا المتناظرين فهم قول صاحبه: ووزنَه وحسنَ تقديره، ليُحسنَ تصوره. ثم ليَصْدُقَ بعد ذلك الحكم عليه؛ لأن التسرع، والنظرة المتعجلة المبتسرة لا تمكن من الاستيعاب.

وهذا المسلك المتأنى يحقق فائدتين:

(أ) فائدة للمتبصر الذى يحيط خبرا بزوايا القضية، فينأى بنفسه عن التورط فى خطأ يُمكن خصمه منه.

(ب) ثم هو يخدِم الحقيقة ذاتَها بما يجلى من جوانبها كلها.

لأن التسرع قد لا يمكن من كشف زاوية تتضح منها رؤية الحق.

وربما رجعت المناظرة إلى معنى «الانتظار» وما يوحى به من ضرورة التريث والانتظار حتى يفرغ الخصم من طرح وجهة نظر كاملة.

إن هذا الأدب لينشئ بين الطرفين احتراما متبادلا تصير به المناظرة لوناً من ألوان التعاون على البر والتقوى، لا مبارزة كلامية وكفى.

وإذا كانت «مفاعلة» فذلك يعنى ألا ينفرد واحد بالحديث ولابد أن يتجاذبا أطرافه، وإلا فلو تفرد واحد لتحولت المناظرة إلى محاضرة. تَحْرِمُ العِلْم من إضافة جديدة تُغنى تراثنا بقدِر ما يختفى الرأى الآخر، وكان وجودُه مُهِما من

حيث إن العلم لا يضيع بين اثنين.

ومن هنا ندرك أن للمناظرة ملامح عامة من خلال تعريفها.

١ ـ إنها معركة تدار لحساب الحق، لا لحساب شخص.

٢ ـ (يتَرَددُّ) الكلام فيها بين شخصين، يعنى شخصين متقاربين لا يمسك أحدهما بزمام الحديث وحده بل لابد من تردده بينهما. ثم إن الذى يتردد، كلام، والكلام هو اللفظ المفيد لا اللفظ الجارح.

٣ ـ لابد أن تضع تلك الحرب أوزارها فى وقت ما عند ظهور الحق؛ لأنها لا تكون سجالا إلا إذا كانت بين مبطلين يدافع فيها الواحد عن نفسه لا عن رأيه.

٤ ـ مجرد ظهور الحق يُسعد الطرفين معا، فما يُهم كلا منهما بالدرجة الأولى: ظهور الحق على يد أى واحد، وليس هو إظهاره على يده وحده، لأن ذلك رغم أنه يفيد الحق إلا أنه على أى حال لون من التعصب!

قال الشافعى:

ما ناظرت أحدا وودت التغلب عليه!!

وأما المراء: فقد جاء فى المصباح المنير: (مار الشىء مورا من باب «قال» تحرك بسرعة.

وناقة موارة اليد: سريعة.

ومار: تردد فى عُرض.

ومار البحر: اضطرب.

ومار الدم: سال).

وجاء فى لسان العرب: (ومارت الناقة فى سيرها مورا: ماجت وترددت).

وسهم مائر: خفيف نافذ، داخل فى الأجسام.

قال أبو عامر القلابى:

لقد علم الذئب الذى كان عاديا ... على الناس أنى مائر السهم نازع

وفى ضوء هذه المعانى يمكن أن نقول : المراء:

فيه حدة، وسرعة، وتردد، واضطراب، وخفة، وسيولة، ومخاصمة.

ومعنى ذلك: أن يثور بين المتخاصمين غبار أكثر، ويتصاعد دخان أكبر.

ولا يمكن الوصول إلى الحق فى خضم هذه الأهواء المتشابكة، وفى غابة من الحدة، والخفة، والتردد، والاضطراب.

جاء فى الإحياء

(المراء: طعن فى كلام الغير بإظهار خلل فيه، من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير، وإظهار مزية الكياسة [1]).

وما ظنك باثنين يريد كل منهما قتل صاحبه لينفرد هو بالساحة ؟!

إنها معركة تنتهى حتما بهزيمة الفريقين!!

ومن أجل هذا كان المراء شرا كله على ما تشير السنة المطهرة وأقوال العلماء.

تحذير وترهيب:

عن أبى الدرداء: قال:

(خرج علينا رسول الله ﷺ يوما ونحن نتمارى فى شىء من أمر الدين، فغضب غضبا شديدا لم يغضب مثله.

ثم انتهرنا فقال:

مهلا يا أمة محمد: إنما هلك من كان قبلكم بهذا. ذروا المراء لقلة خيره. ذروا المراء فإن المؤمن لا يمارى. ذروا المراء، فإن الممارى تمت خسارته. ذروا المراء. فكفى بك إثما ألا تزال مماريا، ذروا المراء فإن الممارى لا أشفع له يوم القيامة. ذروا المراء. فأنا زعيم بثلاثة أبيات فى الجنة. رياضها، ووسطها، وأعلاها، لمن

---

(١) عن الترغيب والترهيب ج١/ ٨٠.

ترك المراء وهو صادق. ذروا المراء فإن أول مَا نهانــى عنه ربى بعد عبادة الأوثان: المراء[(١)]).

وعنه ﷺ:

(من ترك الجــدال وهو مبطــل بنى له بـيت فى ربض الجـنة ومن تركــه وهو محق، بنى له فى وسطها، ومن حسن خلقه بنى له أعلاها] [(٢)].

فالمراء سبب فى هلاك الأمم وذهاب ريحها.

قيل لأعرابى: ما تقول فى المراء؟

قال: مــا عسى أن أقــول فى شىء يُفــسد الصــداقة القــديمة. ويَحُل العــقدة الوثيقة. أقل ما فيه أن يكون درية للمغالبة والمغالبة أمتن أسباب الفتنة.

فقد بين الرسول ﷺ أضرار المراء

(أ) لا خير فى المراء إلا قليلا: عرضا قريبا سُرعان ما يزول.

(ب) لأنه يثير الحمية وإرادة المغالبة فينأى بالمتمارين عن الخط المستقيم.

ومن شأن المؤمن أن يمنعه إيمانه من التعصب. والتركيز على ذاته، مؤثرا أخذ حقائق دينه عن طريق الحوار الهادف المفيد.

جـ ـ إذا حصل الممــارى على ما يتخيلــه فائدة ظاهرة له، فخســارته قد تمت بالمراء لأنه واحد من اثنين أحلاهما مر.

(١) إذا غلب خصمه فقد خسره وحُرِمَ من مودته.

(٢) وإذا غلبه خصمه فقد خسر قدرا من كرامته وهيبته.

د ـ والمراء وحدَهُ يشكل أكبر خطأ يقع فيه الإنسان. ولو لم يكن للإنسان إلا أنه من الممارين لكفاه إثما جزاء اقترافــه جدلا عقيما كان أول ما نهى عنه الرسول بعد الشرك بالله تعالى.

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير.

(٢) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه والبيهقى، والربض: ما حولها.

يعنى: لو خلت صحيفة أعمالك من الكذب. والغيبة« وكلَّ الموبقات» وبقى فيها حب المراء فقط لغطَّت مِساحة النفس كلَّها وكانت كفاية!.

ومعنى الحديث لا تفعل مع أخيك الشر فتحوجه إلى أن يفعل بك، فمهما تحامَلْت عليه ونقصت من قدره فهو يكيل لك بنفس الكيل.

والذى ترك الجدال ويقطع حبله، وهو مبطل له بيت فى ـ ضواحى ـ الجنة إن صح التعبير، بينما الذى يتركه وهو محق له بيت فى وسطها، فهو خير من سابقه، لماذا؟

لأن عودة المبطل إلى الحق سهلة من حيث إن حجته ضعيفة، أو لا حجة له أصلا، وقد تكون له رغبة فى العودة لكن يمنعه العناد، أو الخجل.

أما المحق، فعودته للحق صعبة، وله مندوحة فى الثبات على رأيه، ومن ثم فعودته تفرض عليه ثمنا باهظا، ولهذا فَعَدَمُ استمراره فى الجدل تضحية كان كفاؤها بيت فى وسط الجنة.

وخير من الاثنين معاً من ترك المراء ابتداء، واشتغل بتحسين خُلُقه ليدعو به لا بالقوة.

وإن الأمر على ما رواه ابن عباس رضى الله عنه عن النبىﷺ : أن عيسى عليه السلام قال:

(إنما الأمور ثلاثة:

أمر تبين لك رشده، فاتبعه.

وأمر تبين لك غيه، فاجتنبه. وأمر اختلف فيه فرده إلى العالم [1]).

إن عودتك بما لا تعلم إلى رجل عالم معناه: التزام بمبدأ قرآنى:

« فأسألوا أهل الذكر» عودة بالقضية إلى قاضيها الفاهم العدل الراحم، وأنت بين يديه تلميذ تتلقى، وتتقبل، أما بقاؤها بينك وبين من هو فى مثل سنك أو أقل. فمعناه استمرار الجدل بين ضدين لا يجتمعان!

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد لا بأس به.

قال ابن عباس رضى الله عنهما:

خمس لهم أحسن من الدّهْم الموقَفَة[1]:

لا تتكلْم فيما لا يعنيك، فإنه فضل، ولا آمن عليك الوزر.

ولا تتكلْم فيما يعنيك حتى تجد له موضعا، فإنه رب متكلم فى أمر يعنيه قد وضعه فى غير موضعه فَعِيبَ.

ولا تمار حليما ولا سفيها:

فإن الحليم يغلبك. وأن السفيه يؤذيك.

واذكر أخاك إذا تغيب عنك بما تحب أن يذكرك به، وأعفه مما تحب أن يُعفيك منه، وأعمل عمل رجل يرى أنه مجازى بالإحسان، مأخوذٌ بالإِجرام[2].

نماذج وصور:

وفَد أحد المولعين بالمراء على النبىﷺ «وعليه شارة حسنة» فجعل النبى لا يتكلم بكلام إلا كَلَّفَتهْ نفسه أن يأتى بكلام يعلو كلام النبىﷺ. فلما انصرف قال رسول الله ﷺ: « إن الله لا يحب هذا وإضرابه يَلوون ألسنتهم للناس لىَّ البقر بلسانها المرعَى».

وكذلك يلوى الله تعالى ألسنتهم ووجوهَهم فى النار [3].

فانظر إلى رجل لم يردعه جلال النبوة فأساء الأدب مع المؤيَّد بالوحى ﷺ، وكيف أغراه اللباس الحسن، والمنطق المزين بمغالبته ذاهبا بالتعصب إلى درجة ليس وراءها وراء.

ثم انظر كيف باء بإثمه لعنة صبَّها الرسول عليه وعلى أمثاله من المتاجرين بالبيان فى ساحة الحق، ثم اعتَبِر بما يجره المراء على صاحبه من ويلات وويلات.

وعن جابر رضى الله عنه قال:

---

(١) الموقفة من الخيل: الجيد منها.

(٢) ابن أبى الدنيا .

(٣) رواه الطبرانى.

قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبى ﷺ:

هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم؟

قالوا: لا ندرى حتى نسأله.

فجاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يا محمد: غُلِبَ أصحابك اليوم.

قال: وبم غُلبوا؟

قال: سألهم يهود: هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم.

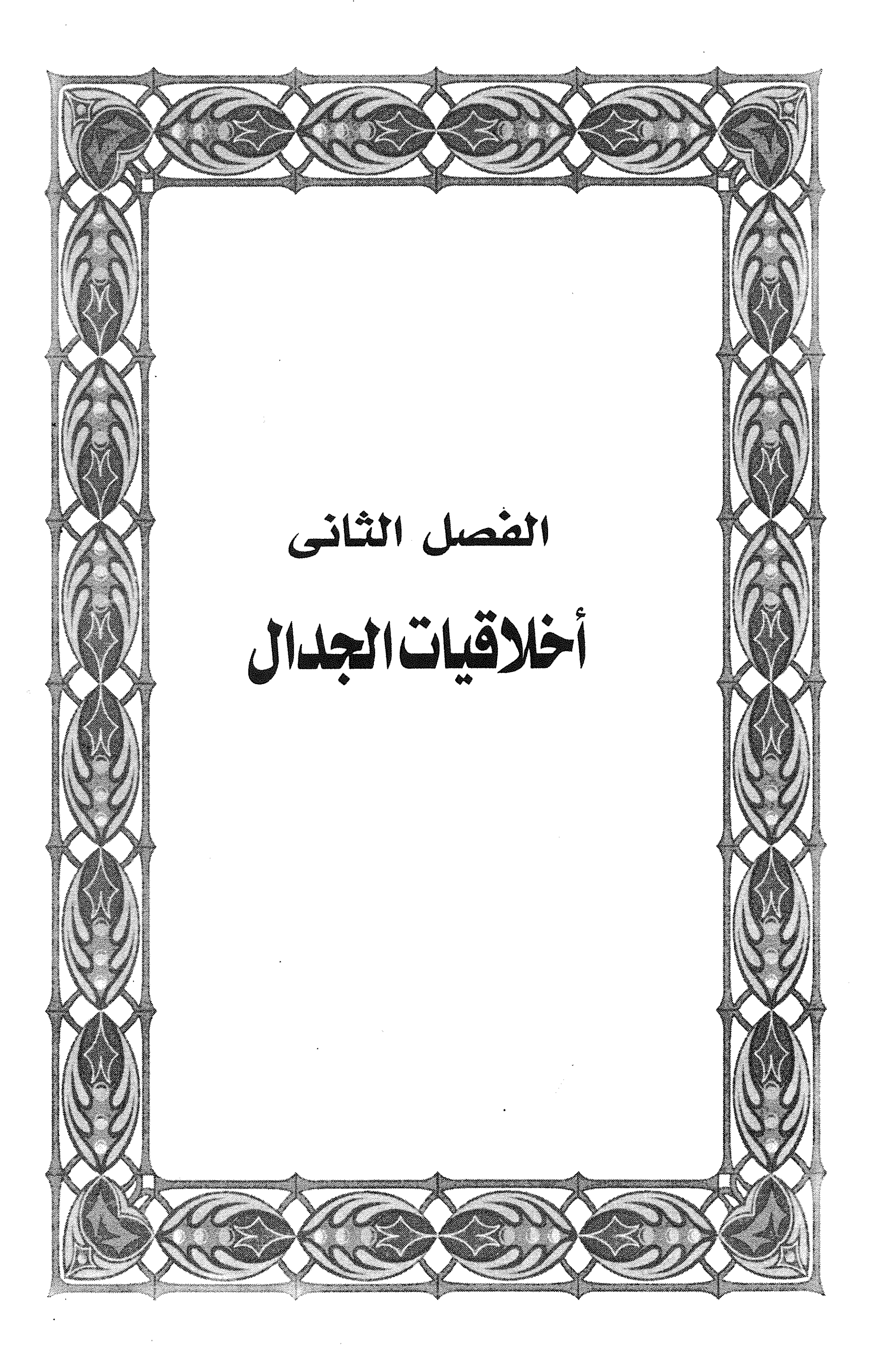
قال: فماذا قالوا؟

قال. قالوا: لا ندرى حتى نسأل نبينا.

قال: أفَغُلِبَ قوم سُئلوا عما لا يعملون فقالوا لا نعلم؟ - ولكنهم أى اليهود - سألوا نبيهم فقالوا: أرنا الله جهرة].

إن اليهود هنا يجرُّون المسلمين إلى معارك جدلية جانبية لا تغنى عن الحق شيئا. ولقد كان المسلمون عند حسن الظن بهم أمناء على الحق. فلم يُجيبوا عما لم يعلموا وقام بإبلاغه ﷺ رجل لعله من الصائدين فى الماء العكر، وممن يحسَبون الغلبة بشقشقة اللسان نصرا يستحق التهنئة. ففاجأه ﷺ بسلامة موقف أصحابه، منوها بحكمتهم التى منعتهم من الخوض فيما لا يعلمون، مُعَرِّضا فى نفس الوقت بتاريخ اليهود الشاهد ببطرهم وعنادهم حين قالوا لموسى عليه السلام: « أرنا الله جهرة» وبهذا وضح الفرق الحاسم بين المسلمين واليهود.

●●●●●



الفصل الثانى

أخلاقيات الجدال

قواعد المجادلة مع أهل الكتاب

يقول الله سبحانه : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]

يبين الله سبحانه وتعالى ضرورة أن يكون جدالنا أهل الكتاب على أحسن الوجوه؛ ذلك بأنهم أولا، أهل كتاب، وإذن فهم شطار فى الكلام، قادرون على الأخذ والرد. وأليق أساليب مخاطبتهم ما كانت على أكمل وجوه الحُسن.

وثانيا: إنهم أقرب إلينا رحما من الوثنيين والملحدين، ومن ثم فنحن أحوج ما نكون إلى إقناعهم ليقفوا معنا صفا واحدا أمام أعدائنا وأعدائهم، حتى إذا لم يؤمنوا فإن «تحييدهم» أمر مهم لصالح الدعوة التى تنطلق بلا عوائق.

لكن ذلك كله مشروط بالتزامهم أدب الحوار، فإذا تنكبوا طريق الحق فظلموه بإهدار آدابه فيجب أن تتوقف المناظرة عندئذ قبل أن تتحول إلى مهاترة.

والأصل فى الدعوة أن تكون بالفعل قبل القول، وبالالتزام قبل الكلام!

لقد كان المسلم يسيح فى الأرض تاجرا أو سائحا، وفى حالتى أخذه وعطائه يبدو أمام الجاهلين بالإسلام صورة للأدب العالى كما شرعه الله سبحانه، فيدْخلَ الناس فى دين الله أفواجا.. فى دين رأوه واقعا ملموسا، وليس هو جدلا فارغا يثير غبارا يحجب الحق فلا تراه العيون، ولا تحس به القلوب.

هذا هو الأصل..

وعلى أساسه مضى آباؤنا المسلمون، فكانت بلاغة الصمت أحيانا أقوى من كل دليل، وكانت حكمة الأعمال أبلغ من ضجيج الكلام.

فإذا فرضت عليهم ظروف قاهرة أن يدخلوا فى جدل يستهدف الحق فلا مانع بشرط أن يتم ذلك الجدل على أوفى صور الحسن والكمال. وهذا بعض ما يفهم من الآية الكريمة فى ثلاث كلمات منها: فلا تجادلوا أهل الكتاب إلا على الصورة

(التى . . هى . . أحسن) فلم تقل الآية:

«بما هى أحسن».

بل إنها قالت:

«بالتى».

«والتى» أصل فى باب الموصولات، إشارة إلى ضرورة أن يكون الجدل على نحو أصيل، فوق سفاسف الأمور، علوا به فوق الألغاز والمغالطات، ليجىء نصا فى المراد، كما أن «التى» نص فى باب الموصول، فلا تكون إلا موصولة أبدا.

وإذا تحددت نماذج الحسن فى باب الجدال، فينبغى أن يكون الحوار على الصوره التى «هى» بالذات أحسن النماذج جميعا، بحيث لا يتردد المجادل بين صعود وهبوط تحت تأثير مزاجه المتقلب، بل عليه أن يلتزم الكمال أبدا.

وأخيراً:

إنه خلاف لا يفسد للود قضية:

فإذا خرج الطرف الثانى عن الخط، أو تدنى فى أخذه ورده عن الخط المستقيم، فقد حان وقت ينهى فيه المجادل المسلم جدلا عقيما لا يخدم قضية الحق، وإذا فرض الإسلام على أهله التزام أعلى صور الجمال، فإنه يلزم الخصم أن يرتفع إلى نفس المستوى، فإذا ظلم، وحكم الهوى، فالحل المناسب هو الانسحاب باسم الإسلام الذى به تؤمن بجميع الرسل، إبقاء على الجهود العقلية أن تذهب سدى.

ولتذكروا أن إلهنا وإلهكم واحد، نسلم له وجوهنا، وما كان يليق بكم مع وجود هذه الحقيقة أن تنازعونا، وعلى أى حال: لنا ديننا. ولكم دينكم.

●●●●●

سماحة الإسلام فى المعاملة والمجادلة

تمهيد:

فى ظل الإسلام، وبوحى من أدبه العالى، يتجه المسلم إلى الآخرين بقلب مفتوح، مهما كانت ديانة هؤلاء الآخرين، فاختلاف الدين لا يفسد قضية الود بين الاثنين، ولا مانع من أن يُمد المسلم يده بالبر والعدل إلى من خالفه فى العقيدة، ليتم بهذا البر لون من التعايش السلمى.. تصفو به الحياة..

وبحكم الإنسانية الجامعة لسنا أضدادا، حتى نكون بالضرورة مختلفين.. ولكننا نختلف، وليس كلُّ مختلفَين ضِدَّين!

ولقد كان فارس الخورى - المسيحى - صديقا حميما لمندوبى أندونيسيا وباكستان - المُسلِمين - وكان يُردد:

أنا مسيحى دينا.. ومسلم وطنا وثقافة!

ويحكى الدكتور «ممدوح حنا وهبة» واحدة من التجارب الإنسانية الرائعة:

« فى مساء أول أيام عيد الفطر المبارك، شاءت الظروف حضور أحد المرضى العقليين فى حالة هياج شديد إلى قسم الأمراض النفسية والعصبية بمستشفى بنى سويف.

والمريض عملاق ضخم، وبطل سابق فى كمال الأجسام ورفع الأثقال والمصارعة، ولما توجهنا به إلى مستشفى الخانكة اصطدمنا بالروتين.. فسقط فى أيدينا. فماذا أفعل. ومعى والدة المريض المسنة والسائق المتعب. والمريض الذى يَزْأَرُ داخل السيارة فى الصحراء المترامية.

وشاءت المقادير أن يمر علينا أحد المواطنين، وعلم بمأساتنا، وصمم على استضافتنا بمنزله، وبالرغم من الخطورة الواضحة للمريض.

وتساءل المواطن عن هذا الوضع الغريب.. وأستميحكم عذرا فى هذا القول: حينما قدمتُ له نفسى عرف من فحوى الأسماء أننى والمريض ووالدته مسيحيون،

وازداد إصراره على استضافتنا بمنزلة حتى يُشرقَ الصباح ، ويَسْلَم المريض.

وقدَّم لنا جميعا طعام العَشَاء والفطور، بأريحية ومودة فائقة، وكان حديثه هو وزوجته معنا شائقا عن وحدتنا الوطنية، وأن الإسلام يحض على إكرام الغرباء وضيافتهم.

وتحية العرفان من طبيب قبطى مصرى ببنى سويف.. إلى أخيه السيد محمد إسماعيل عبد العال المسلم الكريم بمدينة الخانكة».

ومن هذا الواقع الناطق بسماحة الإسلام.. ننطلق فى جو الآيتين الكريمتين.. فى محاولة.. لتقنين.. هذا الواقع من خلالها:

يقول الله سبحانه:

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

[سورة الممتحنة ٨ ـ ٩]

إن الآيتين الكريمتين تفرقان بين مستويين من المعاملة بحيث لا نسوى بين أعدائنا، وجيراننا:

فالآية الأولى تتحدث عن طائفة من المخالفين فى الدين، لا مانع لدى الإسلام من برهم، والإحسان إليهم، والعدل فى معاملتهم، وذلك بسبب أنهم:

(أ) لم يقاتلونا من أجل الدين.

(جـ) ولم يخرجونا من ديارنا.

وينبغى أن يظل المسلم عنوانَ هذا البر ما كان تصرفُ الآخرين محكوما بهذه القاعدة.

وإذا سول الشيطان لبعض المغرورين أن يحوِّلوا أجمل مسجد «إلى أجمل كنيسة» كما حدث فى الجزائر يوما فليبق المسلم وفيا للمبدأ المنسجم مع روح

الإسلام. . فلا يتخلى عنه فى ثورة الانفعال، ليبقى للمسالمين حظهم مع البر والعدل، على مستوى المجادلة والمعاملة معا.

أفق الإحسان:

وقد يضيق صدر المؤمن يوما ببعض الممارسات الطائشة. . وقد يحمله ذلك على التخلى عن موقفه الذى أمره به الإسلام، ومن هنا تختم الآية الكريمة بقوله تعالى: **﴿إن الله يحب المحسنين﴾**.

وإذ تُلوح بأفق الإحسان الأعلى، فإنها تُهيب بالمسلم أن يظل متربعا على قمة الإحسان دائما، فإذا كان العدل جميلا، وإذا شفى الله به صدور قوم مؤمنين، فإن الإحسان للمخاطب فى الدين أصدق دليل على إنسانية المسلم الذى يَدُل بسلوكه على أن هذا الدين حقا من عند الله.

هيمنة الإسلام وأمر آخر

إن الآية الكريمة تهيب بنا أن نظل مصدر عطاء للآخرين، فنحن أناس لا توسط بيننا. لنا الصدر بين العالمين. . أو القبر.

وهذا يعنى إمكان التعايش بين المختلفين فى الدين ويمنع من أن تمد أيدينا إليهم، بأذى وأن تمتد إليهم بالبر. . بالعطاء. .

إن أمتنا هى التى تبر غيرها. .

وهى التى تجلس على منصة الحُكم بينهم!

أما أعداؤنا. . فهم الذين تتحدث عنهم الآية التالية:

﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. [الممتحنة: ٩]

لقد اعتدوا علينا مباشرة وبالقتال والإخراج من الديار، أو خططوا وساعدوا من وراء الستار، فهؤلاء لا ينالون شرف صلتنا وبِرنا، ومَنْ تورط مِن المسلمين، وتناسى ذلك العدوان «فوالاهم» فهو الظالم حقا، لأنه ظَلَم نفسه وظلم دينه.

ومعنى ذلك: أن القاعدة فى الإسلام هى: السلام، فالإسلام دين هداية،

ورحمة للعالمين.. وآخر الدواء في شرعته السلاح، وإذا حمل المسلم سلاحه فلِرَدِّ العدوان المسلح.

أما الشرك: فهومرض فكرى.. ومن ثم فعلاجه بالحكمة والحوار ومواجهة الرأى بالرأى، بدليل أن الذين أجيز لنا برهم، مشركون.. « والآيتان وردتا بشأن معاملة المشركين، والمعتدون أيضا مشركون.. فلو كان الإسلام يحارب الشرك بفرض التوحيد لحارب الطائفتين كلِتهما.. لكنه يسالم من سالمه .. ويردع من يعتدى عليه.

أهمية الحوار مع الغرب

إذا كنا نريد حل مشكلاتنا.. والخروج بأمة الإسلام من النفق المظلم.. فإنه لا سبيل إلى تحقيق هذا الأمل إلا بالحوار الذى نتفاعل به مع واقع الحياة أخذا وعطاء..

بقدر ما نفيد من خبرات الآخرين.

ويؤكد كذلك أمور استخلصها الباحثون.

أولا: أن العزلة لم تصبح ممكنة فى زمان صار قرية واحدة !

وثانيا: أن العزلة تحرم الأمة من التكيف مع بقية عناصر المجتمع المؤثرة فى سيرته.

وثالثا: رفض الحوار مع الآخرين .. قد يتحول مع الأيام إلى عداء.. ناشئ عن غرور بما تملك من إمكانات.. كان من الممكن أن تتفاعل مع إمكانات الآخرين.. لتكون شيئا مذكورا..

وليكون الحوار.. بدل الدمار!

لقد وقف ﷺ على الصفا.. وفى وضح النهار.. ثم دعا كل القوى المتحكمة فى أقدار المجتمع وفتح معها حوارا.. إن لم يحقق نتائج حاسمة.. فقد هز التقاليد هزا.. مهد السبيل إلى اعتناق الإسلام.

يقول .د. أبو المجد:

«إن الأمر قد تغير، وأن الزمان قد استدار وأن أمتنا العربية والإسلامية تواجه على امتداد حدودها أخطارا أو تحديات لم يجتمع مثلها من قبل على امتداد تاريخها الطويل؛ ذلك أن اللحظة التاريخية التى أذن الله أن تسقط فيها الحواجز بين الشعوب، وأن ترفع السُّتر التى كانت تحجز بين الثقافات والحضارات، وأن تتسع سوق التبادل التجارى والاقتصادى، وأن تُرفع منها القيود والسدود، هذه اللحظة التاريخية قد جاءت وأمتنا تجعلنا نستشعر الخطر، ونتجه إلى وضع حوار الحضارات فى إطاره الصحيح»[1].

والإطار الصحيح هنا هو ماكان على شرط الإسلام.

١ ـ كل فريق يتقدم إلى ساحة الحوار. ومعه دليله المعتمد وإلا سقط.

٢ ـ ألا يؤدى رأى إلى باطل أو محال.

يقول العلماء:

إن الاختلاف هو : ما استجمع هذين الشرطين.. والخلاف.. ما حُرم من الاثنين أو أحدهما.

شاهد من القرآن

يقول الله تعالى:

﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2].

وهكذا ترى:

وقد نزلت الآية الكريمة حين زعم اليهود والنصارى أن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا. فقيل لهم: هذه الأديان إنما نزلت من بعده. فكيف أهلها أفلا تعقلون؟

لقد جادلتم فيما ورد فى كتبكم. فلم تحاجون فيما لم يرد فيها؟

---

(١) الوعى الإسلامى رجب ١٤١٧.

(٢) آل عمران : ٦٦ ـ ٦٧.

الحق أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين.

إنه من أصول الحوار أن يكون الموضوع مما تجوز فيه المناقشة.. بحيث يحتمل آراء متعددة .

وعلينا ونحن نواجه الآخرين.. أن ندرك هذه الضوابط.. صادرين عن وعى كامل بشراسة المواجهة

نحن ....وهم

إذا كان هذا هو مبلغ سماحة الإسلام فى تعامله مع الرأى الآخر .. مهما كان موغلا فى البطلان .. فإنه مما يزيد الصورة وضوحا أن نُعرج على مثال واحد يوضح ضيق الآخرين بالرأى المعارض... وبضدها تتميز الأشياء :

يقول تعالى في (سورة يونس):

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾(١)

مغزى الاقتراح

١ـ إنهم يطلبون قرآنا غير هذا القرآن :

لا على نظمه....

أو بدله : فيجعل مكان آية العذاب آية الرحمة ... وآية الذم تكون مدحا..

ذلك بأنهم لا يطيقون «الرأى المعارض».

٢ـ وقد صدروا فى هذا الهراء عن كفر بلقاء الله وإنكار للآخرة..

فهم لا يطمعون فى ثواب.. ولا يخافون من عقاب.. أى أنهم من الشر على حلّ شعورهم...

---

(١) سورة يونس : آية ١٥ ـ ١٨.

٣ ـ وقد جاء الجواب فقط عن «التبديل» المقترح . .

لأنه الأسهل . . فمن عجز عنه . . فهو عن الصعب أعجز . . . والصعب هنا هو :

الإتيان بقرآن آخر . .

٤ـ ثم حاكمهم إلى دليل واقعّى هو :لقد لبِثْتُ فيكم أربعين سنة قبل البَعْثة :

لمْ أتتلمذ على معلَّم . .

ولمْ أقرأ كتابا . .

فكيف آتى بكتاب على هذا النسق المعجز ؟

٥ـ وإنك لتجد فى الجواب تعريضا بهم وكيف كان ذلك الاقتراح العابث قادحا فى صحة عقولهم.

٦ـ ولاحظ أنه تعالى يخاطبهم فى الآية السادسة عشرة

﴿ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ﴾

لكن لما أراد دفعهم بالظلم . . جعلها قضية عامة:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾

أى أن القرآن يعمل على أن يظل باب الحوار مفتوحا. . .فلعل وعسى.

٧ـ لا شك أن فى طوايا ذلك كله . . تحذيرا للمسلمين أن يتشبهوا بهم . .

واقع المسلمين [1].

قال تعالى :﴿ **ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا** ﴾[2].

[وإنه لمن من المؤسف حقا، برغم وضوح معنى الآية، أن بعض المسلمين لم يكفوا قط، منذ وفاة النبى إلى يومنا هذا، عن عادة تكفير من يخالفهم فى رأى: عثمان كفّروه، وعلى بن أبى طالب كفروه، ومعاوية كفروه، وقد سبق لهم أن

---

(١) عن مجلة العربى.

(٢) النساء: ٩٤.

كفروا الإمام الغزالى ثم أسموه بعد موته حجة الإسلام ومحجة الدين، وكفروا الباقلانى ثم قالوا: إنه صاحب أجَلّ الكتب فى إعجاز القرآن، وكفروا ابن تيمية الذى باتت تعاليمه أساس المذهب السائد الآن فى أكثر من بلد إسلامى، وكفروا الطبرى صاحب أعظم تفسير للقرآن، وكفروا الشيخ محمد عبده حين دعا إلى استخدام ماء الصنبور فى الوضوء بدلا من الميضأة التى كانت تعج بالجراثيم، وكفروا جمال الدين الأفغانى وهو من هو .

قال الغزالى فى كتابه «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة»:

زعمت طائفة أن فى بعض كتبى ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين، وأن العدول عن مذهب الأشعرى، ولو فى قِيد شبر، كُفْر . . فهون عليك أيها الأخ المشفق على نفسك واصبر على ما يقولون . فأى داع أكمل وأعقلُ من سيد المرسلين وقد قالوا: إنه مجنون من المجانين ؟ وأنى تتجلى أسرار الملكوت لقوم معبودهم سلاطينهم، وقبلتهم دنانيرهم. وإرادتهم جاههم ؟ فهؤلاء من أين تتميز لهم ظلمة الكفر من ضياء الإيمان ؟ **﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن بالمهتدين﴾**[1].

خاطب صاحبك وطالبه بحد الكفر، فإن زعم أن حد الكفر ما يخالف مذهب الأشعرى، أو مذهب الحنبلى، أو مذهب المعتزلى، أو غيرهم ،فاسأله من أين ثَبَتَ له كونُ الحق وقفا عليه حتى قضى بكفر الباقلانى، ولم صار الباقلانى أولى بالكفر ولَم صار الحق وفقا على أحدهما دون الآخر؟ أكان ذلك لأجل السبق فى الزمان؟ فقد سبق الأشعرى غيره من المعتزلة فليكن الحق للسابق عليه؛ أم لأجل التفاوت فى الفضل والعلم؟ فبأى ميزان قَدَّر درجات الفضل حتى لاح له أن لا أفضل فى الوجود من متبوعة؟؛ فإن رخَّص للباقلانى فى مخالفة الأشعرى، فلم حجر على غير الباقلانى ؟ وما الفرق بين الباقلانى والكرابيسى والقلانسى وغيرهم؟ . . إن من جعل الحق وفقا على واحد بعينه هو إلَى الكفر أقرب. . ومع ذلك فإن كل فرقة تكفِّر مخالفها فالحنبلى يكفر الأشعرى، والأشعرى يكفر الحنبلى، والمعتزلى يكفر الأشعرى. ولا ينجيك من هذه الورطة إلا أن تعرف حد

---

(١) النحل: ١٢٥.

التكذيب والتصديق وحقيقتَهما، فينكشف لك غلو الفِرق وإسرافها فى تكفير بعضها بعضا . فهم ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده، وقد قال رسول الله : «إذا قذف أحد المسلمين صاحبه بالكفر فقد باء به أحدهما » .

كذا قال الغزالى رحمه الله. ونضيف نحن قولنا: إن أظلم الناس لنفسه ولغيره من قضى بحرمان الآخرين من استخدام نعمة التفكير التى أنعم الله عز وجل بها علينا، وقَصَرها على نفسه .

ثم لا حل بعد هذا إلا فى التمسك بأهداب سماحة الإسلام، وبمبدأ الاحترام المتبادل القائم على حق الغير فى المخالفة انطلاقا من قناعته وانسجاما معها، وفى العمل على توفير المناخ الثقافى الذى يرفض العنف الجسدى والإرهاب الفكرى، ويسمح بتطوير قراءة النص قراءة مواكبة لتطور المجتمع وظروف العصر.

ولا حل إلا فى التفاف كل منا إلى من هم على يمينه فيقول :

ـ السلام عليكم ورحمة الله،

وإلى من هم على يساره فيقول:

ـ السلام عليكم ورحمة الله.

آداب المناظرة:

وقد وضع علماؤنا للمناظرة آدابا وشروطا تظل سليمة محققة أهدافها ماالتزْمنا بها،ثم رسمت حدوداً لايتخطاها إلا الذين ظلموا، فما هى هذه الآداب؟

يمكن، تقسيم هذه الآداب إلى قسمين هما : آداب موضوعية، وآداب خلقية:

فالآداب الموضوعية يراد بها تلك القواعد الفنية التى تعصم مراعاتُها الذهن عن الخطأ فى الفكر، حتى يستقيم سيره على الخط المستقيم فلا تنحرف به الأهواء.

ولا بد قبل بيان هذه القواعد من الإشارة إلى أنه ينبغى أولا:

أن يسأل كلُّ مجادل نفسه عما يلى:

* موضوع الحوار، ماهو؟

* وهل هو مما يحتمل تفاوُتَ الفكر؟

* وهل نحن فى حاجة ملحة الآن إلى التناظر فيه؟

* ثم، هل نحن مستعدون سَلَفا للالتزام بما يُسفر عنه الجدل؟

* وإذا لم تكن الإجابة هنا على وَفق الحق، فنحن مقبلون على جدل ظالم أشارت إليه الآية الكريمة، يحاول كل طرف فيه تأكيد ذاته، ثم يحاول تنحية خصمه، والتفرد بالرأى ولو على حساب المصلحة.

وجدلٌ من هذا النوع ينبغى أن يتوقف؛ لأن استمراره يزيد المتناظِرين نفوراً.

أما إذا أخلصنا الوجهة لله تعالى، فقد بقى علينا أن نعى آداب الحوار، حتى لا تزل أقدامنا .وفى مقدمتها:

تحديد موضوع الخلاف، أو تحديدُ المراد حتى لا تنفك الجهة ولتبقى الآراء واردة على قضية محددة المعالم.

ومن آداب الحوار:

الإحاطة بأطراف القضية [١]:

اشترط الإمام الغزالى على من يريد نقد علم من العلوم أن يتبحَّر فيه.. بل ويزيد على أعلم علماء هذا الفن.. ليتمكن من إدارة الحوار على قاعدة راسخة من العلم.

قال :

«لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوى أعلمهم فى أصل ذلك العلم، ثم يزيد عليه».

وقد بادر الإمام الغزالى إلى تطبيق هذا المبدأ على نفسه حين تعرَّض لنقد الفلسفة:

فقد تبحر فيها وهضم قضاياها إلى حد تبسيط كتب الفلاسفة حتى يُتاح فهمُها لإنْصِاف المتعلمين .

وقد عَرضَ مذاهبهم كما يعرض مذاهب الباطنية بدرجة من الوضوح دعت بعض العلماء إلى مهاجمته؛ لأنه بمسلكه هذا كان دعاية للفلسفة وإغراءً بها وإن لم يقصد إلى ذلك، ولكن الغزالى كان منطقيا مع نفسه ومع الحقيقة ذاتها، إذ كان

---

(١) عن رجال الفكر والدعوة .

على حد تعبيره:

«قررت شبهتهم إلى أقصى الإمكان، ثم أظهرت فسادها بغاية البرهان».

وموقف الغزالى هنا نابع من :

(ا) رسوخٍ فى العلم.

(ب) إدراكٍ بضرورة الاختلاف، وإتاحةِ الفرصة للرأى الآخر كىَ يبرز وتتضح أبعاده، حتى إذاً قدم إليه جعلة هباء منثوراً.

ولا بد من إتقان اللغة العربية، ليسعى المناظر إلى المعركة بواحدة من أهم أسلحتها، وإلا فإن غياب القاعدة النحوية أو الصرفية مُوقِعٌ فى اللبس لا محالة.

(فمن لا يتقن العربية غير جدير بالنظر فى الشريعة، وهو يَعنِى بإتقان العربية إتقان علومها من نحو وفقة وبلاغة وأدب وشعر) ولقد حضر رجل من خراسان حلقة الشافعى فى جامع عمرو، فسأل: «ما الإيمان»؟

فرد الشافعى: «فما تقول أنت فيه» فقال الرجل: «الإيمان قول».

فقال الشافعى: «من أين قلت بذلك»، قال الرجل: «من قوله تعالى»، ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ فصارت الواو فصلا بين الإيمان والعمل، فسأله الشافعى: « فعندك الواو فصل» قال نعم، قال الشافعى: فإذن كنتَ تعبدُ الهين فى المشرق إلها وإلها فى المغرب لأن اللّه، تعالى يقول: ﴿**رب المشرقين ورب المغربين**﴾، قال الرجل سبحان اللّه، أجَعَلْتَنِى وثنيا:

قال الشافعى: (بل أنت جعلت نفسك كذلك بزعمك أن الواو فصل).

وعن أهمية اللغة العربية فى عصمة الأمة من الاختلاف يقول الشافعى :

(ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب).

وما أساء الأجانب فى تناولهم لقضايا الإسلام إلا لهذا السبب.

تورط بعض المستشرقين وفسر قوله تعالى: ﴿**وترى الملائكة حافين من حول العرش**﴾(١).

فَسَر كلمة «حافين»، أى بدون أحذية ، لعدم علمه باللغة (٢).

---

(١) سورة الزمر: ٧٥.

(٢) العقاد فى «الإسلام دعوة عالمية».

جاء فى لسان الميزان:

(مما يذكر من سرعة جواب المتنبى، وقوة استحضاره أنه حضر مجلس الوزير ابن جنزابة وفيه أبو على الآمدى الأديبُ المشهور، فأنشد المتنبى أبياتا جاء فيها:

إنما التهنئات للأكفاء .

فقال أبو على :

التهنئة مصدر، والمصدر لا يجمع؛

فقال المتنبى لآخر بجنبه: أمسلم هو؟

فقال: سبحان الله؛ . . . هذا أستاذ الجماعة أبو على الآمدى؛

قال المتنبي: فإذا صلى المسلم، وتشهد، أليس يقول :التحيات لله.

قال: فخجل أبو على وقام من المجلس).

ومن آدابها: أنه لابد من تبادل المعلومات من قبل المتناظِرَين، فربما لا يكون معها خلاف، ويكفي الله المؤمنين القتال.

وقد أشار ابن تيمية فى «رفع الملام عن الأئمة الأعلام»، أن من أسباب اختلاف الأمة(أن يكون الحديث قد بلغ مجتهداً، ولم يبلغ الآخر).

فإذا توافر الإخلاص لدى المتناظرين، وتطوع كل منهما بتزويد صاحبه بما قد يكون غائبا عنه من معلومات ربما اتضحت معالم الحقيقة، وظهر الصبح لذى عينين، فلم يكن جدال ولا حرب سجال.

ومن آدابها الوقوف بحذر إزاء كل رأى يدور حول الموضوع ولا بد من تمحيصه قبل أن يَسْبِق المزاج الشخصى فيتقبله للوهلة الأولى، ثم يكشف البحث بعدُ عن زَيْفه.

لكن ذلك الحذر لا معنى له إزاء أمور تُتَقَبَّل بادئ ذى بدء بلا حذر؛ لأنها من المسلمات ومنها:

(ا) القضايا الكلية الثابتة فى الإسلام.

(ب) الأمور البدهية.

(ج) ما أثبته العلم يقينا.

مع ملاحظة أنه لا خلاف بين العلم اليقينى والقرآن؛ لأنهما معاً من عند الله عز وجل.

وإنما يحدث الخلاف بين : العلم الظنى، وحقائق الإسلام، وبين العلم اليقينى، وكل فهمٍ خاطئ لأمر من أمور الإسلام .

* ولا بد أن تتوافر لدى الباحث قدرة على فرض احتمالات متعددة تُعينه على تقليب الفكرة المعروضة على وجوهها المختلفة، بحيث تنكشف كل الزوايا. وكل الأبعاد، فلا يغيب احتمالٌ يمكن فرضُ وقوعه؛ لأن غياب احتمال واحد يضر بالحقيقة، إذ ربما كان هذا الاحتمال الغائب مفتاح الحقيقة المنشودة. ونذكر هنا قاعدة «السَبْر والتقسيم» وهى قاعدة أصولية يراد بها استنباط عِلل الأحكام، والتأكدُ من صحتها.

وهى: استحضار كل الاحتمالات، وعرضُها أمام الفكر الذى يدرسها واحدة واحدة، وبدقة، وإلا فلو لم يَستقص الباحث هذه الاحتمالات لا يكون منطلقا من نظرة شاملة، فيزل . ويظلمُ الحقيقة مهما ملك من منهجية البحث.

السبر والتقسيم[1].

تقول اللغة:

سبَرتُ القوم - من باب ضرب - . . . تأملتهم واحدا واحدا لأعرف عددهم

وسَبْرتُ الجرح سبرا - من باب قتل - تعرفت عمقه.

والسَّبار : فتيلة يعرف بها ذلك

والسبر راجع إلى هذا المعنى. . وهو بتبسيط شديد:

ذكر أقسام الموضوع المختلف فيه. . وبيان أنه ليس فى أى قسم منها خاصية تحمل الخصم على أن يدعى ما يدَّعيه. .

مثال:

يقول تعالى فى سورة الأنعام :

---

(١) راجع - الجدل للمرحوم الشيخ أبو زهرة ص٦٧.

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

قال السيوطى فى الإتقان: بتصرف منا

«إن الكفار لما حرّموا ذكور الأنعام تارة، وإناثها أخرى. ردَّ الله تعالى ذلك عليهم بطريق السبر والتقسيم :

فقال :

إن الخلق لله تعالى :

خلق من كل صِنْف مما ذُكِر : ذكرا وأنثى .

فعلى أى أساس حَرّمتم؛ ما ذكرتم؟ ما علته؟

إما أن يكون التحريم من جهة الذكورة أو الأنوثة . . . أى بسببها . . .

وإما أنكم حرمتم ما حرمتم لأن الرحم شامل لها . . .

أو أن التحريم لا تدرى علته . . . وهو أنه أمر تعبدى يؤخذ من الله تعالى .

والأخذ عن الله تعالى : إما بالوحى وإرسال رسول . . .

أو سماع كلامه عز وجل ومشاهدة تلقى ذلك عنه وهو معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾

فهذه وجوه التحريم

وبناء على ذلك نقول :

إذا كان التحريم بسبب الذكورة .. فيلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراما . . .

---

(١) سورة الأنعام آية ١٤٣، ١٤٤ .

وإذا كان التحريم بسبب الأنوثة . . فيلزم عليه أن يكون كل الإناث حراما . . .

وإذا كان التحريم بسبب أن الرحم مشتمل عليهما . . فيلزم عليه تحريم الصنفين معاً . . لأن الرحم اشتمل عليهما معا .

وإذا كان التحريم من الله تعالى :

فإنا نقول :

الأخذ عن الله تعالى بلا واسطة . . باطل . . وهم أيضا لم يدَّعوه لأنفسهم .

وباطل أيضا أن يكون رسولٌ قبل محمد ﷺ قد جاءهم بهذا التحريم .

وإذا بطل ذلك . ثبت المدَّعى . . الحق وهو :

إن ما قالوه من التحريم افتراء على الله تعالى وضلال . .

ومن آداب الحوار ما أشارت إليه الآية الكريمة حين تحدثت عن أظلم الظلم . . وأن الله لا يهدى الظالمين فعممت القول ولم تواجه به المفترين الظالمين مباشرة :

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾

ثم **﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾**

ذلك بأن القرآن يفتح باب الحوار ولا يغلقه أبدا . . .

ويبقى على الظالمين أن يفيقوا إلى الحق فى قضية التحريم والتحليل بعد ما تبين . .

وأن الحرام . . ما حرم الله تعالى . . وذلك قوله سبحانه فى الآية التالية مباشرة ـ ١٤٥ـ

﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا ﴾ الآية .

من صور التمويه

وقد يَعمِد المناظر المغرضُ إلى إسقاط احتمال معين ـ لأنه لا يرضيه ـ فيبدأ سيره لا من قاعدة الإخلاص ولكن من : التعصب، أو الجهل، أو إرادة الخداع. أو عن رغبةٍ سابقةٍ فى نتائج معينة، أو عن رغبة سابقة أيضا فى تنحية رأيٍ معين.

ولقد كانت هذه خطة أعداء الإسلام، فقد كانوا يبحثون عن الدين الحق، أين هو ؟ ثم يُسقطون الإسلام من الحساب، فيضلُّ سعيهم ؛ وقد يحاولون التمويه بعد أن تنكشف نواياهم، فيبحثون فى الإسلام موهمين .

أنهم ملتزمون بالَحيدْة والإنصاف. لكن قلوبهم ما زالت تحمل نفس الغرض أو المرض.

كيف؟ . . كانوا يحاولون مثلا بيان طبيعة انتصار الإسلام فيتساءلون هل هو انتصار يسار على يمين؟ أو هو ثورة على تخلف اقتصادى؟ أو سيادةُ العرب على العجم؟

يقولون ذلك، ثم يُسقطون الاحتمال الذى هو مفتاح الموقف، وهو أنه انتصر: لأنه وحى من عند الله تعالى جاء به نبى مرسل من عنده سبحانه.

فإذا تحدثوا أيضا عن الشريعة الإسلامية تساءلوا فى خُبْث : هل هى صدى لليهودية؟ أم هى راجعة إلى القانون الرومانى؟ أم كانت صدى لحضارة سبأ؟.

يقتلون هذه الاحتمالات بحثا، ثم يتجاهلون النقطة الفاصلة العادلة وهى أن الشريعة : وحى من عند الله.

يفعلون ذلك. . فى الوقت الذى يظل المسلمون أوفياء لمبدأ الإنصاف. . .

وكان جميلا أن يأخذ الآباء أبناءهم بآداب الحوار . . على أوفي معانى الدقة والانضباط.

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٤٥.

ومن أمثلة ذلك:

أوصى يحيى بن خالد بن برمك ابنه«جعفر» فقال:

لا ترد على أحد جوابا.. حتى تفهم كلامه. فإن ذلك ـ أى التسرع فى الرد ـ يصرفك عن جواب كلامه إلى غيره.. ويؤكد الجهل عليك ،لكن افهم عنه.. فإذا فهمته فأجِبْه.

ولا تعجل بالجواب قبل الاستفهام.

ولا تستحى أن تستفهم إذا لم تفهم:

فإن الجواب قبل الفهم حُمْق.

وإذا جهلتَ ما قيل فسؤلُك واستفهامك أجملُ بك.

وخيرٌ من السكوت على العِيّ.

قبل أن تتحول المناظرة إلى مهاترة

تمهيد:

كما يقرر البصراء بطبائع النفوس:

لابد من الحوار.. وبخاصة مع المخالفين فى الدين:

(ا) على الأقل لتعرف خططهم: واتجاهاتهم.

(ب) ثم لتعدَّل خططَك أنت فى جولات تالية.

(ج) مستفيدا من معرفتك بنقاط الضعف لدى خصمك.

ولابد للحوار من أمور:

(ا) قضية يدور حولها.

(ب) ضوابط أخلاقية. تحدد مساره فى اتجاه الحق.

(ج) شروط يتم بها بناؤه.

وعلى سبيل المثال:

فى قصة موسى عليه السلام: فإن القضية هى : طغيان فرعون.

والوسيلة هى : القول اللين . . بعيدا عن التجريح.

والشرط هو : عدم الخوف. . فراراً من المجاملة على حساب الحق المأمول:

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ ﴾ [1].

فلم يعد الأمر حواراً . . بل تحول العناد إلى مراء : بلا موضوع ولا ضوابط يراد به صرف القوى فيما لا يفيد .

وقد وضع فرعون بذلك خطة الأعداء فيما بعد. . والذين نجحوا فى تحويل مجرى المناظرة إلى ما يريدون من وضع أهل الحق فى موقف الدفاع دائماً. . .، بما صدَّروه إليهم من قضايا وهمية يثيرونهم بها . . ويشغلونهم بالمراء حولها.

يقول باحث:

«فُبَدِّدَت طاقات . ،نَزَفت جروح. .وامتلكت ردودُ الفعل الغاضبةُ إرادتنا . . حيث لم يبق لنا متسع لفعل نملكه نحن:

وسوف تبقى هذه المواقف الدفاعية . والأفكار الدفاعية . على حساب البناء الداخلى والإنجاز الأهم.

ونحن هنا لا نقول : بأن الدفاعاتِ غيرُ مطلوبة وأن الحراسة لا قيمة لها. وإنما الذى نريد أن نوضحه :

أنها عند الأمم التى تبْصر مهاَمَّها تماما. وتدرك مشكلاتها حقيقة تُقَدَّر بقدرها.

ولنا فى منهج القرآن خير دليل :

فلو أن القرآن استجاب لكل تمحلات الكافرين وشكوكهم وشبههم لكانت آياته جميعا تمثل رد الفعل:والاستجابة لطلبات الكافرين ولما تفرغ لبناءه أمة وإنجازِ حضارة:

---

(1) سورة طه: ٥١.

والذى نلمحه من منهج القرآن فى ذلك :

أنه طرح من الحقائق والأدلة ما يكفى لمزيد من الاستدلال؛ لأن المستشير إنما يطلب أفضل الآراء . . والله تعالى يحكم ولا معقب لحكمه.

ولعل السر هنا كامن فى تعليم البشر كيف يفكرون . . ويتقاسمون القضية المطروحة حتى لا تستأثر بها وجهة نظر واحدة . . وقاية للأمة من الاستبداد . وما يترتب عليه من بروز زعامات طاغية باغية . لا تسمع إلا صوتها ولا ترى إلا صورتها».

وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ .

وتأمل الآية الكريمة لترى أن فاعل «رآه» ومفعوله واحد؛ كما أسلفنا

واحد . . . . هو الكل . . فى الكل

«إن الحوار الهادف لون من ألوان الجهاد بالكلمة الشريفة والبرهان القاطع .

كما قيل: لقد [1] بدأ الوحى بالكلمة : اقرأ . وجعل الجهاد الفكرى . أو المجاهدة بالقرآن . وبناء الشوكة الفكرية. هى أعلى أنواع الجهاد وأسماها.

لأن الساحة الفكرية هى ميدان المعركة الحقيقى بين الإسلام وخصومه

قال تعالى :

﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [2] .

ولقد أدرك فرعون الطاغية ما فى منطق موسى عليه السلام من ثقة وتحدٍّ . . فحاول الفرار من المعركة الفكرية إلى متاهات المراء بالباطل كما بينته الآية الكريمة:

والذى لا يستدل بما طرحه من آيات وأدلة فلن يستدل، فالمشكلة لم تعد فى الدليل . وإنما بعناد من ينبغى أن تتجاوزه إلى مرحلة البناء المرصوص . بحيث لا يوجد بعد ذلك مداخل وفراغات يملؤها الأعداء.

---

(١) المنهج فى كتابات الغربيين ـ ٧

(٢) الفرقان آية ٥٢ .

ومن جانب آخر : فلعل الأساليب الدفاعية . أو الأفكار الدفاعية تشكل نوعا من الراحة النفسية؛ لأنها فى النهاية تعني إعفاء النفس من المسئولية وإيجاد الذريعة لها عن عملية البناء . والواجب الحضارى المطلوب».

وما زال الماكرون يكيدون

أجل ما زالوا يكيدون لعرقلة مسير القافلة:

ومنهم ذلك المستشرق القائل:

لقد منع محمد الناس عن عبادة الأصنام .. ثم أمرهم بالسجود للكعبة وهى أحجار؟

والجواب كما قال الباحثون:

أولا: إن عبادة الصنم تكون له شخصيا.. أو لرمزه أو صورته المصغَّرة فى البيت ... ولا كذلك صلاة المسلم:

إن صلاته إلى جهة الكعبة كعلامة على بيت الله.. إلى جهتها : طولا .. وعمقا.. فمن علاها .. فصلاته صحيحة..

ومن كان أسفل .. فصلاته أيضا صحيحة .

وثانيا: إننا نعبد الله تعالى بما شرع .. وليس بما نهوَى .ونقرأ أيضا قوله ﷺ:

«أنا زعيم ببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا».

فالحديث الأول: عِدَةٌ جميلة ببيت حول الجنة لمن تعفف عن الاسترسال فى الجدال وهو محق.. وتجاوُزًا للشحناء والبغضاء .. التى تحول الجدال إلى خصومة شخصية تَقْطَع حبال المودة.

إلى جانب ما قد يحققه التوقف عن الجدال من عودة الخصم إلى الحق بعد أن نكون قد مهدنا له السبيل إليه.

ثم يشير الحديث الشريف إلى ترك الكذب حتى ولوْ رُخِّصَ فيه لحظة المُزاح.. من حيث إنه سوف يجر إلى الكذب فى غيره.

وقد ركز الحديث على عمدة الأمر كله وهو :أن نقاء السريرة من الهوى مؤدٍّ بصاحبه إلى أعلى منازل الجنة. كفاء ما حقق من إخلاص تنبثق عنه جسور من المودة . لتصبح السيادة للحق وحده.

وفى الحديث الثانى: ضمان منه ﷺ ببيت فى وسط الجنة لمن أقلع عن الكذب . وإن كان مازحا . . وهو آفة الاسترسال مع هوى النفس. . ،بخاصة فى مجال المناظرة التي قد تحمل عليه انتصارا للنفس ولو على حساب الحق.

وذلك بأن للكذب ـ كما يقرر علماء الاجتماع ـ ضَرَرَين: ظاهرٍ وباطن.

فالضرر الظاهر: يتمثل فى ظلم الناس .وإضاعةِ حقوقهم إلى جانب أنه تحريض للآخرين على خيانة الأمة. والحقيقة. لأنه يسرى بالعدوي إلى الغير . . وما من جريمة تُرتكب إلا والكذب يقف من ورائها.

والضرر الباطن (هو أشد إفسادا للشخص . وأمعن فى تخريب جسم الأمة):

لأن عادة الكذب تنتقل من لسان الكذاب إلى ضميره:

وتنتقل لعقله. فيصبحُ عقله كذابا:

لا يرى الأمور إلا معكوسة . ولا يحكم إلا بالخطأ .

ويتمادى هذا المعنى في الصناعة .والزراعة ،وكل الوظائف المكَّونة لحياة الأمة وجهاز الدولة. فينقصُها الجِدُّ والأصالة ومطابقةُ المَثَلِ المطلوب فعندئذ تفقد الأمة قلبها . .وتتحرك على الفارغ»[1].

وهذا ما اجتمعت كلمة العلماء على التحذير منه

من آثار المراء

تنتسب المناظرة المراد بها الغلبة والشهرةُ وإظهارُ الفضل . . تنتسب إلى الفواحش الباطنية:

(١) من مقال للدكتور محمد سعاد جلال.

من (الكبر والعجب والحسد كنسبة الخمر إلى الفواحش الظاهرة : من الزنا والسرقة لأنها تهيجها [١] .

وعندما تتمكن إرادة الغلبة من نفس المناظر . .فإنه يفتح على نفسه أبوابا من الفتنة تِنسج أمام بصيرته ضبابا لا يمكنه من رؤية الحق.

بقدر ما يحاول تلطيخ سمعة خصمه . فتتسع الهوة إلى حدٍّ لا يسمح بلقاء.

إن المناظر المنحرف محمود فى نظر نفسه. . بينما خصمه مذموم فى تقديره.

وكلما تصور أن خصمه أحسنُ منه كلاما . أو سُمعةً حَسَدَة. . فأكل الحسد وجوده . . فيشتعل قلبه نارا. . كلما تفوق عليه زميله وظن أن الجمهور معه.

وهكذا تصبح القضية :دُنْيا . . فيتقاتلون على القرب من وِسادةِ الصَّدر والتقدم فى الدخول عند مضايق الطرق».

جذور الانحراف:

ولهذا الانحراف جذوره النتنة فى النفس البشرية :ـ

فعندما يستدبر المناظر الحقيقة متخذا إلهه هواه. . فقد انبجست فى نفسه عيون آسنة من رذائل النفس. . فكان النفاق ، والكبر، وتزكية النفس . . والحط من قيمة الغير . . والتجسس والرياء والعناد.

قيل لحكيم : ما الصدق القبيح؟ قال : ثناء المرء علي نفسه.

وقد يَعْمِد المناظر ـ فى غمرة إحساسه بذاته ـ إلى إرسال جاسوس يستكشف له عيوب مناظره داخل بلده حتى عيوبِه فى صباه ليوجه من هذه العيوب سهاما عندما يتفوق عليه؟

وتحت ضغط هذه الآفات . . يضع المنحرفون ذواتهم فى كِفة. .والحقَّ فى كفة. . ثم ينتصرون فى النهاية لأنفسهم، وتظل المعركة مستمرة فأصبحوا كالأم الجاهلة:

---

(١) راجع إحياء علوم الدين ج١ / ص٦٩ وما بعدها.

إنها ـ بدل أن تعطى وليدها الدواء تهدهده، حتى لا يصرخ فيزعج الجيران.

كذلك كانوا: يؤرجحون عقولهم .. حتى لا تواجه أخطاءها..

ولا يعالجونها بشجاعة تحسم الموقف.

أهمية القدوة:

الأصل فى الدعوة أن تكون بالعمل والقدوة ... قبل أن تكون مواعظ وخطبا. يقول الحق سبحانه: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾.

فالمؤمن مطالب بالشكر العملى .. ولا يكفى أن يكون قولا باللسان.

يقول الغزالى: «إن صلاح المؤمن هو أبلغ خطبة تدعو الناس إلى الإيمان، وخُلُقَه الفاضل هو السحر الذى يجذب إليه الأفئدة، ويجمع عليه القلوب»

إن طبيعة البشر محبة الحسن، والالتفات إليه، وأصحاب القلوب الكبيرة لهم من شرف السيرة، وجلال الشمائل ما يبعث على الإعجاب بهم، والركون إليهم.

ومن ثمَّ .. فإن الداعية الناجح الموفق هو الذى يَهدى إلى الحق بعمله، وإن لم ينطق بكلمة؛ لأنه مثل حى للمبادئ التى يعتنقها.

وقد شكا الناس فى القديم والحديث من دعاة يحسنون القول، ويسيئون العمل.

والواقع أن شكوى الناس من هؤلاء يجب أن تسبقها شكوى الأديان والمذاهب منهم؛ لأن تناقض فعلهم وقولهم أخطر ما يمس قضايا الإيمان، ويصيبُها فى الصميم [(١)].

حساسية القضية:

وإذا كان ولا بد من جدال فبالحسنى وقد لا تسلم أيضا؛ فمع ما للجدل بالحسنى من أهمية.. إلا أن كثيرا من العلماء تحرجوا منه منبهين إلى مزالقه الخطرة: «رأى بعض الشيوخ بعض العلماء فى المنام، فقال له: ما خبر تلك

---

(١) من مقال للشيخ محمد الغزالى.

العلوم التى كنت تجادل فيها، وتناظر عليها؟

فبسط يده، ونفخ فيها، وقال : طاحت كلها هباء منثورا، وما انتفعتُ إلا بركعتين خَلَصَتَا فى جوف الليل.

وفى الحديث: «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**»

ثم قرأ: «**ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون**» [1].

وفى الحديث فى معنى قوله تعالى :﴿**فأما الذين فى قلوبهم زيغ**﴾. الآية :

هم أهل الجدل الذين عناهم اللّه بقوله تعالى : «**فاحذرهم**» [2].

وقال بعض السلف :

يكون فى آخر الزمان قوم يُغلَق عليهم باب العمل. ويُفتحُ لهم باب الجدل.

وفى بعض الأخبار: إنكم فى زمان أُلهمتم فيه العمل.

وسيأتى قوم يُلْهَمُون الجدل.

وفى الخبر المشهور:

«أبغض الخلق إلى اللّه الألدُّ الخَصِم»:

قال أبو حيان التوحيدى:

سمعت الشيخ أبا حامد الإسفراييني يقول لطاهر العباداني فى شجاعة أدبية يحسد عليها:

لا تُعلق كثيراً لما تسمع منى فى مجالس الجدل:

فإن الكلام فيها يجرى على خَتْل الخصم، ومغالطته ودفعه ومغالبته، فلسنا نتكلم لوجه اللّه خالصا.

ولو أردنا ذلك لكان خطونُا إلى الصمت أسرع من تطاولنا إلى الكلام ،وإن كنا فى كثير من هذا نبوء لغضب من اللّه . فإنا نطمع فى سعة رحمته.

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى أمامة، قال الترمذى : حسن صحيح.

(٢) متفق عليه من حديث عائشة.

قال ابن عباس رضى الله عنه يشير إلى ذلك المعنى :

(خذوا العلم حيث وجدتموه ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض فإنهم يتغايرون كما تتغاير التيوس فى الزريبة).

١ـ التعصب:

قال المنذر بن سعيد الفقيه الأندلسى يذم المتعصبين من الفقهاء:

عَذِيرى من قوم يقولون كلما
طلبت دليلا . . هكذا قال مالك

فإن عُدتُ قالوا هكذا قال أشهب
وقد كان لا تخفى عليه المدارك

فإن زدتُ قالوا : قال سُحنونُ مثلَه
ومن لم يقل ما قاله فهو آفك

فإن قلتُ قال اللّه ضجُّوا وأكثروا
وقالوا جميعا أنت قِرنْ مماحك

وإن قلتُ قد قال الرسول فقولهم
أَتَتْ مالكاً فى ترك ذاك المسالك

فانظر كيف قاد التعصب أهله إلى المسالك وعرة طوحت بهم بعيداً عن الساحة . . فضلوا . . . . وأضلوا.

٢ـ العناد والنفاق:

وقد شن علماؤنا الغارة علّى هذا التعصب كاشفين اللثام عن بعض الآفات المانعة من رؤية الحق: فقد قرأتُ فى كتاب « بهجة النفوس» فى شرح البخاري هجوما علي بعض المصطلحات التي يلوذ بها المجادلون مِنْ مثل قولهم:

«لا أسلِّم»و«ممنوع» وما تحمله من ظلم للآخرين . . ثم ما قد يترتب على عشق الذات من الوقوع فى حمأة النفاق .

وكان ذلك تعليقا من الشارح على الحديث الذى روته السيدة عائشة رضى الله عنها لما راجعت الرسول ﷺ فى مسألة مراجعة تعكس الأدب الإسلامى الذى يدفع المسلم ليسأل مسترشداً لا متعنتاً . . قال الشارح فى بيان الدروس المستفادة من الحديث:

[مَنْعُ البحوث التى لبعض الناس فى زماننا هذا؛ لأن ما قَصَدَ بعضهم إلا قطعَ خصمهم فيكون جوابِهم «ممنوع» «ولا أسلم» فهو لا يعلم حقيقة ما قال صاحبه فَحُرِمَ الفائدة لجهلة بآداب البحث، وقد قال الشافعى رحمه الله والسادة العلماء: ما باحثت أحداً فاخترت أن يكون الحق يجرى على لسانى ليس إلا ، وإنما قصدى أن يُظهِر الله الحق على لسان من شاء من ألسنتنا؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن فمن أتَى بها، فرِحَ بها ويترتب علي منَ يَرُدّ قبل أن يعرف مقولة خصمه وجهان: لأنه لا يخلو أن يكون ما قاله المتكلم حقا فيراجعَه بقوله : ممنوع ولا أسلم. فيدخل بذلك فى عموم قوله تعالى :﴿**يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم**﴾ فهذا حرام ممنوع أو يكون ما قاله خصمه منكرا لا يجوز. فيرده قبل أن يعرفه وتغيير المنكر لا يجوز إلا بعد المعرفة بأنه منكر هذه المسألة بالإجماع وهو أنه لا يجوز تغيير المنكر حتى يعلم أنه مُنكر فكيف يُقْدِمُ هذا المُنْكِرُ على هذين الوجهين وفيهما من الخطر ما فيهما لا سيما إنْ انَضافَ لذلك حظوظ النفس وطلبُ الظهور والفخرُ فشقاوة على شقاوة أعاذنا اللّه من ذلك .

ومما يقرب من هذا الوجه من القبح وهو عند بعض أهل الوقت من النُّبل والكَيْس وبئس الحال وهو أن يسمع مَمَّنْ تفوَّق عليه بالعلم وجها من العلوم لا يعرفه هو فيأتى إليه يسأله أن يبحث معه فى ذلك الوجه لكى يُشعِره أنه يتنازل إليه ويقول له علمنى تلك المسألة فهذا فيه وجوه محذورة منها الكذب لأنه يخبر بلسان حاله أنه يعرف ذلك الشىء وليس كذلك وفيه استنقاص بمن هو أعلم منه فى ذلك

الحال وتلك المسألة [1]]

٣ـ الرياء وطلب العلو:

روى جابر رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ :«لا تطلبوا العلم لتُبَاهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء .. ولا لتُحِيزوا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار . النار»[1].

المفروض أن المؤمن حين يَرْضى ... لا يدُخِلُه رضاه فى باطل وإذا غضب لايَخْرُجُ به غضبه من حق .

وإذا قَدَر .. لا تسول له قدرته اغتصاب حقوق الآخرين.. ولكن الإيمان قد يخفت صوته... والإرادة قد تسترخى تحت وطأة الإحساس بالذات .. وما يترتب عليه من تقديسها .. وتدنيس سمعة الآخرين.

ومن علامات ذلك: عدمُ قبول الحق. والانقياد والتكبر على من يقول الحق، خصوصا إذا كان دونهم فى أعين الناس. والإصرار على الباطل خشية تفرق الناس عنهم بإظهار الرجوع إلى الحق.

وربما أظهروا بألسنتهم ذمَّ نفوسهم واحتقارَها على رؤوس الأشهاد ليعتقد الناس فيهم أنهم عند أنفسهم متواضعون فيُمْدحون بذلك، وهو من دقائق الرياء.

ويظهر منهم مِنْ قبول المدح و استحلائه، ما ينافى الصدق والإخلاص فإن الصادق يخاف على نفسه، ويخاف على نفسه من سوء الخاتمة، فهو فى شغل شاغل عن قبول المدح واستحسانه [2].

رأى الإمام مالك:

كان يكره كثرة الكلام والفتيا ويقول :

---

(١) بهجة النفوس ج ١/ ٢٤٧

(٢) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة باب الانتفاع بالعلم والعمل به.

(٣) مجلة الجامعة السلفية أكتوبر ١٩٨٥.

[يتكلم أحدهم كأنه جَمَل مُغْتَلم[1] يقول : هو كذا هو كذا :يَهدِر فى كلامه]

وقيل له :

[الرجل يكون عالما بالسّنن. مجادلا عنها ، قال : لا . . ولكن يُخبر بالسنة. فإن قُبِل منه. وإلا سكت][2]:

وقال أيضا:

[الجدال والمراء فى العلم . يذهب بنور القلب] [3].

وإذا ذهب نور القلب قسا وتجمد، وذلك قوله:

[المراء فى العلم يقسو بالقلب، ويورث الضغن] [4].

وكان رضى الله عنه ملتزما سلفاً بما يحدث به الناس. . وكثيرا ماكان يسأل فى مسائل كثيرة ولا يستحى أن يقول :لا أدرى.

وكذلك كان الراسخون فى العلم:

[فما سكت من سكت عن كثرة الخصام والجدال مِنْ سلف الأمة جهلا ولا عجزا، ولكن سكتوا عن خشية الله عز وجل .

وما تكلم من تكلم، وتوسع من توسع بَعْدَهُم لاختصاصه بعلمٍ دونهم ولكن حبا للكلام، وقلة فى الورع.

قال الحسن البصرى لما سمع قوما يتجادلون فيُكثرون :

[هؤلاء قوم مَلوا العبادة، وخف عليهم القول، وقل ورعهم فتكلموا].

من أجل ذلك حذر العلماء فقالوا:

[إياكم والخصومات فى الدين، فإنها تشغَل القلب، وتورث النفاق].

---

(١) أهوج.

(٢) جامع بيان العلم باب ما يكره فيه المناظرة ٢/ ٩٤.

(٣) المرجع السابق ٢/ ٢٥.

(٤) مختصر المؤمل ٣٣.

وفرارا من عواقب المِراء الوخيمة كان مَهدى بن ميمون يقول لصاحبه:

[أنا أعلم بالمراء منك، ولكن لا أماريك].

وما خاصم ذو ورع قط.

لقد كانوا على مستوى الأمانة التى حَمَلوها .. فكانوا قرآنيين فى سلوكهم : إن هذا القرآن(نص يأتى من اللاَّزمان .. ليحكم الزمان. ويَرِد من اللامكان.. ليحكم المكان...

ويأتى من خارج المجتمع .. ليحكم أسس حركات المجتمع...

وإن تغيرتْ نظمُه وأوضاعه.

إن الدين بهذا يأتى من المطلق .. ليحكم النسبى.

ويَرد من الثابت، ليحكم المتحرك.

وإذن ... فعلى الذين يتصدرون مواقع الدفاع عنه، وتجلية حقائقه أن يكونوا قرآنيين :

أعنى عالميين .. يأخذون عنه رحابة الصدر.. واتساع القلب فى حركة مباركة، تتنوع بها المعرفة.. وتتطور مع الأيام ... لتواكب الحياة طولا وعرضا.

هذه الشروط .. تحقق أهداف المناظرة

حتى تنجح المناظرة وتتحقق الفائدة منها بالاقتناع فلابد أن تتوافر فيها شروطها كاملة؛ وذلك لأن الهدف هو الوصول إلى الحقيقة، ومن هنا لا بد لطالب المناظرة أن يحسن النظر لاختيار من يناظره، وإلا ذهبت الفائدة من المناظرة، ولذا يقول الغزالى فى بيان شروط المناظرة: «أن يناظر من يَتَوَقَّعُ الاستفادةَ منه، ممن هو مشتغل بالعلم».

ثم ينعى الغزالى على قوم لا خلاق لهم : لا يقصدون طلبا لمزيد من العلم، وإنما يقصدون من هم دونهم فى العلم، وغايتهم مجرد الغلب، يقول الغزالى : «والغالب أنهم يَحذَرون من مناظرة الفحول والأكابر، خوفا من ظهور الحق على ألسنتهم، فيرغبون فيمن دونهم ، طمعا فى ترويج الباطل عليهم».

ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به، وكانوا جادين حقا، لبحثوا عن العلماء الأجلاء ليعودوا بحصاد من المعرفة .

جاء «فى رجال الفكر والدعوة »للندوى.

ترك معاذ بن معاذ العنبري (١٩٦هـ) رواية المسعودى؛ لأنه رآه يطالع الكتاب: يعنى تغيَّر حفظه.

وقد قدم إليه رجل عشرة آلاف دينار، وطلب منه أن يسكت، فلا يتكلم فيه بجرح أو تعديل.

فأبى ورفض هذا المال العظيم وقال :لا أكتم الحق.

فأنت ترى معاذا يرى ضرورة احتفاظ الباحث بقوة ذاكرته، لتظل قادرة على إمداده بالمعلومات الدقيقة فى الوقت المناسب .. فإذا رجع إلى الكتاب المسطور يستلهمه المعلومات دل ذلك على ضعف فى ذاكرته، ومن ثم ينفُض معاذٌ يده من رواية المسعودى لَمَّا رآه يطالع المسطور ولم يعتمد كلية على ما فى الصدور.

ويبلغ ولاؤه للحق ذروته حين يرفض هذا المبلغ الضخم، والذى يُقدَّم إليه رشوة ثمنا لسكوته عن كشف الحق وتدعيم بنائه.

●●●●●

الولاء للحق

الحوار
بين التجديد والتقليد

ينبغى أن يكون المجادل مجددا . . لا مقلدا . . بمعنى أن تكون له نظرته الخاصة وتفكيره المستقل . . ليتمكن بذلك من إضافة الجديد . . فرارا من عقم التقليد :

يقول الغزالى مبينا أحد الشروط المهمة للمناظرة :

(أن يكون المناظر مجتهدا يفتى برأيه لا بمذهب الشافعى وأبى حنيفة وغيره حتى إذا ظهر له الحق من مذهب أبى حنيفة ترك ما يوافق رأى الشافعى وأفتي بما ظهر له)[1]. ،فالمطلوب معرفة الرجال بالحق. لا معرفة الحق بالرجال .

وفى رده على بعض معترضيه يقول له :

لعلك تقول: إن كلامك فى هذا الكتاب انقسم إلى ما يطابق مذهب الصوفية، وإلى ما يطابق مذهب الأشعرية بعض الأشعرية وبعض المتكلمين، و لايفْهُم الكلامَ إلا مذهب واحد، فما الحق من هذه المذاهب»؟

ثم قال :«اطرح هذه المذاهب فليس مع واحد منهم معجزةٌ يترجح بها جانبه، واطلب الحق بطريق النظر، لتكون أنت صاحب مذهب»

ولا تكن أعمى مقلدا بل خذ الحق أينما وجدته وفى أى ناحية كان.

اطلب الحق بالنظر لا بالتقليد، فالحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أينما وجدها».

والغزالى بهذا الكلام يترجم عن وجهة النظر الصحيحة للإسلام:

إنَّ تفاوت الأحكام فى غيبة النصوص ـ أو التفاوت فى وجوه فهمها إن وجدت ـ أمر ينبغى أن نفزَعَ منه، ومن حقنا أن نستمد منه حريةً عقلية مطلقة،

يقول الغزالى :خذ مثلا حالة القتل بالإكراه فى فقهنا الإسلامى:

.(١) الأحياء جـ١ ، ٧٣.

بعض العلماء يرى قتل المكرَه.

وبعض يرى قتل المكرِه.

وبعض يرى قتلهما معا.

وبعض يرى عدم قتلهما.

ما هذا الاختلاف ؟ ألا تراه استوعب الفروض العقلية كلها؟ إن العقل التشريعى التمس فيه كل وجهة، ثم رجَّحَ كُلٌّ الناحية التى آثرها

هذا التفكير الطلق، والمدى الذى يعمل فيه هو نفسه المجال الذى سيعمل فيه القانون الوضعى، فى أرجاء الأرض التى لم يصلها إسلام.

إن النص لا مكان معه لحرية الأخذ والرد. هذا ما نُؤكده مرة ومرة، أما مضمار الاستصلاح ونُشُدان النفع المطلق فى الميادين السياسية والاقتصادية وأنواع المعاملات الأخرى فإن العقل الإنسانى قد أسهم ولا يزال يُسهم فيه بحظ وافر. فعلينا نحن المسلمين أن نحصد مع الحاصدين أينع ما أثمره الاجتهاد الحر فى هذه الحقول كلها [١] ».

يقول الإمام الغزالى رضى الله عنه عمن يشجعون على المناظرة تأسيسا بالصحابة. قال قوم:

المناظرة تعاون على طلب الحق.

وتواردُ الخواطر مفيد ومؤثر.

وتَحَفَّظَ الغزالى فاشترط على المجادل شروطاً:

ألا يُهمِلَ فرض عين ويشتغل بالمناظرة - وهى فرض كفاية «لأنها تعاون فى طلب الحق». وإلا كان كمن يترك الصلاة ويشْغَل نفسه بنسج الثياب ليسترَ عوراتِ المصلين؛ إنْ رأى ما هو أهم من المناظرة وفعل غيره كان كمن ألقى درسا فى تعلم الحجامة على قوم عطاش.

(١) من مقال للشيخ محمد الغزالى .

ومن حسن المناظرة أن يكون المناظر أديبا ذواقة للكلام، متجاوبا مع العواطف، فإن الجمود مما ينفر الناس... والشافعى رضى الله عنه بطل هذا الميدان وهو مثالٌ على ذلك لما جاء مصر.

جاء فى مقال الأهرام:

«واطمأنت الحياة بالشافعى فى مصر وجاء رمضان فصلى التراويح بالسيدة نفيسة ولا حظ أن عددا من النساء يحضرن دروس الفقه منهن بعض زوجات تلاميذه وأخواتِهم وبناتِهم فى حلقة الفقه بالجامع، جاءه رجل شاب كان قد طلَّق امرأته ثم ندم وراجعها فى رمضان وقبلها فى النهار وهما صائمان، واتجه الرجل إلى الإمام الشافعى قائلا:

سلوا الفتى المكى هل فى تزاورٍ ... وضمة مشتاقِ الفؤاد جُناح؟

فأدناه الشافعى منه وقال مبتسما:

أقول معاذ الله أن يُذهبَ التقى ... تلاصق أكباد بهن جـــراح

فأحاط بالرجل عدد من المتعصبين وسألوه ليجعلوا من القصة مأخذا وسبيلا على الشافعى فزعق فيهم الشاب:

يا ناس أسأله عن امرأتى وحكى لهم حكاية إرجاعها وتقبيلها فى نهار رمضان.

فالإمام الشافعى يرى أن قبلته لم تُذْهب تقاه وصيامه، وهذا هو رأى إمامهم مالك نقلا عن عمر بن الخطاب عن امرأته عن أم سلمة أم المؤمنين:

وفى هذه البيئة الفكرية المتحررة التى عرفها الإمام الشافعى فى مصر انبسطت نفسه، وانطلقت افكاره، وأخذ يذيع شعره وكثُيرٌ منه مشهور مثل قوله :

وإنى لمشتاق إلـــى أرض غـــزة ... وإن خـــاننى بَعْدَ التفـرق كتمانـى

سقى اللّه أرضا لو ظفرت بتربها ... كحلت به من شدة الشوق اجفانى

وقوله:

حسبى بعلمىَ إنْ نَفَعْ ما الذل إلا فى الطمع

ما طــار طـير وارتفع إلا كـما طـار وقــع

وقوله :

هــمتــى هـمة الملوك ونفسى نـفس حر ترى المذلة كفرا

ولكن الإمام الشافعى على الرغم من السماحة التى بهرته فى مصر كان يعانى من ضيق أفق المتعصبين وعدوانهم على الناس، وكان هذا النفر ينسب إلى المذهب المالكى ويسيئون بسلوكهم إلى سمة أستاذه العزيز عليه، فنصب نفسه لدعاواهم].

الشعر فى قلب المعركة:

كان هناك إلى جانب السنان مناظرات باللسان بين الشعراء، ومنها ما كان بين أبى سفيان ـ قبل إسلامه ـ وبين حسان بن ثابت، ويلاحظ الباحثون [1] أن هدف ذلك الجدال كان: تحقير المهجو، ولكن بلا إسفاف.

وقد هجا أبو سفيان المسلمين والرسول هجاء لاذعا.

وتصدى له الشاعر المؤمن، فأسكت نيران العدو بالحق الصادع.

قال حسان رضى الله عنه:

ألا أبلغ أبا سفيان عنى مغلغلة فقد برح الخفاء

بأن سيوفنا تركتكَ عبدا وعبدُ الدار سادتها الإماء

هجوتَ محمدا فأجبتُ عنه وعند الله فى ذاك الجزاء

أتهجوه ولَست له بكفء فشركما لخيركما فداء

هجوتَ مباركا برا حنيفا أمينَ اللّه شيمته الوفاء

فمن يهجو رسول اللّه منكم ويمدحه وينصره سواء

فإن أبى ووالده وعِرضى لعرض محمد منكم وفاء

لسانى صارم لا عيبَ فيه ويجرى . . . ما يكدره الدلاء

(١) د: عبد الصبور مرزوق.

حسن الاستشهاد بالقرآن :

وإلى جانب ما سبق لابد من توافر القدرة على فهم آيات القرآن الكريم والسنة المطهرة. فضلا عن حسن الاستشهاد بها فى مواطنها، فإن ذلك مما يعين على ظهور الحق، وخاصة فيما يتعلق بجدال غير المسلمين: ويحلو لى أن أنقل هنا قصة طريفة للفلكى الشهير السير جيمس الأستاذ بجامعة كمبردج ، يرويها الدكتور عناية الله، يقول :

كان ذلك يوم أحد من أيام سنة ١٩٠٩م وكانت السماء تمطر بغزارة، وخرجت من بيتى لقضاء حاجة ما، فإذا بى أرى الفلكى المشهور السير جيمس ـ الأستاذ بجامعة كمبردج ـ ذاهبا إلى الكنيسة ، والإنجيل والشمسية تحت إبطيه، فدنوت منه، وسلمت عليه، فلم يرد على، فسلمت عليه فلم يرد . فسلمت عليه مرة أخرى فسألنى :

ماذا تريد منى؟

فقلت له أمرين يا سيدى؛

الأول : هو إن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة المطر ؛ فابتسم «السير جيمس» وفتحها على الفور ، فقلت له: وأما الأمر الآخر فهو:

ما الذى يدفع رجلا ذائع الصيت فى العلم ـ مثلك ـ أن يتوجه إلى الكنيسة؟

أمام السؤال توقف السير جيمس لحظة ثم قال :

عليك اليوم أن تأخذ شاى المساء عندى، وعندما وصلت إلى داره فى المساء، خَرَجَتْ ليدى جيمس فى تمام الساعة الرابعة بالضبط، وأخبرتنى أن السير جيمس ينتظرنى، وعندما دخلت عليه فى غرفته، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاى، وكان البروفيسور منهمكا فى أفكاره، وعندما شعر بوجودى سألنى :

ماذا كان سؤلك؟

ودون أن ينتظر ردى، بدأ يلقى محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية ونظامها المدهش وأبعادها وفواصلها اللامتناهية وطرقها ومداراتها وجاذبيتها، وطوفان أنوارها المذهلة حتى أننى شعرت بنفسى تهتز بهيبة الله وجلاله، وأما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائما والدموع تنهمر من عينيه، ويداه ترتعدان من خشية الله وتوقف فجأة، ثم بدأ يقول :

يا عناية اللّه ؛ عندما ألقى نظرة على روائع خلق اللّه يبدأ وجودى يرتعش من الجلال الإلهى، وعندما أركع أمام اللّه وأقول له :«إنك لعظيم» أجد أن كل جزء من كيانى يؤيدنى فى هذا الدعاء. وأشعر بسكينة وسعادة عظيمتين ، وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألفَ مرة، أَفَهِمتَ يا عناية اللّه لماذا أذهب إلى الكنيسة.

ويضيف العلامة عناية قائلا :لقد أحدثتْ هذه المحاضرة طوفانا فى عقلى ، وقلت له، سيدى لقد تأثرت جدا بالتفاصيل العلمية التى رويتموها لى، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آى كتابى المقدس، فلو سمحتم لى، لَقَرأتُها عليكم فهز رأسه قائلا : بكل سرور فقرأت عليه الآية التالية :

﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [1].

فصرخ السير جيمس قائلا: ماذا قلت ؟ **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾** مدهش ؛ وغريب وعجيب جدا ؛ إن الأمر الذى كشفت عنه دراسةٌ ومشاهدةٌ استمرت خمسين سنة، من أنبأ محمداً به؟ هل هذه الآية موجودة فى القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك، فأكْتُبْ شهادة منى أن القرآن كتاب موحًى من اللّه .

ويستطرد السير جيمس قائلا: لقد كان محمدٌ أميا، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه، ولكن «اللّه» هو الذى أخبره بهذا السر ... مدهش... ؛ وغريب وعجيب هذاً [2].

وذات يوم :

تحدث أحد المحاضرين فى جامعة أوروبية عن دم الحيض وأضْراره وضرورة البعد عن المباشرة الجنسية أيامَ الحيض.

---

(١) فاطر ٢٧، ٢٨ .

(٢) الإسلام يتحدى ١٥٢، ١٥٣.

وقام طالبٌ عربى مسلم وقرأ على المحاضر قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [1] .

فلفت نظره فى رفق إلى أصل ما يقرره من حقائق سبق إليها القرآن الكريم .

يقول صاحب الظلال :

[ونحن أحوج ما نكون إلى الإحساس بالقرآن على هذا النحو؛ وإلى رؤيته كائنا حيا متحركا دافعا، فقد بَعُد العهد بيننا وبين الحركة الإسلامية والحياة الإسلامية والواقع الإسلامى؛ وانفصل القرآن فى حسنا عن واقعه التاريخى الحى : ولم يعد يمثل فى حِسِّنا تلك الحياة التى وقعت يوما ما على الأرض، فى تاريخ الجماعة المسلمة، ولم نعد نذكر أنه كان فى أثناء تلك المعركة المستمرة هو الأمر اليومى، للمسلم المجند. وهو التوجيه الذى يتلقاه للعمل والتنفيذ. . مات القرآن فى حسنا. . أو نام . . ولم تعد له تلك الصورة الحقيقية التى كانت له عند نزوله فى حس المسلمين . ودرَجْنَا على أن نتلقاه إما ترتيلا منغما نطرَب له، أو نتأثر التأثر الوجدانى الغامض السارب؛ وإما أن نقرأه أورادا أقصى ما تصنع فى حس المؤمنين الصادقين منا أن تنشئ فى القلب حالة من الوجد أو الراحة أو الطمأنينة المبهمة المجملة . والقرآن ينشئ هذا كلَّه . ولكن المطلوب ـ إلى جانب هذا كله ـ أن ينشئ فى المسلم وعيا وحياء نَعَمْ المطلوب أن ينشئ حالة وعى يتحرك معها القرآن حركة الحياة التى جاء لينشئها . المطلوب أن يراه المسلم فى ميدان المعركة التى خاضها . والتى لا يزال مستعدا لأن يخوضها فى حياة الأمة المسلمة. المطلوب أن يتوجه إليه المسلم ليسمع منه ما ينبغى أن يعمل ـ كما كان المسلم الأول يفعل ـ وليدركَ حقيقة التوجيهات القرآنية فيما يحيط به اليوم من أحداث ومشكلات وملابسات شتى فى الحياة،ويرى تاريخ الجماعة المسلمة ممثلا فى هذا القرآن، متحركا فى كلماته وتوجيهاته، فيحس حينئذ أن هذا التاريخ ليس غريبا عنه. فهو تاريخه وواقعه اليوم هو امتداد لهذا التاريخ وما يصادفه اليوم من أحداث هو ثمرة لِماَ صادف أسلافه مما كان القرآن يوجههم إلى التصرف فيه تصرفا معينا،

---

(١) البقرة ٢٢٢ .

ومن ثم يحس أن هذا القرآن قرآنه هو كذلك . قرآنه الذى يستشيره فيما يعرض له من أحداث وملابسات ؛ وأنه هو دستور تصوره وتفكيره وحياته وتحركاته الآن بلا انقطاع .

احترام التخصص

عن ابن سيرين قال : قال رجل لعمر بن الخطاب : أجْرَيتُ أنا وصحابٌ لى فرسين نستبق إلى ثُغرة. فأصبنا ظبيا ونحن محرِمان. فما ترى ؟

فقال عمر لرجل إلى جنبه تعال لتحكم.

قال: فحكما عليه بعنز.

فولى الرجل فقال : هذا أمير المؤمنين، لا يستطيع أن يحكم فى ظبى حتى دعا رجلا؛

فدعاه عمر رضى الله عنه فقال : هل تقرأ «المائدة».

قال : لا . .

قال : فهل تعرف هذا الرجل ؟

قال : لا . .

قال: لو أخبرتنى أنك تقرؤها لأوجعتك ضربا. إن الله تعالى قال فى كتابه: ﴿ **يحكم به ذوا عدل منكم** ﴾ وهذا عبد الرحمن بن عوف [(1)].

لقد لقَّن الفتى درسا لا ينسى فى ضرورة التثبت قبل الحكم، وضرورة التزود لمعركة النقد برصيدها من المعرفة والخبرة. فما دام لا يقرأ القرآن، وما دام لا يعرف من هو الصحابى الجليل، فإنَّ عليه أن يأخذ مكانه الصحيح بين المسترشدين الطالبين لعلم فى أدب وقبول .

ولكنه التسرع فى الحكم، وإحساس الفتى أحيانا بأنه قد حفظ من العلم بابا، أو حقق فى دراسته تفوقا، فسول له ذلك التطاول بلا علم ولا هدي ولا كتاب منير .

---

(١) تيسير الوصول ٣٨٩ ط السلفية.

وإنك لتلاحظ أن عمر رضى الله عنه أعفى الفتى من الضرب لأنه لم يحفظ القرآن أساسا، ثم بين له : «لو أخبرتنى أنك تقرؤها لأوجتعك ضربا» لأن دخوله فى حمى القرآن حافظا قارئا يفرض عليه أن يكون عند مستوى القرآن الكريم فهما وتعمقا يمنحه قدرة على الحكم الصحيح.

وإلا فالوقوف عند درجة الحفظ تقصير فى حق القرآن غير مقبول.

ولاننسى صدق الفتى الذى اعترف بأنه لم يقرأ الآية، فمهد باعترافه لعودة إلى أول الطريق ليبدأ رحلته مع العلم على أساس سليم.

ونذكر هنا موقفا لأم الشافعى ، رضى اللّه عنهما:

شهدت عند قاضى مكة هى وأخرى مع رجل، فأراد القاضى أن يفرق بين المرأتين ليسمع شهادة كل واحدة منهما منفردة. فقالت له : ليس لك ذلك؛ لأن اللّه سبحانه وتعالى تقول: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ﴾ .

فنزل القاضى على رأيها.

التخصص:

وكأن عمر يشير بهذا إلى احترام التخصص، وما دام هذا الفتى لم يستكمل عدة العلم فليسأل أهل الذكر و لا يتسرع فى الحكم.

رُوِىَ عن موسى بن على أن عمر بن الخطاب خطب الناس فقال :

من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبى بن كعب.

ومن أحب أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت .

ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني، فإن اللّه تعالى : جعلني له خازنا وقاسماً» [١].

●●●●●

(١) ذكره أبو عبيدة فى الأموال وفى كنز العمال على هامش مسند الإمام أحمد ٣١٧.

واقع الأمة

لكن عنصر التخصص لم يأخذ وضعه علميا.

«لقد آمنا بالتخصص اعتقادا ورفضناه تطبيقا، فاختلطت مناهج المتخصصين، فتخرجوا دون حصانة تُغنى، فلاثقة من أنفسهم بأنفسهم، فلا عجب أن يستقبلوا حياة العمل فى قلق وجبن ويحذرون الهزيمة ويتوقعون الفشل، عما يزيد الداهية أذى، حين يجدون الوظيفة مما لم يتخصصوا له، وما ليس لهم خبرة فيه».

خفَّتْ لهذا ولغيره قيمة التخصص على الناس، حين فقدت مِلاكَها فى المَنَهْج، وثمرتها فى العمل، فاجترأ من شاء على ما شاء من فنون العلم والمعرفة، وتلقفت الصحف وغيرها كلَّ نتاج، لتشغلَ به فراغا لو هى تحرت الأصيل والمحقق لظل فراغا، ولو ظل فراغا لاحتجبت، والحال شبيه فى دور النشر، التى تطلب الربح فيما فيه خسران.

إن مقابل إننا نطلب إعادة النظر فى المناهج، على نحو جيد يقوى فيه التخصص، فتتبعه قوة الثقة بنفس المتخرج، التى هى أساس النتاج وثقة الآخرين ـ إن مقابل ذلك أمل آخر تناشده ـ وكم ناشدنا ـ أصحاب الكلمة ـ من حملة الأقلام، ذلك الأمل لا يُعجزهم ولا يعوزهم إذا هم أكبروه أداةً للإصلاح وعلاجا من مرض العصر، أو عبث العصر فى العلوم والفنون.

ذلك الأمل هو بَلْسمٌ من الورع يعتادونه قبل كل وجبة من وجبات الكتابة، ينتج التحرى، والبحث، والتحقق بالفكرة، والوثوق من الهدف، والثبات على التخصص الذى نجحوا فيه، أو يؤمَّل أن ينجحوا فيه؛ لأن ذلك أجدى عليهم، وأنفع لأمتهم، وكم يتردد فى تاريخ العلم اسم لعالم أو حكيم لم يسهم فى كل علم، ولم يشارك فى كل مادة ، بل قَصَر عمره الطويل على علم واحد، بل فُرَيْعُ من علم، بل على نظرية أو قانون وصل إليه بالجد والسهر والعرق، فكان أجدى من كبار الموسَّعات الخالية من الجِدة والقائمة على الثرثرة، والبعيدة عن العمق والإصابة، يخلفها عالم أسهم بها فى كل مادة، ونثَرَ كنانة كل علم، على حساب ما يدعى.

إن هذا الورع الحِذر البنَّاء، الحريص على التخصص، قديم مجيد، نبيل الغاية. سنَّه الإسلام والتزمه الهداة الراشدون، أولئك الذين لم يفخروا بالمعرفة. ولم تغرَّهم سَيرورة الذكر، بل كان يُطلب إلى أحدهم الفتوى فيحيلها على سواه فراراً من التبعة، وتُقاة من الشبهة .

وليس التحرى عيبا ولا نقصا، وليس الورع جموداً ولا رجعة وليس التحلى بالسلوك الأفضل لتطبيق القرآن والسنة ونهج السلف آمرا ضد الحضارة والتمدن، بل إن العكس قد انتج العكس، من الضياع الذى نتيه فيه [١].

فلنعد إلى القرآن والذى يؤكد هذا المعنى فى قوله تعالى :

﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ [٢].

●●●●●

---

(١) د. عز الدين على السيد .

(٢) النحل: ٤٣.

أخلاقيات الجدل

الجدل ظاهرة إنسانية . . راجعة فى نشأتها إلى طبيعة الإنسان المفكرة الناطقة كما يقول علماؤنا، إنه يؤمن بفكرة ما، فيدافع عنها، ثم يوضحها، وقد يخالفه رأى، فينبرى يجادل عن نفسه وفكرته فى حوارٍ يصير متعة ذهنية، تقدح زناد الفكر، فتضيف إلى عقولنا معلومات جديدة، إلى جانب هذه المتعة . . .

ولقد كان الحوار هكذا فى حياة علمائنا الأولين: متعة قلبية، وثروة فكرية.

وصدق ابن الرومى حين عبر عن هذه المتعة بقولة:

ولقد سئمت مآربى　　　فكأن أطيبها خبيث

إلا الحديثَ فإنه　　　مثل اسمه أبدا حديث

ولكى يظل الحديث. . عذبا سلسالا، ويبقى الجَدَلَ جَدْولا جاريا بالخير والنماء، فلابد من الأخلاق النبيلة ضمانا يظل به العطاء موصولا.

الحقٍ أولا:

تخاصم أهل الأديان : فقال أهل التوراة :كتابنا خير الكتب، ونبينا خير الأنبياء، وقال أهل الإنجيل مثل ذلك، وقال أهل الإسلام لا دين إلا الإسلام، وكتابنا نسخ كل كتاب، ونبينا خاتم النبيين، وأمرتم وأمرنا أن نؤمن بكتابكم، ونعمل بكتابنا، فقضى الله بينهم : فقال :

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ .[النساء ١٢٣ـ ١٢٥] .

يقول ابن كيثر تفسيرا للآيات الكريمة:

«الدين ليس بالتحلى ولا بالتمنى، وليس كل من ادعى شيئا حصل له بمجرد دعواه.

«ولا كل من قال: إنه المحق سُمِعَ قوله بمجرد ذلك، حتى يكون له من اللّه برهان.

«. . . ليس لكم ولا لهم النجاةُ بمجرد التمنى، بل العبرة بطاعة اللّه تعالى واتباع ماَ شَرَعَه على ألسنة رسله الكرام».

وهذا هو المعنى الذي أفزع أبا بكر رضى اللّه عنه حين قال بعد نزول الاية الكريمة :

«ليس بأمانيكم....»

قال : كيف الصلاح بعد هذه الآية، فكل سوءٍ عِملناه جوزينا به؟

فقال النبىﷺ :

«غفر اللّه لك يا أبا بكر»:

ألست تمرض؟

ألست تنْصَبْ؟

ألست تحزن ؟

ألست تصيبك اللأواء [1]؟

قال : بلى

قال: فهو ما تجزون به [2].

إن القضية التى شغلته رضى اللّه عنه هى: المصير إلى أين؟ وليست هي مجرد الانتصار فى معركة جدلية.

إن مجرد الادعاء لا يحقق الغرض المطلوب على فرض صحة الدعوى والحماس للدعوى ظاهرة صحية. لكنه لا يكفى وحده للوصول بها إلى عقول الناس وقلوبهم، وفى هذه القضية التى تعرضها الآيات الكريمة نَستَبين معنى جديرا بالتأمل:

---

(١) اللأواء : المشقة والشدة .

(٢) مسند الإمام أحمد .

فموقف المسلمين هنا يمثل وجهة نظر القرآن بطبيعة الحال، ومع هذا فالآيات الكريمة تشدد اللوم على المسلمين أولا : فكون المسلمين أصحاب الحق فى موضوع النقاش لا يعطيهم الحق فى إثارة جدلٍ عقيم يثير غبارا فى العيون فلا ترى الحق ويُشعل ضغائن فى القلوب فلا تُذعنَ له. إن الدين ليس بالتمنى، وليس هو بالآمال العذاب يطلقها الكُسالى العاجزون لتكون كل بضاعتهم فى نصرة دينهم وليس كل من ادعى شيئا حصل عليه بمجرد الدعوى، ولاكل من قال الحق سمع قوله بمجرد ذلك حتى يكون له من اللّه برهان .

و لا ينال المؤمن شرف هذا البرهان حتى يكون عمله شاهدَ صدقِه ودليلَ إخلاصه.

والحقيقة التي ينبغى أن تملأ قلوبنا :

ومن يعمل سوءا يجز به.

وكان هذا سنة من اللّه تبارك وتعالى لا تتخلف ولا تحابى، واستشعار هذه السنة الماضية فى الخلق يُعيننا على مزيد من العمل لديننا فى صمت، بعيداً عن الثرثرة التى لا تخلف إلا الأحقاد .

إن الجدل إذا طال بين فريقين، فمعنى ذلك أن المتناظرين على خطأ. ومعناه أيضا: أننا نعرف عن المسائل التافهة أكثر مما نعرف عن المهمة التى يجب أن تكون شُغلنا الشاغل.

وقد أبيح لنا الجدل حول مبادئ الدين فى أضيق الحدود وبالقدر الذى يساعد على إحقاق الحق فى موضوع النزاع. فإذا انحرفت بالجدل أهواء قوم لا يريدون إلا كسب الوقت وإضاعة الجهد، فنحن مأمورون بقفل باب النقاش العقيم، احتراما لعقولنا أن تُشغل بما ليس من اختصاصها ، واحتراما أيضا للحق الذى ينتظر منا العمل الجاد بقدر ما يتقاضانا البُعدَ عن المراء وما يثيره من غبار يكون سحبا تحجب شمس الحقيقة.

●●●●●

العدو الحقيقى

والمهم أن نبحث عن سر هذه الزوبعة التى تثور بلاطائل، وسوف يتكشف لنا العدو الحقيقى . والذى ينبغى أن ندخر جهودنا لمحاربته.

إن الآيات السابقة على هذه الآيات الكريمة فى سورة النساء تقول: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [النساء ١١٩، ١٢٠].

ومعنى ذلك : أن الشيطان الرجيم يقف وراء هذه الحرب الكلامية لصرف طاقاتنا فيما يفيد، وحتى لا يصبحَ العملُ الصالح هو الرد المناسب على كيده ومكره. وإذا كان للشيطان الرجيم جنود يتكلمون لغتنا ويعيشون بيننا، فإننا مطالبون بمزيد من الحذر إزاء خطة من نفس النوع، وتَسير فى نفس الاتجاه، بغية إثارة جدلٍ عقيم وإثارة فتن لا مُسَوِّغ لها.

إن الملحدين بدافع من عقدة الذنب لا يحبون الفضيلة، وبالتالى يكرهون المبشرين بها.

ومن هنا نشأت عداوتهم للأديان التى تدعو إلى الفضائل الإنسانية الرفيعة .

إن المستنقع الآسن الذى لا يعيشون إلا فيه يحملهم على العمل المستمز ليكون الأطهار معهم فى الطين الذى يتمرغون فيه، والنجس الذى يشربون منه.

«وعلى االصعيد الوطنى نحس بدبيب فتنة شيوعية يراد لها صرف القافلة العاملة الآملة، حتى لا تواصل سعيها المبرور لتدعيم مبادئ الدين» . . والأمل كبير فى تضافر الجهود، حتى نفوت الفرصة على أعداء كل دين، وكل وطن، وكل إصلاح أى على عدونا الحقيقى، عدونا الأول، والأخير .

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [سورة فاطر: آية ٦].

إن الذكاء المفرط، والرغبة فى الغلبة وتأكيد الذات، كل أولئك يحمل أحيانا

على الجدل الفارغ، وغاية ما يحققه كَسبُ معركة كلامية، ومع أن الذكاء منطقة سطحية من العقل البشرى، فإن وراء ذلك وأفضل منه:

منطقة البصيرة، والاستشعار الباطنى المشدودُ بالفطرة إلى الحق.

ألا وإن كسب معركة لا يشكل انتصاراً، وإن شئْتَ قلت: إنه انتصار نفس لا يُهمها انتصار قضايا الحق، بقدر ما يهمها بروز اسمها فى ساحات المساومات والشهرة.

والأصل فى ذلك قوله عز وجل:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [سورة الإسراء آية : ٣٦]

وتطالعنا من الآية الكريمة أمور منها:

١ـ لا تمش وراء موضوع لا تملك أسباب تحقيقه.

٢ـ أما الموضوع المتاح لك فانْظُره.

٣ـ وبكل منافذ المعرفة لديك: السمع ، والبصر، والفؤاد.

٤ـ واعلم أنك مسئول عن كل ما يصل إليه بحثك؛ لأنك مسئول قبل ذلك عن آلة الفهم وحسنِ استعمالها فيما خُلِقتْ له.

٥ـفكن على حذر بل على غاية الحذر، فلا تقبل إلا ما قام عليه الدليل .

ذلك بأن الغفلة تعنى غياب شىء من الحق .

وغياب القليل منه كدخول قليل من الباطل : كلاهما يفسد القضية كلّها .

٦ـ فإذا تبين لك الحق فالتزم به تَدَينا .

●●●●●

حارس الحقيقة

كان حديثا فيما سبق عن آداب الجدل العلمية كاحترام التخصص. . فماذا عن الآداب الأخلاقية ؟

ومن أخلاقيات الجدل التجرد للحق: (مصداقا لقوله ﷺ. . . «إنما الأعمال بالنيات. . .).

(قَدّم رجل إلى معاذ العنبرى عشرة آلاف دينار . وطلب منه أن يسكت عن فلان . فلا يتكلم فيه بجرح أو تعديل . فأبى وقال : لا أكتم الحق).

١ـ هناك مضللون ، ولهم حاشية سوء تستفيد من هذا الضلال بالرشوة .

٢ـ ويتكتلون لإخفاء الحق وترويج الباطل بأغلى ثمن

٣ـ ورغم ضخامة المبلغ فإن معاذا يرفضه مع أنه لم يطلب منه تغيير شهادته، وإنما مجرد السكوت.

٤ـ وإذن فلو كان المبلغ مليونا لما تغير الموقف ومعاذ غير قابل على الاطلاق لكتمان الحق.

٥ـ لا يجامل فى رده، وإنما يعلن أنه ثابت ثباتا من شأنه إلحاقُ الهزيمة بالمبطلين.

٦ـ أمة فيها ذلك الإباء وذلك التجرد تظل الحقيقة فيها مسيطرة بقدر ما يتوارى الباطل خَجَلا[1] .

ومن مظاهر الإخلاص ما قاله الغزالى كعلامة على طلب المناظِر الحق:

أن تكون المناظرة فى الخلوة أحبَّ إليه وأهمَّ من المَحَافل وبين أظهر الأكابر والسلاطين، فإن الخلوة أجمع للفهم، وأحرى بصفاء الذهن، والفكرِ ودركِ الحق.

وفى حضور الجمع ما يحرك دواعى الرياء، ويوجبُ الحرصَ على نصرة كل

(١) سبق التعليق على هذا المشهد الفريد وهنا. . مزيد!

واحد نفسه محقا كان أو مبطلا [١].

ثم يعقب كاشفاً عن بعض نماذج السوء فى هذا الباب.

«وأنت تعلم أن حرصهم على المحافل والمجامع ليس لله، وأن الواحد منهم يخلو بصاحبه مدة طويلة فلا يكلمه، وربما يقترح عليه فلا يجيب، وإذا ظهر قادم، أو انتظم مجمع لم يغادر فى قوى الاحتيال مَنْزعاً حتى يكون هو المتخصص بالكلام».

أما ابن العنبرى فقد كان تَرجمةً حية لقوله: **﴿كونوا قوامين لله شهداء بالقسط﴾**[٢].

إنه الثبات على الحق لذات الحق، وكان أيضا مفخرة لأمة الإسلام التي بقيت بفضله وأمثاله، وانتزعت التقدير من الأجانب: حتى قال باحث إنجليزى ـ كما جاء فى مقدمة كتاب الإصابة: «لم نعرف أمة فى التاريخ ولا توجد الآن على ظهر الأرض وفقتْ لاختراع فن أسماء الرجال الذى نستطيع بفضله أن نقف على ترجمة خمسمائة ألف «نصف مليون» من الرجال».

وكانوا لا يجاملون، ولا يداهنون، ولو كان المروى عنه ذا منصب أو كان قريبا.

فضيلة التواضع

إنه التواضع الذى يستصغر الإنسان به نفسه وجهده، بحيث لا يقف من خصمه الشريف موقف التحدى، ولكن موقف المسترشد المتعرض بنفسه لمساقط الغيث؛ وعلى جسر من هذا التواضع الذى يفتح الطريق أمام الرأى الآخر تنجلى معركة الرأى عن فوائد كثيرة.

وفى بيان هذا التواضع نقرأ ما قاله أبو الحسن الباهلى ـ من أئمة الكلام ـ: «كنت فى جنب الأشعرى كقطرة فى جنب البحر». وقول أبى بكر الباقلانى ـ وهو من لُقِّبَ بلسان الأمة ـ وقد قيل له: «كلامك أفضل من كلام أبى الحسن الأشعرى وأزين من كلامه أيضا».

---

(١) الأحياء ج١ ط الشعب ٧٣.

(٢) سورة المائدة: ٨.

قال : « إن أفضل أحوالى أن أفهم كلام أبى الحسن رحمه اللّه».

ولم يغتر الرجل بثقة أصحابه، لكنه فتح أبصارهم على الحق كما يحس به هو، لا كما تتحدث به عواطفهم المشبوبة.

إن عواطف الأتباع فى غمرة الإعجاب بالزعيم قد تتحول إلى فتنة تأكل الأخضر واليابس، ولكن الرجل أنقذهم . وأنقذ نفسه منهم.

وعلى ما كان للإمام الغزالى من باع طويلة فى هذا المضمار لكنه ينبه إلى أن كل جهد فهو إلى اللّه تعالى مانحٍ كل جهد، وذلك قوله :

« لا حول ولاقوة إلا باللّه العلى العظيم، وإنى لم أتحرك، ولكنه حركنى، ولم أعمل ولكنه استعملنى، فأسأله أن يصلحنى أولا ثم يصلحَ بى، ويهدينى ثم يهدى بى، وأن يرينى الحق حقا ويرزقنى اتباعه، ويرينى الباطل باطلاً ويرزقنى اجتنابه»[1].

وبطبيعة الحال لم يكن الغزالى ليرى الحق حقا، والباطل باطلاً، أو بتعبير آخر لم يكن أهلا لهذا الشرف العظيم إلا على جناح من هذا التواضع الجم الذى يمكّن الرأى الآخر من الإعلان عن نفسه ، حتى يستطيع العلم أن يقول كلمته الأخيرة فى القضية المطروحة:

إن المجال هنا مجال سباق من أجل الحقيقة وتثبيت أركانها فلا مجال للتكبر الذى هو سمة التنافس على شئون الدنيا، بالإضافة إلى أن جهد الباحث للوصول إلى الحق فى الموضوع إنما بتوفيق اللّه تعالى

وإذن . . . فالمقام للتواضع . .

يقول الرازى وهو من هو علما غزيراً وطول باع فى شتى المعارف مؤكدا ما يجب أن يكون عليه العالم من تواضع إزاء بحر العلوم الذى لايصل إلى ساحلة متبحر مهما خاض فيه وسبح:

---

(١) عن رجال الفكر والدعوة.

نهاية إقـــدام العـقول عقــال وأكثر سعى العالمين ضـــلال

ولـم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوي أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وكم قد رأينا من رجال ودولـــة فبادوا جميعا مسرعين وزالـــوا

وكم من جبال قد علت شرفاتها رجـالٍ فزالوا والجبال جـبال؛ ؛

يقول الزمحشرى :

[ألهم اللّه الهدهد فكافح ـ واجه ـ سليمان بهذا الكلام على ما أوتى من : فضل النبوة، والحكمة، والعلوم الجمة، والإحاطة بالمعلومات الكثيرة .

(أ) ابتلاءً له فى علمه.

(ب) وتنبيها له أن فى أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علما بما لم يُحط به لتتحاقر إليه نفسه، ويتصاغر إليه علمه، ويكون لطفا له فى ترك الإعجاب الذى هو فتنة العلماء، وأعظم بها فتنة [1].

روى ابن خلكان فى ترجمة محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن أبى ليلى أنه قال :

دخلتُ على عطاء فجاء يسألنى، فأنكر بعض من عنده فكلمه فى ذلك فقال: هو أعلم منى فاعترف عطاء لمن هو دونه فى السن والقدر بأنه أعلم منه، والمهم أن ذلك على الملأ وبلا حرج. مع أبى حنيفه

وهناك قاعدة تقول : قد يكون في المفضول ما ليس فى الفاضل .

ثم إن التواضع يتيح للمرء أن يرى عيوب نفسه فيُصلِحَها، بخلاف المتكبر الذى تخفى عليه عيوبه فلا يصلحها .

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ [العلق :آية ٦ ـ ٧]

---

(١) تفسير الكشاف ـ سورة النمل.

قال ابن المقفع:

«من أشد عيوب الإنسان خفاءُ عيوبه، فإن من خفي عليه عيبه خفيت عليه محاسن غيره: فلن يُقلع عن عيبه الذى يعرفه ولن ينال محاسن غيره».

قيل للمهلَّب بن أبى صفرة:

ـ كيف وصلت؟

قال : بالعلم

قيل له : لكن غيرك أعلم منك ولم يصل.

قال : لأنى لم أحمل العلم فقط ولكن عملت به، أما هو فمثلُ الحمار يحمل أسفاراً.

إنصاف الخصم

فى كيان الإنسان داعية الحسد، مع حب العلو فى الأرض بغير الحق، إلى جانب ميله إلى تأكيد ذاته دائماً، ولو على أشلاء الآخرين، أما الذى يَشْهد لغيره بالفضل منصفا له، فقد ارتفع فوق هذه الهواتف النفسية ولاء منه للحق وحده.

فإذا أضفنا أن لحظة المنافسة تحجب الرؤية تَبيَن لنا مقدار صفاء نفسٍ من هذا النوع الشاهد بالحق فى وقت تضل فيه النفس وتنسى، على أنها تَغليبٌ لمصلحة الأمة على مصلحته الشخصية الممثلة فى كسب معركة عن طريق المبارزات الكلامية.

ومن هنا يكون تقدير الناس لهؤلاء المنصفين، وهى مرتبة أعلى فوق الاعتراف بالخطأ، من أجل ذلك نرى الناس يكبرون المعترف بالخطأ المنصف أشد من إكبارهم لمن كسب الجولة؛ لأن المقِرَّ المادح خصمه منتصر على نوازع العناد والأنانية فى نفسه، وهو انتصار أعمق من مجرد الفوز فى معركة فكرية.

إن المنصف منتصر فى معركة الأخلاق، والغالب منتصر فى معركة الفكر، وموقف الأول أولى بالتقدير على قدر ما تحمله وعاناه.

نماذج لانصاف الخصم

أ - قال عمر رضى الله عنه يوما: «لا تَزِيدوا فى مهور النساء على أربعين أوقية، فمن زاد أُلقيتْ زيادته فى بيت المال».

فقالت امرأة : ما ذاك لك .

قال : ولم؟

قالت: لأن الله عز وجل يقول :

﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ .[النساء آية ٢٠]

فقال عمر :

امرأة أصابت ، ورجل أخطأ.

لقد رجع عمر رضى الله عنه إلى الحق، ورجع فور مواجهته بالآية الكريمة، ولو كانت على لسان المرأة، ومن فوق المنبر العالى، وعلى الملأ وهو الرجل الأول فى الدولة . . . كل أولئك يجعله من الإنصاف فى قمته .

ب - تعرض الجاحظ لهجوم ضار من قبل العالم الجليل : ابن قتيبة والذى اتهم الجاحظ بأنه ألّف كتابا يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين . فإذا رد عليهم تراخى فى الحجة كأنه إنما أراد تنبيههم على مالا يعرفون .. تشكيك الضعفة من المسلمين [1] .

ولكن الجاحظ يدافع عن وجهة نظره قائلا:

(وليعلم من قرأ هذا الكتاب . وتدبَّر هذا الجواب أننا لم نغتنم عجزهم ولم ننتهز غِرَّتهم) .

فهو كما أشار الباحثون : يضيف إلى مقدرته الجدلية أصالته الخُلقية التى نأت به عن الانتهازية والتلاعب بالألفاظ:

ولكنها الأمانة العلمية والخلقية التى حملته على أن يبسط وجهة النظر الأخرى

(١) تأويل مختلف الحديث / ٧٢ عن كتاب خطوات التفسير البيانى عن د/ محمد رجب البيومى .

بسطا قد يحمله على ذكر خواطر لم ترد أساسا على ذهن المخالف فى الرأى.

فإذا فندها بعد ذلك لم يبق لها أثرا ... وتحسم القضية حسما يسْكتُ الخصم.. وإلى الأبد.

وهذا موقف العلماء من الغزالى الذى اتهموه كما أشرنا من قبل سابقة بأنه أجهد نفسه وأراح الفلاسفة حين بَسَّطَ كتبهم إلى الحد الذى حببها إلى عامة الناس.. فجاء يكحلها .. فأعماها.

ولكن الرجل كان سعيدا بذلك .. لما يترتب عليه من توضيح فكرة الخصْم تماما.. فإذا قَدِم إليها بعد ذلك ... جعلها هباء منثورا .. متأثرا كالجاحظ بمنهج القرآن فى هذا الباب وفى قوله تعالى: ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا** ﴾[1].

وقد بلغ الإمام الشافعى قمة الإنصاف عندما قال :

«ما ناظرت أحدا على الغلبة، ووددت إذا ناظرت أحداً أن يظهر الحقُّ على يديه» كما سبق.

إن ولاءه للحق وحده. وهو وإن كان حريصا على إظهار الحق، ولكنه لا يحرص أن يكون الظهور على يديه بالذات؛ لأن ذلك نوع من الأنانية يأباه طبعُ كريم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، بل أكثر مما يحب لها .

وإنه يكسب من المجادلة على هذا النحو أمرين :

١ـ يكسب الحق الذى ظهر ..

٢ـ يكسب زميله الذى انتصر .

* * *

أما هؤلاء الذين لا يريدون الحق، أو يريدونه على ألسنتهم بالذات، فإنهم يفسدون طعم الجدل حين يُدخِلون حظوظ نفوسهم الباحثة عن الشهرة ولو على حساب الحق .

---

(١) الفرقان: ٢٣.

إن المنصف لا ينازل خصمه المعاند بسلاحه، ولكنه يظل جديرا بالاحترام ما دام مستمسكا بآداب الإسلام الجامع على الحق، المانع من الشقاق، هذا الشقاق الذى قد يَسرى بالعدوي فيَضيعُ الحق بأيدى الباحثين عنه.

إن محاربة المبطلين المعاندين لا تكون إلا بمزيد من الإشفاق عليهم والترفق بهم.

وإن من مظاهر الفَضْل أن ينسب المجادل إلى خصمه ما يعرفه عنه من فضل: أُنشْدَ فى مجلس الإمام على رضى الله عنه قول الشاعر:

فتى كان يُدنيه الغنى من صديقه

إذا هو مـــا استغنى، ويُبعده الفقر

كـــأن الثريـــا علِّقت بجبينه

وفى خده الشِّعرى، وفى الآخَرِ البدر

فلما سمع ابن أبى طالب ذلك قال: هذا طلحة بن عبيد الله.

والجدير بالنظر أن عليا شهد هذه الشهادة فى وقت تحول الخلاف بينهما إلى المواجهة العسكرية فى «الجمل» وصفين. ولم يمنعه الخلاف الناشب من قول الحق، وكانت له مندوحة لو أنه سمع وسكت على حد قول الشاعر:

فكن كأنك لم تسمع ولم يقل.

ولكنه لم يكتم الشهادة.

والإمام على رضى الله عنه فارس هذه الحلبة... فهو الذى عاتب القاضى بل غاضبه.. لما كناه بأبى الحسن ولم يكن خصمه؛ وقضية إنصافه فى مسألة درعه المسروق انتهت.... بإسلام اليهودى.

●●●●●

منابع الظلم

وفى محاولة للتخلص من الظلم هنا، وتسليح المجادل بأدب الإنصاف نتأمل المنابع التى تهب منها رياح الظلم لَنسُدَّها:

إن المناظر إزاء خصمه فى موقف من ثلاثة:

(أ) إما أن يكون المناظر أكبر منه سنا، وحينئذ فمن السهل إنصافُه من حيث كان فضل الأكبر مما تسامُح فيه النفوس.

(ب) أن يكون قرينَه من فرقته الدراسية مثلا، وهنا يبرز داعى الحسد؛ لأن التسليم بفضل القرين معناه، تفوقه عليه بلا مرجِّح! وهنال يبرز عامل العناد، ليُسْكتَ اللسان فلا يشهدُ للمنافِس بفضل.

(جـ) أما إذا كان المجادل أقل سنا، فمن الصعب الاعتراف له بالفضل إنصافا؛ لأن معنى ذلك القضاء على الشاهد الذى تأخر فى مضمار السباق وسبقه من فى مثل سن ولده أو تلميذه!

***

ولكن الراسخين فى العلم ضبطوا أنفسهم فى حلبة الصراع بقواعد المناظرة، ولم يجدوا فى أنفسهم حرجا يمنعهم من الاعتراف بالعجز أمام تفوق تلاميذهم.

«كان أبو عبد الله الشريف التلمسانى يحمل كلام الطلبة على أحسن وجوهه. ويُبرزه فى أحسن صورة.

ويُروى أنه تجاذب مع أستاذه أبى زيد بن الإمام الكلام فى مسألة، وطال البحث اعتراضا وجوابا حتى ظهار أبو عبد الله على أستاذه أبى زيد، فاعترف له الأستاذ بالإصابة، وأنشد مداعبا:

أعلمــه الرمــاية كل يوم	فلـما اشتد ساعده رمانى
وكم علمته نظم القوافـى	فـلـما قال قافية هجانـى

***

وللأسف، قد يلجأ بعض الناس إلى تمزيق شخصيات الآخرين؛ لأن ذلك فى نظرهم طريق الوصول.

حوار الأديان

تمهيد

التنوع والاختلاف ظاهرة كونية.. بشرية.. ودينية كذلك:

أما عن التنوع فى مجال الكون فنقرأ قوله تعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾(1).

وعن التنوع فى مملكة البشر نقرأ قوله تعالى:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ (2).

وعن تعدد الأديان نقرأ قوله تعالى:

﴿..ولكل وجهة هو موليها..﴾ قال ابن عباس:

يعنى بذلك أهل الأديان.

يقول أحد الباحثين:

(وهذه الآية مرتبطة بقوله تعالى:

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة...﴾

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(3).

ونفى الإكراه واستنكاره معناهما:

منع المسلمين من إلغاء الأديان الأخرى بالجبر والإكراه. والنهى عن الإلغاء يعنى بقاء التعددية الدينية.

---

(1) آل عمران: ١٩٠.

(2) الروم: ٢٢.

(3) يونس: ٩٩.

وقد انبنى فى الشريعة الإسلامية أحكام خاصة باليهود والنصارى. . وغيرهم بناء على هذه التعددية الدينية).

وإذن. . فالإسلام لا يعيش وحده. . وإنما هناك أديان أخرى ينبغى أن نحاورها فى محاولات لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

●●●●●

مسوغات
حوار الأديان

١ ـ فى القرآن الكريم ما يؤيد ذلك:

فقد تحدث عن كل الأديان: سماوية . وأرضية . .

وتحدث عنها بدقة . . وأمانة . . كما يقرر الباحثون

بل وسمى ما عليه مخالفوه دينا . . وذلك قوله تعالى:

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾

٢ ـ وقد حاور ﷺ أهل الكتاب فعلا: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(١) .

٣ ـ طبيعة رسالة المسلمين.

إن طبيعة الرسالة الإسلامية تفرض الدخول فى هذا الحوار .

أ ـ فالله تعالى يقول: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (٢) .

وكما يقرر العلماء:

لن نكون شهداء إلا إذا كان لنا «حضور» مكثف فى قلب العالم . . وإذا لم يكن حضور كنا شهداء زور!!

ب ـ ضرورة الاختلاط بالعالم: قال ﷺ:

«المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم» .

جـ ـ وقد كانت توجيهات الإسلام وضوابطه ممسكة بهذا الحوار حتى يحقق الهدف منه:

---

(١) آل عمران: ٦٤ ـ ٦٨ .

(٢) البقرة: ١٤٣ .

أ ـ لقد سماهم القرآن الكريم أهل كتاب.. وهذا اعتراف بكتبهم المنزلة.

ب ـ ثم إن لهم حرية ممارسة طقوسهم وعاداتهم.

جـ ـ موضوعية الحكم عليهم.. بحيث تتجنب الأحكام العامة.

وقد قرر القرآن الكريم ذلك فى مثل قوله تعالى:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [1].

د ـ ترويض النزعة العرقية.. بالتسامح.. وسعة الأفق.

فكما قرر الإسلام اختلاف الألسنة فليس لنا حق اختصار لغات العالم فى لغتنا.. كذلك لابد أن تتسع صدورنا للاستماع إلى وجهة النظر الأخرى.. فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

هـ ـ ركز الإسلام على أهمية الجدال بالتى هى أحسن مع أهل الكتاب بالذات.

فالمجادل.. لابد أن يكون على أوفى معانى الحسن فى طبعه:

لينا... رفيقا..

وفى براهينه التي يجب أن تكون واضحة مشرقة..

ومن حسن الجدال: الرجوع إلى الحق بعدما تبين:

روى أن عروة رضى الله عنه رأى أن السعى بين الصفا والمروة ليس واجبا..

ولكن عائشة رضى الله عنها قالت: بئسما قلت!

ولو كان كذلك لقال تعالى: **﴿فلا جناح عليه أن يطوف بهما..﴾**

ثم ذكرت سبب تحرّج الصحابة من السعى بينهما..

لقد فهمت عائشة السبب.. فسلمت

ولم يعرفه عروة فراغ.. والمهم أنه رجع إلى الحق بعدما تبين.

---

(١) آل عمران: ٧٥.

من أسباب الانحراف عن الحق

أولا: الجهل. وثانيا: الدعايات المغرضة.

وثالثا: العناد. ورابعا: المنفعة.

ومن وراء هذه الدعايات المغرضة.

«خزائن مفتحة الأبواب.

وأيد تفيض بالمعونات بغير حساب.

لينقلب السذج منقلبهم.. ويعملوا على شاكلتهم»

وقد ترى معاندا للحق: لو تناطحت بين يديه الجبال ... ما اقتنع!

[وقد ترى منافقا: يطوى كشحه على حاجة دنيوية يريد قضاءها:

حتى إذا رأى أن قضاءها يتحقق: بذم من كان يحمده.. ومحاربة من كان ينصره.. وجد فى نفسه الأمارة ما يساعده على أن يظهر فى أى لباس شاء]

وإذا أنت أمام ذلك النموذج الذى أشار إليه مسروق الوراق:

كنا من الـدين قبل اليوم فى سعة
حتى ابتلينا بأصحـاب المقـاييس

قاموا من السوق إذا قلت مكاسبهم
فاستعملوا الرأى عند الفقـر والبؤس

هكذا حفلت ساحة الحوار بأصناف شتى.. اختلط فيها الحابل بالنابل.. وكل يدعى وصلا بليلى..

ومازال الواقع المعاصر يضج بهذا الجحود.. وهذا العناد..

وإن تعجب فعجب أن ينكر بعض الباحثين اليوم وجود الله تعالى..

لكن «جارودى» يقول ما هو مقتنع به.. ثم يحاكمونه وإنهم لأعداء الإنسان.. حيثما كان.

هؤلاء الأعداء:

«الذين يكبتون الرأى الآخر.. فيصادرون الحرية..

ثم هم العاملون على إفقاره.. قضاء على قدرته

ولكن الله تعالى..يقيض للحق من ينصره

فقد نقد هذه الآراء الفاسدة علماؤنا.

نقدوها: بأنظار راجحة..

وطرحوها من حساب الشريعة بالحجة الساطعة.. وجعلوها تبعثها على أصحابها وحدهم»

ومع هذا.. فقد حققت الدعاية المسمومة بعض أغراضها.. عن طريق هذه النماذج الرديئة

«الذين ينكرون أشياء من صميم الدين.. فلم يلجئهم الجحود من ناحية البحث الدقيق..والنظر القائم على قوانين المنطق الصحيح.

وإنما سبقت إليهم فى التعليم أو فى الجلوس ببعض النوادى آراء فتقبلوها.

وتراءت لهم شبهة فاعتنقوها.

والآراء الفاسدة والشبهة المغوية.. تربّى فى النفوس الضعيفة أذوا قا سقيمة.

ويكون لهذه الأذواق الحكم العاجل.

حتى إذا أنكرت حقا. خيّل إلى أصحابها أن إنكارهم صادف محرا. وظلوا فى جهالتهم يتخبطون.»

إنهم ينقضون..

ولا ينقدون..

يهدمون ولا يبنون!

العرض لا الفرض:

ولا يقف التسامح فى الإسلام عند حد:

إنه يمضى فى معاملته للمشركين شوطا آخر تحكيه سورة التوبة:

لقد كانت هذه السورة الكريمة نذيراً مدمدما، بالبراءة من المشركين ومن عهودهم، ثم إمهالِهم مدة معينة، يقعون بعد انقضائها تحت طائلة العقاب على ما قدمت أيديهم. وبالرغم من ذلك تنزل الآيات الكريمة حاملة معانى البر والعدل حتى فى أحرج اللحظات بإتاحة الفرصة أمام الغادرين ليستمعوا إلى القرآن الكريم، فلعل وعسى.

يقول سبحانه: **﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴾**. [التوبة: ٦].

فإذا رغب واحد من المشركين مهما كان موقعه. إذا طلب اللجوء إلى ديار الإسلام فنحن مأمورون بحسن استقباله متى طلب ذلك بمشيئته الحرة. وليسمع كلام الله.

وحسنُ الاستقبال هنا يتيح لمدارك القادم ولا شك لونا من التعامل مع آيات القرآن بمشاعر مستقرة، فإن أسلم فبها، وإن كانت الأخرى فلنصحْبه مكرَّما راجعين به إلى وطنه حفاظا على حياته.

وهنا يبدو التسامح الإسلامى من منطلق القوة.. لا من منطلق الاستسلام:

فنحن لا نُسمعه القرآن بالحيلة أو بالقوة، وإنما نتيح له فرصة أن يسمعه هو، وبمحض اختياره.

وقد يكون ذلك المشرك صاحب يد مخضبة بدماء المسلمين، ولا بأس، فلتفتح له صدورنا. فقد يكون جاهلا، وقد يكون مخدوعا، ولعله حين يعود إلى أهله ويسترجع ما رأى وما سمع بَدَا لَهُ من سماحة المسلمين، ولعله أن يعتنق الإسلام، وفى دياره. .لا فى ديار الإسلام التى لو أعلن إسلامه فيها فربما اتخذها الأعداء ذريعة للتشكيك فى صحة إسلام فرُض على الرجل!!

شقة الاختلاف:

وصحيح أننا لا نزوج المشركين، ولا نتزوج المشركات، وصحيح أيضاً أن طعامهم حرام علينا، ولكن مع بعد شقة الاختلاف تبقى شعبة من البر قائمة، ولا نقطع الخيط بيننا وبينهم، فلعل فى بقاء قنوات الاتصال ما يتيح للشارد أن يعود إلى الحق يوما.

ولقد يحلو لبعض المتحمسين اليوم أن يطالبوا بقطع صلاتنا مع دول الإلحاد جاهلين بأن ذلك يعنى ضَيَاع ساحات وسيعة للعمل الإسلامى بهذا الخيط الواصل

وأعتقد أن وجود سفراء لدول الإسلام فى كل بلاد الله يتيح فرصة التأمل وجَمْعِ المعلومات ووضع الخطط وإدراك نوايا القوم هناك؛ ليُتَرجَمَ ذلك كلُّه إلى عمل صالح يخدِم الدعوة بما يقدمه من معلومات تصير على الطريق هدى ونورا.

من مشكاة النبوه:

لقد رضى المشركون لأنفسهم أن يكونوا على أسوأ ما يكون الجدال. فَسَخروه لدحض الحق دون أن يملكوا من وسائل العلم والهدى ما يحشرهم فى زمرة الباحثين. وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ .[الحج:٣].

[بل إن الأمر لم يقف عند مجرد الجدال شَغْبا على الحق. وإنما كانت هناك مؤامرات تحولت بها المبادرات إلى مبارزات عدوانية، وذلك قوله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

وواجب الأمة منازلتهم، والتصدى لهم بالبرهان القاطع لا بالسيف الباتر ونقرأ هنا ما روته كتب السيرة: جاء «عتبة بن ربيعة» إلى النبى ﷺ نائبا عن قريش، يعرض عليه «عروضا» من شأنها أن تكسِر أقوى إرادة. قال للرسول:

« يا ابن أخى: إنك منا حيث قد علمت، من الشرف والعُلا فى النسب، وإنك قد أتيْت قومك بأمر عظيم، فرَّقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أَعرضْ عليكِ أمورا تنظر فيها، لعلك تقبلُ بعضها.

فقال له ﷺ:

قل يا أبا الوليد. . .أسمع.

قال: يا ابن أخى: إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر ما لا جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالا.

وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك.

وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا.

وإن كان هذا الذى يأتيك رِئيا ـ أى جنيا ـ طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا، حتى نُبرِئَك منه».

فلما فرغ عتبة من كلامه قال له ﷺ:

« أوَ قد فرغت يا أبا الوليد».

قال: نعم.

قال الرسول ﷺ: فاسمع منى؟

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[فصلت: ١ ـ٤]

وكان عتبة يُنصت. فلما انتهى الرسول إلى آية السجدة سجد ثم قال:

« قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعت. وأنت وذاك».

إن «عتبة» ومن ورائه الملأ من قريش يَعرض أمورا من شأنها أن تُذل رقاب الرجال الراغبين فى الملك والترف والزعامة، ولكن الرسول ﷺ يحسم الموقف لحساب المبادئ، بالقلب الودود، والبرهان القاطع.

فعلى رغم بطلان الدعوى، إلا أنه ﷺ يعطى «عتبة» حقه فى عرض وجهة نظره: «قل أسمع».

حتى إذا انتهى من بسطها لا يعطى الرسول نفسه حق الرد حتى يستأذن «عتبة» أولا، وذلك قوله: «أو قد فرغت؟».

ثم يناديه بأحب الأسماء إليه: «يا أبا الوليد».

فلما أعلن «عتبة» فراغه من بَسْطِ عُروضه، بدأت الحجة النبوية كعصا موسى تلقف ما يأفكون:

لقد تجاهل ﷺ ذلك المدخل «الدبلوماسى» الناعم فى قوله: «يا ابن أخى»: إنك منا حيث قد علمت من الشرف، والعلا فى النسب».

ثم تجاوز العروض المغْرية المجزية. .ليواجه الرجلَ بالحق يصرخ به من خلال آيات سورة فصلت، والتى أفزعته بالحقائق الآتية:

١ ـ إن على قريش منذ اليوم أن ترتفع بمداركها فوق هذه العروض الصغيرة، لتعايش القرآن فى افقه العالى يتنزل منه رحمة مهداة على الناس جميعا:

﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

٢ ـ ومن مظاهر هذه الرحمة أن جاءهم ذلك الكتاب المبارك مُفَصَّلاً على قد الحياة. .بلسان عربى مبين، مبشراً ونذيراً، فاتحاً بهذه النذارة والبشارة أعينا عميا، وقلوبا غلفا، لتنقل البشرية خطاها فى النور بعدما ذاقت وبال التخبط فى الظلمات.

٣ ـ فإذا لم تستجب تلك القلُوب لهتاف الرائد الذى لا يكذب أهله، فقد حكَمتْ على نفسها بالهلاك فى الوقت الذى ينعم المستجيبون بالأجر الدائم الوفير.

٤ ـ وعلى الملأ المعانِدين أن يدر كوا حجم الكفران هنا، إنه الكفران بمن خلق الكون الهائل العريض، والذى جعل من ارضه مائدةً مبسوطة بعطائه. . وجعل من سمائه مصابيح تَهْدى الحيارى.

٥ ـ ومعنى الإعراض بعد البينات أن يضعَ الجاحدون أنفسهم حيث وضع الجاحدون من مثل «عاد» و«ثمود» فقد دمَّر الله عليهم وللكافرين أمثالها.

٦ ـ ثم يكون مسكُ الختام حديثا عن المؤمنين الرافلين فى حلل النعيم فى جنات وعيون.

لقد آثر ﷺ أن يُخْلىَ بين «عتبة» وبين الحقيقة القرآنية التى انقضَّت كالصقر الجسور على جسدٍ هامد، فصحا على دقات الحقيقة ليقول لقومه وقد عاد إليهم:

«سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة. يا معشر قريش: أطيعونى»، «وخَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم».

ولاشك أن هذا الاعتراف كان ضربة موجهة إلى الملأ من الداخل، ومن ثم كانت موجعة.

وهكذا نجح الداعية فى إحداث«ربكة» داخل صفوف الأعداء، فَشغِلوا عنه بما قاله وافدُهم إليه. .

لقد نجح أولا فى إعارة الباطل سَمْعَهُ رغم تفاهته:

قل يا أبا الوليد. . . أسمع».

ثم نجح ثانيا فى الخروج من مصيدة المساومة لتنوب عنه الآيات الصارمة فى حسم القضية، فكانت هذه الخلخلة التى تجعل بأس القوم بينهم شديداً، ثم يتفرغ الداعية عندئذ للإبحار من جديد نحو المستقبل:

أهل الكتاب وأعلى مستويات البر

إذا اتسعت دائرة التسامح مع المشركين الذين يعفرون جباههم للوثن، فإن هذه الدائرة سوف تكون أرحب حين يتعلق الأمر باليهود والنصارى من أهل الكتاب.

وكان ذلك على مستوى الفعل، ومستوى القول:

روى سعيد بن جبير ـ مرسلا ـ عن النبى ﷺ فى سبب نزول قوله تعالى:

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

[أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة، فلما كثر فقراء المسلمين قال رسول الله ﷺ:

« لا تصدَّقوا إلا على أهل دينكم» فنزلت هذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام.

وفى بيان حق الذمى فى الحياة الكريمة يقول ﷺ:

« من قتل معاهدا لم يَرَح رائحة الجنة إنَّ ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما».

فانظر كيف كان قتل الذمى ـ وهو على غير ديننا ـ يطوِّح بالقاتل ـ وهو على ديننا ـ بعيدا عن الجنة بمسافة زمنية تقدر بأربعين عاما.

ذلك بأن الإسلام يحترم الحياة ولو كانت فى «هِرة» تحبسها امرأة حتى تموت، وإنها لتدخل النار بسبب ذلك.. فكيف إذا تعلق الأمر بحياة إنسان مثلى ومِثلك؟!

إن الأمر حينئذ يكون أشدّ هولا وأفدح عبئا. ثم إن بيننا وبينه عهداً لا ينبغى نقضه. والإسلام الذى وضع أسس الوفاء المطلق مع كل جنس وعلى أى دين، لا يمكن أن يفرط فى تطبيق الوفاء على أوفى مدلوله بلا تراخ حتى فى مثل حبة من خردل!

ونتساءل : ماذا يحقق قتله للإسلام؟

إن قتله ربما يمنع جماهير غفيرة كانت تستعد لاعتناقه، ولكننا حبسنا كلمة التوحيد على الألسنة بهذا العدوان الدموى.

وإذا تأملنا الرواية الأخرى القائلة: « من ظلم معاهدا» بدت لنا من سماحة الإسلام ومن عدله ما لا يحتاج إلى مزيد من التأكد؛ لأن هذه الرواية تشير إلى أن حرمان القاتل من ريح الجنة غير مرصود للقاتل فقط، بل إن ميزان الإسلام هنا ليدق حتى ليسجل كل ظلم يقع على المعاهد، ويدخر له العقاب الرادع، وفاء منه للعهد، وإعلاء منه لحرية الإنسان.

شهادة الخصوم:

«يذكر لنا المؤرخ «لودفيج» فى كتابه : « النيل ـ حياة نهر» كيف استقبل أقباط مصر الجيش الإسلامى ـ بقيادة عمرو بن العاص ـ استقبال المنقذين. . لا استقبال الغزاة الفاتحين، وكيف كان بالغاً حد الحماسة.

ويقول «لودفيج»:

إنه ما عدا فرضَ الجزية على المسيحى فإن عمرا لم يفرق فى المعاملة بين المسلمين والمسيحيين، بل إنه أعلن حمايته لحرية الأديان جميعا، ولإقامة شعائرها، وكفل المساواة المطلقة بين المسلمين والمسيحيين على السواء، مساواة شملت كل حق لهم، وكل واجب عليهم، بما فى ذلك وظائف الدولة بغض النظر عن الجنس والدين »[1].

ومعنى ذلك أن النصر الذى تلعب نشوته بالرؤوس ويحمل الزهو به على الظلم والتحكم، هذا النصر الذى من شأنه ذلك. لم يمنع العرب المسلمين من تطبيق مبدأ التسامح فى أصعب الظروف وأدعاها إلى الظلم والعدوان. ولقد كان المتوقع على الأقل أن يمارسوا ألواناً من الضغوط على الشعب. لكن شيئا من ذلك لم يحدث. وأساس ذلك كلِّه ما قرره القرآن الكريم من حرية الاعتقاد.

﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾[2].

فما دامت معالم الرشد قد وضحت فلا مجال للإكراه، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فقد بقى حقهم فى العدل والتسامح

---

(١) الغرب والشرق من الحروب الصليبية إلى حرب السويس. محمد على الغتيت.

(٢) البقرة : ٢٥٦.

محفوظاً، وأصيلا، بحيث لا يبيح الإسلام للمسلم أن يظلم مخالفه فى الدين بأى حال.

وعلى الذين يهتمون بالدعوة الإسلامية وانتشارِها أن يفهموا ذلك الدرس جيدا.

فقد حقق المسلمون بذلك التسامح أمجد الانتصارات التى لم يكن ليحققها لهم تفوقهم العسكرى، ولا ذكاؤهم.

يقول. . . «جيروم وجان تاور».

« إن فضيلة التسامح التى كانت أزهى السمات الخلقية فى العرب، والتى ندر أن تتوافر لغيرهم فى جميع الأزمان.

هذه السجية الكريمة قد أفادت العرب كثيرا، ولم يكن ليفيدهم ذكاؤهم الفطرى، وذوقهم الفنى، ونزعاتهم لو لم يتميزوا بفضيلة التسامح»[١].

وقد ظل العدل الإسلامى يواكب الحياة، فجعل للعيش قيمة وطعما بين المسلمين وجيرانهم من أهل الكتاب.

وفى العصور المتأخرة بقى العدل متألقا على مستوى القمة. . التى وقفت بالمرصاد تنذر من لم يعامل اليهود ـ على ما فيهم من طباع ـ بالقسطاس المستقيم:

وهذه وثيقة منسوبة للسلطات محمد بن عبد الله سلطان المغرب فى ٥ فبراير ١٨٦٤م « بسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

نأمر من يقف على كتابنا هذا من سائر خدامنا والقائمين بوظائف أعمالنا أن يعاملوا اليهود الذين بسائر بلادنا بما أوجبه الله تعالى من نَصبِ ميزان الحق، والتسوية بينهم وبين غيرهم فى الأحكام، حتى لا يلحق أحدا منهم مثقالُ ذرة من الظلم، ولا يضام، ولا ينالهم مكروه ولا اهتضام وألا يعتدوا هم ولا غيرهم على أحد منهم، لا فى أنفسهم ولا فى أموالهم، وألا يستعملوا أهل الحرف منهم إلا

---

(١) المرجع السابق.

عن طيب أنفسهم، وعلى شرط توفيتهم بما يستحقونه على عملهم؛ لأن الظلم ظلمات يوم القيامة، ونحن لا نوافق عليه، لا فى حقهم ، ولا فى حق غيرهم.

ولا نرضاه؛ لأن الناس كلهم عندنا فى الحق سواء، ومن ظلم أحدا منهم، أو تعدى عليه فإنا نعاقبه بحول الله.

قال أبو يوسف:

«مر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بباب قوم وعليه سائل يسأل: شيخ كبير، ضرير البصر.

فضرب عضده من خلفه وقال:

من أى أهل الكتاب أنت؟

قال: يهودى.

قال: فما ألجأك إلى ما أرى

قال: أسأل الجزية والحاجة والسن.

قال: فأخذ عمر بيده وذهب إلى منزله فرضخ له بشىء من المنزل ـ يعنى أعطاه ـ ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال:

انظر هذا وضرباءه ـ أمثاله ـ فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهَرَم «**إنما الصدقات للفقراء والمساكين**» والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين، من أهل الكتاب. ووضع عنه الجزية وعن ضربائه»[1].

ومعنى ذلك أن عمر رضى الله عنه يفسر المساكين فى الآية الكريمة بأهل الكتاب.

وليس بعد ذلك قول. . أو بيان. .

وهذا الأمر الذى قررناه وأوضحناه وبيناه كان مقررا ومعروفا محررا ولكن

---

(١) الخراج لأبى يوسف ١٢٦.

زدنا هذه السطور تقريراً وتأكيداً ووعيداً فى حق من يريد ظلمهم وتشديداً ليزيد اليهود أمناً على أمنهم، ومن يريد التعدى عليهم خوفا إلى خوفهم»[1].

فانظر كيف يؤكد الحاكم[2] على الظلم «ظلمات يوم القيامة» وكيف أنه يعاقب حين يعاقب «بحول الله» لا بحوله هو، ليتأكد لك أن الحاكم المسلم لم يكن يتخذ هذا التسامح سياسة وعبقرية كما زعم ذلك بعض الباحثين الأوروبيين، وإنما فعل ذلك تديناً، وتطبيقاً لأمر الله تعالى بتحريم الظلم فى أى شكل.. وعلى أى إنسان.

ولا يرغب الإسلام فى أن يظل أهل الكتاب فى عزلة عن المجتمع الإسلامى، بل إنه ليضع من الآداب ما يكفل معايشتهم، والالتقاء بهم فى نقاط يحصل بها الأنس والأمان:

فطعامهم حل لنا، وطعامنا حل لهم.

وإذا فرضت العقيدة أن يختار الإنسان زوجة من المحصنات المؤمنات الحرائر العفيفات، وصولا إلى السكن والقرار على أساس من وحدة العقيدة. فإن ذلك لا يمنع المسلم من الزواج بالكتابية الموحِّدة، والتى تتمتع بالعفة المحققة لمقصود الزواج، شريطة أن تسلم النوايا وتستقيم الدوافع: فيبذل مريدُ الزواج المهرَ المطلوب للكتابية جبرا لخاطرها وتقديرا لإنسانيتها فى صحبة عزم أكيد على إنشاء أسرة مستقرة بعيداً عن خواطر التلاعب بهذا الرباط المقدس.

ومعنى ذلك كله أن أولاد المسلم ـ وهم يتَّبعونه فى الدين ـ يمكن أن يكون أخوالهم من اليهود.. ومن النصارى.

ولا غرابة فى هذا أبداً متى صدقت النوايا. ولكن الغريب أن يجهل المسلمون ذلك!

إن الإسلام لا يكتفى بالطعام بل يتقدم بالمسلمين خطوة أخرى على طريق التلاقى فيسمح بالزواج بشروطه التى يجب أن تصان.

---

(١) تاريخ المغرب فى القرن العشرين.

(٢) حاكم المغرب السابق ذكره.

ويسأل الإنسان نفسه:

ألا يحقق ذلك مصلحة الدعوة؟

ألا يفتح الطريق واسعا أمام المخالفين لفهم أوثق، ورؤية أوضح لحقائق الإسلام وسماحته.؟

وإذا لم يزد طابور الإسلام امتداداً فإنه على الأقل يوفر عنصر الأمن فى ظل من هذه المصاهرة التى تجعل الحياة أقرب إلى السكن والقرار:

وهكذا المسلم دائما..

إنه لا يكره..مخالفة فى الرأى..بل فى العقيدة..

ثم هو لا يُكرهه على رأى..ولا دين

بل إنه يتمنى أن يظهر الحق على يد مخالفه فى الرأى..

يقول «براون»..

[لا أستطيع أن أتنكر لإنسان يختلف معى فى أفكاره ولا أغضب منه أحكامه التى لا أوافق عليها، والتى ربما اعتنقتها أنا نفسى فيما بعد..

إنه فقط مستعد أن يرضى بالأمر الواقع..

لكن المحاور المسلم..ومن أفقه العالى..يتمنى ذلك الواقع.. والفرق هائل بطبيعة الحال.

فن الاستماع!

نصح الوالد ولده قائلا:

«تعلّم حسن الاستماع.. قبل أن تتعلم حسن الحديث».

ومن فوائد ذلك:

١ ـ حسن الاستماع يمكّن من استيعاب وجهة النظر الأخرى.

٢ ـ ثم التفاعل معها.

٣ ـ وبالتالى: يمكن استخلاص ما فيها من معان.

وعن عمق هذا الاستماع يقول ابن المقفع:

«إذا كلمك الوالى: فأصغ إلى كلامه.

ولا تشغل طرفك عنه بالنظر إلى غيره.

ولا أطرافك بعمل.

ولا قلبك بحديث نفس.

واحذر هذه الخصلة من نفسك. وتعهدها بجهدك»

ومعنى ذلك: أن يرصد المحاور كل كيانه لاستقبال وجهة النظر الأخرى.. حتى إذا تصدى لها كان على بينة من أمره.

والقرآن الكريم يركز على أهمية السمع.. بتقديمه فى الذكر على البصر.. وذلك قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقد قالوا:

من حصافة الإنسان.. أن يكون الاستماع أحب إليه من النطق إذا وَجَد من يكفيه.

فإن الصمت والاستماع: صون من اللوم. وزيادةٌ فى العلم.

وإذا لم تتعلم الصمت.. لم تتعلم الكلام!

وإذا كان القول من فضة بيضاء عند الناس..

فإن الصمت.. من ذهب..

وما أصدق قول المنصور لولده:

خذ عنى اثنتين:

لا تقُل فى غير تفكير..

ولا تعمل بغير تدبير

وقد نبه علماؤنا إلى أهمية السمع بقوله تعالى:

﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾[1].

فقد نصّ على الترتيل.. ولم ينص على الكتابة..

أى أنه اهتم بما يتصل بالأذن.. أكثر من اهتمامه بما يتصل بالنظر..

ومعروف أن الإلقاء المتميز.. سبيل إى فهم المتلقِّى.. ثم إلى اقتناعه.

الإلقاء المتميز: على لسان داعية محاور:

يتسلل حديثه إلى النفس: كشعاع الضوء رقيقا..

لكنه مع رقته مركب من كل ألوان الطيف..

إنه سهل.. بسيط..

والسهولة أصعب من اللفظ الرنان..

ولأنه يغرف من قلبه. فإنه بحِواره الهادئ..

يستنبت فى النفوس زرعا.. يستغلظ مع الأيام..

ثم يستوى على سوقه..

---

(١) المزمل: ٤.

قال ابنٌ لعمرَ بن ذر:

لماذا يا أبت: إذا تكلمتَ.. أبكيت الناس..

وإذا تكلم غيرك لا يبكون؟!

فقال: يا بنى:

إن النائحة الثكلى.. ليست كالنائحة المستأجرة!!

ثم فى قوله تعالى:

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن..﴾[1].

قال علماؤنا:

تشتمل الآية الكريمة على أدوات الحوار البناء.. والتى بها يكون المجادل على مستوى الحوار:

أولا: الحكمة:

وتعنى: العلم... والقراءة.

العلم المقترن بالأدوات الثلاثه:

أ ـ البصيرة: وهى: النظرة الموضوعية الباحثة عن الحق.

ب ـ الفؤاد البعيد عن الانفعال والتعصب..

جـ ـ السمع الذى يتلقى المعانى..

وخلاصة ذلك كلِّه:

رفضُ الوَصاية على الرأى الآخر.

د ـ تجريد المسائل المراد تحقيقها من كل تصور سطحى[2] أو شخصى.

---

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) من صور السطحية ما روى من أن «بنى طفاوة» و «بنى راسب» تخاصموا فى رجل. كل يدعيه. فقال رجل: يلقى فى الماء!: فإن طفا.. فهو من طفاوة.. وإن رسب.. فهو من راسب!!

وثانيا: الموعظة الحسنة:

وبها لا نكفِّر أحدا..

ولكن نأخذه إلى الحق فى رفق.. مدفوعين بالصبر.. والحلم.. غيرَ متورطين فى رذيلة إساءة الظن بالآخرين..

والأصل فى ذلك ما رواه أحمد «إذا حُدِّثتم حديثا. فظنوا الذى هو أهدى والذى هو أتقى المسند ج١/ ٢٢».

وصحيح - أيها المجادل - أن فى خصمك عيوبا..

ولكن ليست هذه هى القضية:

إنما القضية هى المسألة المعروضة للبحث.. فلتكن شغلنا الشاغل.. بعيدا عن تصفية الحسابات القديمة.

ثم إذا كنت أيها الداعية مجادلا... فأولى بك أن تجادل بالحسنى:

فأنت طاهر.. ومَنْ تدعوه عكَّرته المعصية.. فى زعمك. ومن أجل هذه المسافة الفاصلة.. لابد أن تتقدم إليه.. وفى أناة.. وحلم.. وتبصُّر.

وليكن القرآن الكريم دليلك على الطريق:

لقد أرسل الله تعالى إلى مريم «بشرا سويا» وكان بشرا لتأنس به.. كما قال المفسرون.. ثم أسمعها ما تقرُّ به عينُها وهو:

أنا.. رسول.. ربك.. لأهب لك.. غلاما.. زكيا.. وكلها مرغبات داعيات إلى الرضا والتسليم.. وهذا هو الذى حدث..

صور من الواقع

ولقد كنت آسى على متحاورين يحرص كل منهما على إبراز مساوئ خصمه.. فكانت المعركة سجالا.. لا تنتهى. وكنت أردد مع المنصفين:

من الخطأ الاقتراب من التفاصيل الصغيرة فى حكمنا على الآخرين..

ثم النظرُ إليها بعدسات مكبِّرة؟!!

لأن الحُكْم عندئذ سوف يصرف النظر عن الصورة العامة للخصم.. ليركز على جزئيات معيّنة.

وكلنا؛ كهذا الصف من النخيل:

إنه يبدو من بعيد جميلاً..

فإذا اقترْبتَ منه.. بدت لك فيه عيوب..

فلا تحاول أن تقترب.. حتى لا تعكر صفو الحديث الذى سوف تنحرف به الأهواء ليصبح الحوار ساحة للطعن.. والتجريم.. والتجريح..

وما زلت أذكر ذلك الفتى الذى انتفخَتْ أوداجه دفاعا عن زميل ظنه قد هُزِم فى معركة الرأى..

لقد وقف يدافع عن صاحبه.. لكنه بعصبيته.. وقف على جسد صاحبه.. الذى اتخذه قاعدة له.. يحارب منها غريمه!!.. يحاربه لمصلحة صاحبه..

صاحبه الذى أراد أن ينفعه.. فأوجعه!!

الموضوعية لا العصبية

إن العصبية «ذاتية»، بمعنى أنك معنى بمصلحة نفسك الشخصية.. وأليق بنا أن تكون «الموضوعية» رائدنا.. لأنها تعنى أنك تتحدث لا لمصلحتك.. ولكن لحساب الحق الذى هو هدف الطرفين على سواء.

وإذا احتاج الرياضى إلى «العصبية» إلى الحد الذى يقول فيه:

«إن العصبية هو الوسيلة التى زوَّدَتْنا بها العناية الإلهية لتهيئة الجسم لمواجهة حالات الطوارئ..

ثم لزيادة الحساسية لدى كل حاسة من حواسنا كى تتمكن من الاستجابة السريعه ومن الأداء الأمثل..

وإذا قال الرياضى:

إذا لم أكن عصبيا .. فأنى أخسرْ..

إذا كانت هذه تقاليد الرياضة. فإن الحوار على ساحة الفكر.. يتعامل بأسلوب آخر يرفض العصبية.. كنسلاح يحقق الفوز..

وإنما.. يتقدم المحاور.. إلى الساحة بوسائل أخرى تنسجم مع طبيعة المعركة الفكرية.. والتى تتطلب أن يكون المحاور متسلحا:

. **أولا**: بالمعرفة.

وثانيا: بالإخلاص.

وثالثا: بالانسجام مع فكرته التى يعرضها ويدافع عنها:

ورابعاً: احترام الطرف الآخر.

يقولون: «إن المعرفة القليلة شىء خطير:

فاشْرَبْ بعمق.. أولا تشرب على الْإطلاق من النبع الصافى».

وإذن.. لابد أن تمدُ «هوائى» جمع المعلومات.. ومن كل الاتجاهات.. لتكون ذلك المقاتل القادر على الحركة.. ومواجهة الاحتمالات.. فإذا كانت توفَّرَتْ لك المعرفة المطلوبة لتجلية فكرتك..

فقد بقى أن تتسلح بالإخلاص لتحقق به أمرين:

أولا: إيجاد نوع من الاستجابة لدى الطرف الآخر..

وثانيا: ما يترتب على ذلك من الشعور بالرضا ولا تمتلِكُ زمام الموقف.. إلا إذا كنت منسجما مع موضوعك.. محبا له.. مشوقا إليه.

إن للتعامل فى نطاق الفكر مقاييس أخر تختلف عن علاقاتنا المادية.

ولاحظ أننا:

إذا حاولنا التأثير فى الرُّخام.. فسوف يندثر..

وإذا حاولنا التأثير فى النحاس.. فسوف يمحوه الزمان.. لكننا إذا حاولنا التأثير فى عقول الرجال..

فبالخوف من الله.. والحب فى الله..

إذا صبغناها بالمبادئ السامية. فنحن نحفر على تلك اللوحات شيئا لا يمحوه الزمان..

وسوف يتألق.. وإلى الأبد.

وسوف تخرج بالمعرفة.. والإخلاص..

سوف تخرج من «شرنقة» التَّعصب البغيض..

إلى فضاء السماحة العريض!

[فلتتفتح كل الزهور].

يحرص الإسلام على أن تكون الساحة الفكرية أرضا خصبة.. تتفتح فيها كل الزهور.. كل الآراء.. بالحوار الهادئ الهادف..

والأصل فى ذلك قوله تعالى:

﴿لا إكراه فى الدين..﴾[1].

أجل.. لا إكراه فى الدين.. فقد تبين الرشد من الغى.. فمن شاء فليؤمن.. ومن شاء فليكفر..

لقد اشتكى أحد الصحابة إلى رسول الله ﷺ.. بقاء بعض ولده مشركا.. وكيف يصبر على قطعة منه فى النار..

ونزلت هذه الآية الكريمة لتعلن:

إنه إذا كان الشرك بغيضا..

فأبغض منه النفاق.. نفاق الأولاد.. الذين نحاول أن نُدْخلَهم فى الإسلام قهرا وقسرا..

وأفضل من الاثنين:

أن يبقى الفكر حرا طليقا.. ليختار الإنسان لنفسه ما يحلو..

ونتأمل فى ذلك قوله تعالى:

---

(١) البقرة: ٢٥٦.

﴿وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى..﴾[1].

فهنا محاولة من الوالدين للضغط على الولد فى قضية فكرية..

ولكن..

ولكن الإسلام. فيما يتعلق بالفكر يدعو إلى الحرية..

وفيما يتعلق بالعاطفة فإنه يحترمها.. ولا يتجاهلها.. وذلك ما يشير إليه قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة:

﴿.. وصاحبهما فى الدنيا معروفا﴾.

وعلى هذا الأساس مضى الفكر الإسلامى.. «فكان إجماع الأمة حجةً قاطعة وكان اختلافهم رحمة واسعة».

ومن جميل ما يروى هنا: أن رجلا ألَّف كتابا فى الاختلاف. فقال له الإمام أحمد:

«سمه كتابَ السَّعة»[2]!!

من القول إلى الفعل

ولم يقف الإسلام فى أدب الحوار عند أفُق القول.. بل قد بلغ بالأدب منتهاه عندما ترقى من القول إلى الفعل.. عندما تسامح مع المخالفين فى الدين.. تسامحا تسامى بالعلاقة الإنسانية أن تؤثر فيها الخلافات العقدية:

كان إبراهيم بن أدهم. إذا صنع إليه أحد معروف. حرص على أن يكافئه.. أو يتفضل عليه.

قال أبو عيسى:

فلقينى وأنا على حمار. وأنا أريد بيت المقدس. قادما من الرملة.

قال: وقد اشترى تفاحا وخوخا. وفاكهة كثيرة.

---

(١) لقمان: ١٠.　　　(٢) مجموع الفتاوى ج٣٠/٧٩١.

قال: يا أبا عيسى: أحب أن تحمل هذا. قال:

وإذا عجوز يهودية فى كوخ لها: فقال:

أحب أن تُوصِّل هذا إليها.. فإننى مررت وأنا مُمْس. فبيتتنى عندها.

فأحب أن أكافئها على ذلك.

والأصل فى ذلك عمل رسول الله:

فقد ترك ﷺ لليهود فى وادى القُرى أرضهم فى أيديهم يزرعونها بِشَطر ما يُخرجون منها. وكذلك صنع بأرض خيبر.

وكان يرسل إليهم عبد الله بن رواحة رضى الله عنه. لتقدير الثمر وكان تقديره شديدا عليهم. فأرادوا أن يَرْشُوه فقال لهم:

«يا أعداء الله: تعطوننى السحت؟!!

والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلىّ.. وَلأنتم أبغض إلىّ من القردة والخنازير.

ولا يحملنى بغضى إياكم وحبى إياه على ألا أعدل.]

ورفض الرشوة رفضا شديدا.

فانظر إلى سلامة الجهاز العصبى الذى صمد فى أحرج اللحظات فلم يفلت عياره.. فلم تخرجه شدة الحب من حق..

ولم تْدخله شدة الغضب فى باطل.

فتساءل [هدف الأمة الإسلامية.. ما هو؟ يجيب العلماء.

الهدف: تحدده الآية الكريمة:

﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا..﴾[1].

ويم يدوم الهدف **﴿الذين إن مكناهم فى الأرض..﴾**

وهل الأمة الإسلامية مرشحة لتحقيق الهدف؟

---

(١) القصص: ٦.

الإجابه مختلفة[1]:

١ ـ هناك يأس.. فى جانب

٢ ـ وثقة مطلقة.. فى جانب آخر..

وعن الأول: مرفوض: [إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون]

والثانى: لنا عليه تحفظ...

فهناك مغالاة: إفراط قد يتطور إلى غرُور..

وصحيح أن الصلاة.. والزكاة.. نحن ملتزمون بها.. والمساجد حافلة بالركّع السجود لكن دائرة الأمر والنهى.. فى حاجة إلى مراجعة...

فكما أن للصلاة والزكاة ضوابط فللدعوة كذلك.. ضوابطها:

١ ـ التسليم بالاختلاف كظاهرة بشرية.

٢ ـ الفصل بين الفكرة.. والشخص.

٣ ـ احترام الرأى الآخر.

الاختلاف ضرورة.. قال الجاحظ:

اختلاف الأمزجة مهم:

فلو كان الناس مزاجا واحدا.. لاختاروا الرياسة وبطلت الصناعات]

وإذن: فالمثاليون مخطئون حين يريدون صب الناس فى قالب واحد؛ لأن ذلك مخالف لسنة الله تعالى فى:

١ ـ الاختلاف.

٢ ـ والتدرج.

(١) اعتمدنا فى هذه الفقره على ما قرره الباحثون المجربون.

الفصل بين الفكرة والشخص

أحيانا يختلط المبدأ بالشخص.. فأنت تقدس فكرة أورأيا.. ينادى به إنسان.. وإذا أنت تقدس الرجل.. وليس المبدأ..

مع أن الإسلام فَصَل بين المبدأ والقائد. يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿وما محمد إلا رسول..﴾

فهو ﷺ يموت لكن المبدأ يبْقى

احترام الرأى الآخر

بعض الناس يقدِّس رأيه.. ويشجب الرأى الآخر..

وإذن فالقضية فى نظره محسومة مقدما.. فلا داعى للحوار..

ولا داعى لاحترام الرأى الآخر..

فإن قَبِلتَ.. فبها..

وإلا تكلم الرصاص!

مع أن المعركة قد تكون بين رأى صحيح.. ورأى أصح..

والقاعدة:

أن من اعتنق رأيا صحيحا فليس من حقنا أن نجْبُرَه على غيْره..

وقد اتسع صدر المجتمع الإسلامى لكل الاتجاهات..

كان ابن عباس رضى الله عنه.. مترخصا وكان ابن عمر رضى الله عنه.. متشددا

ومن مضاعفات التشدد:

العمل فى الظلام!!

وعن مضاعفات العمل فى الظلام تنْشَأ سلبيات منها، ما قرره العلماء:

١ ـ اختفاء التناصح بين العاملين فى الظلام حفاظا على وحدتهم وحتى لا ينكشف للآخرين خطؤهم.

٢ ـ ويصبح الأمر كهنوتا وتسلطا.

٣ ـ تتسع مسافة الخطأ.

٤ ـ سلب الفرد حقَّ النقد ليصبح تابعا.

٥ ـ غياب الرؤية الصحيحة للأمور فيفسدُ الحكم عليها.

ثم يكون التطرف والهدم قربى إلى الله!!

٦ ـ سوء الظن..

٧ ـ سهولة اتهام الجماهير بالكفر.

فتُستباح دماؤهم.

٨ ـ ويصبح الأمر على ما قيل:

يشتاق كل فرد إلى الوصول إلى القمة:

لكن عرامة الأشواق تحجب الرؤية..

فلا يفكر باتزان..

ويظل ينطلق متهورا إلى فوق.

أ ـ فيدوس الآخرين..

ب ـ ويحطم القيم.

ثم.. يسقط أخيرا وإن وَصل إلى القمة..

وفى سنته ﷺ ما يحمينا من هذا المصير:

لقد تعبد ﷺ فى غار حراء..

ثم خرج من الغار ليعمل فى النور..

فعرف الناسُ رسالته.... فآمنوا بها..

ومن الذين لم يؤمنوا بها.. احترموها..

أما العمل فى الظلام فهو:

معاكس للإسلام..

ثم هو لا يدرى به أحد..

ومن ثم.. يظل عقيما.. سقيما.. حانقا.. حاقدا..

الحل الإسلامى

التغبير من الداخل:

﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم..**﴾[1].

إن انخفاض مقاومة الجسم داخليا يتيح للجراثيم الهجوم فى غيبة الحارس..

وكذلك ضعف الأمة داخليا يتيح للأجنبى اقتحام حماها.

ونحن نظلم أنفسنا.. فيظلمنا غيرنا.. ولهذا يركز القرآن على ظلم النفس:

١ ـ «**وما ربك بظلام للعبيد**»

٢ ـ وما ظلمهم الله.. ﴿**قل هو من عند أنفسكم**﴾. إن مرضنا نفسّى يُخرجُ الذات من المشكلة ثم نتهم الآخرين.. فتتراكم العلل.

وعلى قدر واقعية الرسالة يكون نصيبها من النجاح..

وعلى قدر واقعية القيادة يكون نجاحها:

إن الشخصية الملائكية لا تدوم

والشخصية الساحقة لا تدوم أيضا..

ولابد أن يكون القائد إنسانا..

ونظرته إنسانية واقعية.. وكما قيل:

من مشى معنا إلى نهاية الشوط.. فذاك ما نريد. ومن مشى معنا قليلا.. قَبِلْنا منه.

ومن أعطانا تأييده فقط.. فهو معنا..

ومن استطعنا التخفيف من حدة اندفاعه نحو المعصية ما زهدنا فيه].

والمطلوب: إحياء الوسيط الغائب: الحوار

وذلك يحتاج إلى نظرة مستوعبة:

---

(١) الرعد: ١١.

فالزوجية أساس الكون:

﴿ومن كل شىء خلقنا زوجين﴾[1].

فالتقاء الأب والأم ينُتج الذرية.

ولا يكفى الإخصاب.. فلابد من المودة والرحمة. لصلاح الذرية..

وفى مجال الدعوة لا يكفى أن تكون مخصبا.. محقا..

بل قبل ذلك لابد من المودة والرحمة.. ليحدث الاحتكاك.. احتكاك الأفكار وضعًا ملائما يحقق مصلحة الدعوة:

أ ـ إن مناقشة جاهل.. لجاهل.. تزاوُجٌ عقيم لا ينتج.

ب ـ ومناقشة جاهل.. لعالم.. كذلك.

ولذلك يعلو الصوت.. ثم تكون المهاترة.. التى قد تصل إلى الاغتيال!!

وهكذا: كلما ضعفت الحجة.. كلما كانت الخشونة تغطية للضعف!!

لابد من سلاح الحوار الفعال وهو:

الثقافة المرتبطة بمشكلات المجتمع.. لا مجردُ التخمةِ العلمية المدرسية والتى يُلقى بها الطلاب كُتُبهَم آخر العام فى سلة المهملات][2]!!

---

(١) الذاريات: ٤٩.

(٢) الفكرة لبعض الباحثين.

الأمانة العلمية.. والموعظة الحسنة

كان الإمام الغزالى يصور وجهة نظر خصمه بدقة ـ ثم يكُر عليها.. ليخر السقف عليه وعلَيْها: وذلك منطق الأقوياء وهو أيضا منطق الأمناء.

وقد تراجع «أبو بكر الأنبارى» عن خطأ وقع فيه، وهو يلقى درسه فى حلقته العلمية، ثم أصلح هذا الخطأ عندما نُبِّه إليه، بل وصل فى الأمانة منتهاها عندما أعلن أن الذى نبهه إليه هو الدارقطنى»! وذلك من جانب آخر شاهدٌ على قوة الشخصية. على عكس ما قد يفعله البعض من إخفاء اسم المُصَحِّح، بل ربما زعم أنه عاد إلى الحق لأنه هو الذى اكتشفه.

وهنا تظهر أبعاد الشخصية الأمينة على الحق: فقد عَرَف الأنبارى الحق، ثم عاد إليه، وبصورةٍ علنية، وهو مقتنع راض، معلنا اسم من ذكَّره به.

فكانت هذه سماتِ العالم الواهبِ حياته للحق دون سواه.

وقد اعترف ابن رشيقٍ بضعف ذاكرته، كما اعترف الثعالبى بذلك.

فَيَذكُرُ أحيانا أنه نسى بعض الأسماء، وأيضا ينسى بعضَ الأشعار.

وسئل الشعبى عن مسألة فقال لا أدرى!

فقيل له: فبأى شىء تأخذون رزق السلطان؟!!

فقال: لأقول لا أدرى.. فيما لا أدرى!!

وقيل له: أننا لَنَستحيِى من كثرة ما تسأل فتقول: لا أدرى..

فقال: ولكن ملائكة الله المقربين لم يستحيُوا حين سئلوا عما لا يعلمون أن قالوا:

﴿لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾[1]!!

يقول أحد العلماء:

«وأعلم أن قول المسئول: لا أدرى لا يضع من قدره، كما يظنه بعض الجهلة

---

(١) البقرة: ٣٢.

بل يرفعه: لأنه دليل عظيم على عظم محله، وقوة دينه، وتَقْوَى ربه، وطهارة قلبه، وكمال معرفته، بخلاف الذى يجيب خطا.. حرصاً على مكانته بين الناس: فإن ذلك: جهالة، ورقة دين.. فربما اشتُهِر خطؤه بين الناس، وفى هذا من الفساد والتغرير ما فيه».

وقال آخر: «تعلَّم لا أدرى، فإنك إن قلت: لا أدرى علموك، وإن قلت: أدرى. سألوك، حتى لا تدرى»!!

كل أولئك يدل على سبب من أقوى أسباب ازدهار البحث فى ظل الإسلام، فهذه الأسماء لعلماء كالنجوم، لهم ماض يشرفهم، وحاضر يزكيهم.. ومن شأن الناس ـ تحت ضغط سمعتهم ـ أن تُفْتَنَ بهم، وتجرىَ وراءهم، واثقةً بهم، وربما جر ذلك إلى معرفة الحق بهم، لا إلى ما يجب أن يكون من معرفة الرجال بالحق!

وفى هذا ما فيه من بلاء؛ لأنهم بشر يخطئون ويصيبون، فضلا عما يترتب على ذلك الانقياد من إلغاء شخصيات التابعين لهم، وتوقف مسير البحث العلمى..

من أجل ذلك، كانت هذه التنبيهات دالة على أن العلماء الكبار:

١ ـ ينسَوْن، فهم فى حاجة إلى مذكر.

٢ ـ ويخطئون، فهم فى حاجة إلى مصحح.

لم يكن العلم عند سلفنا الصالح ملهاة يتسلون بها، ولكنه كان أمانة عظمى ومسئولية جسيمة، ولا يدعيه إلا من أعد نفسه له، ونشأةُ الإمام مالك شاهدة على ذلك: أَلْبَسَتْه أمه لأول عهده بالدرس ثيابا نظيفة، وعمامة طويلة، ثم قالت: أذهب إلى ربيعةَ فتعلَّم من أدبه قبل علمه».

وقد أفضى طلب العلم بمالكٍ أن نقض سقف بيته فباع خشبه، ثم أقبلَتْ عليه الدنيا بعد ذلك.

وحين أنِسَ من نفسه الكفاية العلمية لم يتصدر للفتيا حتى عرض نفسه على

أساتذته ليأخذ منهم براءة العلم، وهو يقول فى ذلك: «ما جلست للفتيا حتى شهد لى سبعون شيخاً بالعلم».

ويقول: «لا خير فيمن يرى نفسه بحالة لا يراه الناس أهلا لها».

«وعن ابن مسعود قال: من أفتى الناس فى كل ما يسألونه عنه.. فى كل شىء، فهو مجنون».

وأبو الحسن الأشعرى تزعم المعتزلة أربعين سنة، وتحول عن مذهب الاعتزال، ولكن بعد أن اعتكف فى بيته خمسة عشر يوما، واستخار الله ثم أعلن الثورة على الاعتزال، وليس هو بالذى لا يكلفه ترك الرأى إلا بمقدار ما يخلع الإنسان قُفَّازه؟!

الالتزام بالحق!!

يقول الغزالى: «ينبغى للمناظر: أن يكون طلب الحق كناشد ضالةً، لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه، ويرى فيه مُعيناً لاخصما، ويشكره إذا عَرَّفه الخطأ، وأظهر له الحق، كما لو أخذ طريقا فى طلب ضالته، فنبهه صاحبه على ضالته فى طريق آخر، فإنه كان يشكره ولا يذمه، ويُكرمُه ويفرح به، فهكذا كانت مشاورات الصحابة رضى الله عنهم.

في الرجوع إلى الحق

«حكى أن قطاة نازعت غراباً حفرة يجتمع فيها الماء، وادعى كل واحد منهما أنها ملكه، فتحاكما إلى صديق، فطلب من كل منهما بيِّنة، فلم يستطع أحد منهما أن يقيمها، فحكم الصديق للقطاة بالحفرة، فلما رأته قضى لها من غير بيِّنة، والحال أن الحفرة كانت للغراب، قالت له أيها الصديق، ما الذى دعاك لتحكم لى وليست لى بيِّنة، وما الذى آثرت به دعواى على دعوة الغراب؟ فقال الصديق: قد اشتهُر عنك الصدق بين الناس حتى ضربوا بصدقك، المثل، فقالوا: «أصدق من قطاة» فقالت له: إذا كان الأمر كذلك فوالله إن الحفرة للغراب، وما أنا ممن اشتُهرت عنهم خصلة حسنة ويفعلون ما يخالفها؛ فقال: وما حملك على هذه الدعوى الباطلة؟ فقالت: ثورة الغضب؛ لأن الغراب منعنى من ورود حفرة الماء، ولكن الرجوع إلى الحق أولى من التمادى فى الباطل، ولأن تبقى لى هذه الشهرة خير لى من ألف حفرة»!

وجوب النظر

يقول الله سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾

[سورة الزمر ١٧ ـ ١٨].

يقول الرازى فى تفسيره للآية الكريمة: واعلم أن هذه الآية تدل على فوائد: منها: وجوب النظر والاستدلال؛ وذلك لأنه تعالى بين أن الهداية والفلاح مرتبطان بما إذا سمع الإنسان أشياء كثيرة، فإنه يختار منها ما هو الأحسن والأصوب. ومن المعلوم أن تمييز الأحسن الأصوب عما سواه لا يحصل بالسماع؛ لأن السماع صار قدرا مشتركا بين الكل، لأن قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾

يدل على أن السماع قدر مشترك فيه، فثبت أن تمييز الأحسن عما سواه لا يتأتى بالسماع، وإنما يتأتى بحجة العقل. وهذا يدل على أن الموجب لاستحقاق المدح والثناء متابعة حجة العقل. وبناء الأمر على النظر والاستدلال».

وللآية الكريمة بُعدٌ آخر يدل على ما نحن بصدده من ضرورة الالتزم بالحق واتباعِه عند ظهوره:

فالآية الكريمة بِشارةٌ مؤكَّدة بأمرين: بالفلاح، والنجاح.

وهى بشارة لقوم: لم تقيِّد عقولَهم آراءُ سابقة حول قضية معينة، بحيث إذا سمعوا ما يغايرها رفضوه. بل إنهم موضوعيون فيما يعرض عليهم من قضايا وآراء: يزنونها بمنطق العقل، ثم يختارون من المعروض عليهم أعلى مراتبِه وأحسنَها متجاوزين العصبية، والجهل، والتقليد، وهى الموانع الحاجزة عن الإقرار بالحق. فهم يحملون أنفسا مَشُوقة إلى الحق. مهيأة لاعتناقه.

الوجه الآخر!!

أمّا هؤلاء الذين يعارضون الحق بعد ما تبين.

فإن الله سبحانه يذكر موقف هؤلاء الكذابين وشناعتَه:

﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ [سورة البقرة: ٨٩].

وبين الله سبحانه أن ذلك الإعراض بعد العلم ظلم عظيم:

﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ** ﴾ [سرة الزمر: ٣٢].

﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ . وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾

[سورة العنكبوت: ٦٨، ٦٩].

فليس هناك أظلمُ ممن افترى الكذب على ربه وبخاصة فى اللحظة التى وضح له فيها الحق. لا سيما وقد كان يَعِدُ بقبوله لو جاءه.

وإذا كانت الآيات تتوعد من جحد الحق ظلما، فإنها تحرِّض المؤمنين على جهاد هؤلاء الذين يشغبون على الحق، ولا يكتفون بجحوده.

إنهم كما قيل يريدون إسكات صوت ضميرهم الذى يُعذِّبهم فى داخلهم بإثارة جدل فارغ يذهب بهذا العذاب الذى يحسونه.

وإلا فلماذا يفترون ويشغبون مع أنهم قد خرجوا من دائرة الحق إلى دائرة الكفر فماذا يعنيهم من الحق إذن إلا أنهم يعبثون ويَلْغُون؟

صورتان متقابلتان:

ومن صور النفور من قبول الحق ما روى: أن ابن أبى ليلى كان جالسا للحكم فى مسجد الكوفة فانصرف يوما من مجلسه فسمع امرأة تقول لرجل: يا ابن الزانيين، فأمَرَ بها فأخذت، ورجع إلى مجلسه وأمر أن تُضرب حدين وهى قائمة، فبلغ ذلك أبا حنيفة فقال: أخطأ القاضى فى هذه الواقعة فى ستة أشياء؟

فى رجوعه إلى مجلسه بعد قيامه منه ولا ينبغى له أن يرجع بعد أن قام منه فى الحال.

وفى ضربه الحدَّ فى المسجد وقد نهى النبى ﷺ عن إقامة الحدود فى المساجد.

وفى ضرب المرأة قائمةً وإنما تضرب النساء قاعدات كاسيات.

وفى ضربه إياها حدين وإنما يجب على القاذف إذا قَذَفَ جماعةً بكلمة واحدة حدٌّ واحد.

ولو وجب أيضا حدان لا يوالى بينهما بل يَضْربُ أوَّلا ثم يترك حتى يبرأ ألمُ الضرب الأول.

ثم أخطأ فى إقامة الحد عليها بغير طالب.

فلما سمع ذلك ابن أبى ليلى سار إلى والى الكوفة وقال:

ههنا شاب يقال له أبو حنيفة يعارضنى فى أحكامى ويفتى بخلاف حكمى ويُشنِّع علىّ بالخطأ فأريد أن تزجره عن ذلك. فبعث إليه الوالى ومنعه من الفتيا، فانقاد أبو حنيفة لأمر الوالى، فيقال أنه كان فى بيته ومعه زوجته وابنه حماد وابنته، فقالت ابنته: إنى صائمة وقد خرج من بين أسنانى دم وبصَقْتُه حتى عاد الريق أبيض لا يظهر عليه أثر الدماء فهل أُفطِر إذا بلعْتُ الريق الآن؟ فقال أبو حنيفة؟ سلى أخاك حمادا فإن الأمير منعنى من الفتيا.

قال ابن خلكان: وهذه الحكاية معدودة فى مناقب أبى حنيفة وحسن تمسكه بامتثال إشارة رب الأمر، فإن إجابته طاعة، حتى أنه أطاعه فى السر ولم يَرُدَّ على ابنته جوابا، وهذا غاية ما يكون من امتثال الأمر:

أما الرجوع إلى الحق فمن صوره ما كان بين مالك والشافعى: قال الدميرى فى كتابه حياة الحيوان قائلا:

كان الشافعى جالسا بين يدى مالك رضى الله عنهما. فجاء رجل فقال لمالك: إنى رجل أبيع القَمَارِى وإنى بعت فى يومى هذا قمريا فرده علىّ المشترى وقال: قُمْرِيُّك لا يصيح، فحلفت له بالطلاق أنه لا يهدأ من الصياح، فقال الإمام مالك: طُلِّقَتْ زوجتُك ولا سبيل لك عليها. وكان الشافعى يؤمئذ بسنه أربع عشرة سنة فقال:

أيما أكثر، صياح قمريك أم سكونة؟

فقال الرجل: بل صياحه.

فقال الشافعى: لا طلاق عليك.

فقال مالك للشافعى: يا غلام من أين لك ذلك؟

فقال: لأنك حدثتنى عن الزهرى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أم سلمة أن فاطمة بنت قيس قالت: يا رسول الله، إن أبا جهم ومعاوية خَطَبانى، فقال ﷺ: أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وقد علم رسول الله ﷺ أن أبا جهم كان يأكل وينام ويستريح، وقد قال ﷺ: لا يضع عصاه على سبيل المجاز، والعرب تجعل أغلب الفعلين كمداومته، ولما كان صياح قمرى هذا أكثر من سكونه جعلتُه كصياحه دائما.

فتعجب الإمام مالك رضى الله عنه من احتجاجه وقال له:

أذنت. فقد آن لك أن تُفْتِى.

فانظر كيف انقاد مالك لرأى غلام من تلاميذه ولم يأنف من قبوله حينما تبين له أن الحق معه، والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها.

أما الاستبداد بالرأى والتعصب له فليس من سمات العلماء المحققين.

أصل الأصول:

والأصل فى ذلك كله قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة النحل: ١٢٥].

فالأصل فى الدعوة أن تكون بالقدوة، وإذا كان ولابد من حديث فليكن كما بينته الآية الكريمة بالحكمة: قول محكم مؤيد بالدليل. وهذا الأسلوب أليق بأهل الفكر والنظر.

والموعظة الحسنة: قول رقيق مؤثر يلمس الوجدان وهو أجدر بالعامة: وبالطغاة المستبدين أيضا.

وإذا كان ولابد من جدال فليكن على نحو كريم، وليكن المجادل على مستوى المسئولية واهبا نفسه للحق.

يقابل خشونهم باللين. وشغبهم بالنصح. وتجريحهم بالصفح.

إنها أدلة تنقض أدلة، إلى جانب الاقتصار على بيان نقاط الضعف فى رأى الخصم، وكأننا لا نعرف من حياته إلا هذه النقاط.

أما الخروج عن الخط فى معركة حول شخصيته وسمعته ومركزه فذلك مما لا يدخل فى دائرة الحكمة.

ولقد كان المتوقع من الإسلام وهو يرى الحق مظلوما أن يأمرنا بالهجوم الكاسح، لكنه لم يفعل. بل على العكس: يأمر بأن نزداد إحساناً كلما ازدادوا نكرانا.

اما عندما يحاول المزاج الشخصى أن يفرض وجوده على سير الجدال، فليتوقف الجدالُ حينئذ، وذلك قوله تعالى فى الآية الكريمة السابقة: ﴿**إلا الذين ظلموا منهم**﴾.

إن جو المشاحنات والمساومات أليق بالمبطلين الذين يحققون بالتهريج بعض الغلبة، وينبغى للمحقين ألا يُعطوهم تلك الفرصة، وذلك بإغلاق باب المناقشة.

وينبغى أن يكون معلوما أن الموقف لم يكن ضعفا من الإسلام.

ولكنها طبيعة الدعوة الحكيمة التى لا تستهدف فقط إسكات الخصم فيما يشبه المعركة الحربية، ولكنها تريد أن تكسِب على الأقل احترامه، وتضع حدا لِحِقده عليها.

كل ذلك مؤسس على قاعدة نفسية تكشف عن مدى تعلق الإنسان الشديد بمعتقده وإن كان فى ذاته باطلا، فإذا سُبَّ سبَّ الحق وأهله.

وفى القرآن: ﴿**ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله**﴾.

وفى السنة: «مر رسول الله ﷺ بقبر وهو فى طريقه إلى الطائف فسأل أبا بكر عن صاحب القبر، فقال: هذا قبر رجل كان عاتيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص.

فغصب ابنه عمرو بن سعيد، وقال: يا رسول الله، هذا قبر رجل كان أطعم للطعام وأضرب للسهام من أبى قحافة.

فقال أبو بكر يكلمنى هذا يا رسول الله بمثل هذا الكلام؟

فقال ﷺ: اكفف عن أبى بكر، فانْصَرَف.

ثم أقبل ﷺ على أبى بكر فقال: يا أبا بكر: إذا ذكرتم الكفار فعمِّموا، فإنكم إذا خَصَّصتم غضب الابناء للآباء فكفَّ الناس عن ذلك[1].

وقال ﷺ: «**لا تسبوا الأموات، فتؤذوا الأحياء**»[2].

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه الترمذى وأحمد والطبرانى.

نتعارف ولا نتخالف

عندما يولد الطفل: يكون مخه مكوناً من عشرة آلاف خلية. وهذه الخلايا. منفصل بعضها عن بعض، ولكن هذه الخلايا لا تستطيع أن تعمل منفردة، فلابد أن تتشابك. وأن تتماسك، بل إن هذه الخلايا تشبه الأيدى عندما تتداخل أصابعها. وتشبه الجسور التى تربط الشواطئ، فلكى تحقق هذه الخلايا الغاية من وجودها. لابد أن تتعاون...

ومن هذا الدرس النفسى، إلى درس آخر فى عالم الأكوان يؤكد المعنى نفسه:

إن العالم يُغَلِّفه غطاء جوى واحد، وتهدده أخطار واحدة: زلازل تدك البلاد، والتلوث والجفاف، والديون، وندرة بعض الموارد.. ولكى يحتفظ العالم بحياته فلابد للبشر من التعاون بدل التطاحن، والتعارف بدل التخالف.

وللإسلام هنا منهجه المستعلى على كل مذاهب الأرض، فالمذاهب الأرضية فى حرصها على وجودها وبقائها تحاول إبادة الأطراف الأخرى لتتفرد وحدها بالحياة.. ولكن الإسلام يريد البقاء للجميع، بالتوازن والتكامل، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحجرات آية: ١٣].

فالله سبحانه وتعالى يستدعى البشر جميعا: مؤمنَهم وكافرَهم، أبيضَهم وأسودهم، ليقول لهم: إذا فرقت بينكم الأوطان، فإن هناك معنى مشتركا يجمعكم جميعا على بِساط التعارف.

وكما أن لكل عضو فى الجسم حياةً خاصة به تمكِّنه من أداء وظيفته، فهناك إلى جانب هذه الحياة الخاصة حياة مشتركة هى حياة الجسد، التى لا تكون إلا بالتعاضد ليبقى الإنسان حيا.

روافد الوحدة

والمتأمل فى طبيعة الدين الحق. يرى أن العقيدة والشريعة كليهما دعوة إلى الوحدة، وإذا كان ولابد من خلاف، فمن أجل الوصول إلى الائتلاف والتكامل:

فالعقيدة الإسلامية من البساطة والوضوح بحيث تطمئن إليها كل نفس، ويستريح إليها كل وجدان.

وقد استطاعت حفنة من التجار بهمة لا تعرفُ الوَنَى، ولا يعتريها الفتور - استطاعت أن تُدخِل الناس فى دين الله أفواجا، ولو أجْمَعَتِ الجاليات الإسلامية اليوم أمرها، وارتفعت إلى مستوى هؤلاء التجار المسلمين، لفعلوا الأعاجيب بهذه العقيدة البسيطة البليغة فى الوقت نفسه. وهو مالا حَظَه الأجانب أنفسهم.

يقول أرنولد:

«إن هذه العقيدة البسيطة لا تتطلب تجربة كبيرة للإيمان بها. ولا تثير فى العادة مصاعبَ عقليةً خاصة، وإنها لتدخل فى نطاق أحط درجات الفهم والفطنة. ولما كانت خالية من المخارج والحيل النظرية اللاهوتية كان من الممكن أن يشرحها أى فرد، حتى أقلُّ الناس خبرة بالعبادات الدينية النظرية»(١).

إن الشريعة الإسلامية كما قيل:

مرفأ كبير، تتوافد عليه كل العلاقات، والسلوك، لتأخذ زادها، وتلتمس هداها. إنها تحمل لواء الخلود، ولذا فهى وافية بحاجات الإنسان على امتداد العصور.

والإسلام بهذا المعنى جامع للمسلمين على كلمة الحق.

وإذا كان ولابد من خلاف، فهو اختلاف الرؤية، وليس الاختلاف الذى يحل الحلال، أو يحرم الحرام، فالأصول فى الإسلام واحدة، لكن الخلاف فقط فى تفسير أوجه العبادة وفى المعاملات.

أما الخلاف فى الديانات الأخرى فهو واقع - كما يقرر العلماء - فى الأصول.

وأنت خبير بما يذهب إليه «الكاثوليك» الذين لا يقبلون أن يقال:

المذهب الكاثوليكى، فى مقابل: المذهب «البروتستانتى» ويصرون على قولهم: «الدين الكاثوليكى».

---

(١) تاريخ الدعوة/ ٤٥٤.

«وأين هو احتمال أن يكون غيرنا أمة واحدة فى الوقت الذى وصلت فيه عقائدهم حد التناقض بين قائل: المسيح هو الله.

وقائل: بل هو ابن الله.

وثالت يقول: هو ثالث ثلاثة.

كرامة الإنسان:

ولو أخذت موضوع كرامة الإنسان التى هى فى الإسلام حقيقة فوق الجدل، لراعك ما لاحظه العلماء من الفروق الهائلة بينه وبين غيره من الديانات والمذاهب، الأمر الذى يفرض على المسلمين شكر نعمة من نعمه تعالى الداعية إلى وحدة توافرت دواعيها، وصرف النظر عن خلافات لا داعى لها:

فالمجوسية: جعلت الإنسان غير مهذب فاخترعت التناسخ[1].

واليهودية والنصرانية: تعدان الإنسان مسئولا عن أعمال غيره ممن سبقوه حتى آدم عليه السلام.

فاليهودية تقول:

إن اللعنة أو السوء والخطأ يلحق بالفرد منذ الجيل السابع السابق عليه.

والنصرانية: عدت الإنسان قذرا مذنبا:

فالمولود يعمد فى نهر الأردن.

كما كان المجوسى يغتسل فى نهر الكنج بالهند ليطهر.

وقالت المسيحية: إن المسيح جاء ليحمل عن البشر خطاياهم، والإنسان فيها مسئول عن الذنب الذى ارتكبه آدم.

ويعنى ذلك: أن الإنسان قذر يحتاج إلى التطهير.

مذنب: لابد من تعذيبه عن ذنب ارتكبه غيره!

وهو أيضا عاجز: لا ينجو فى الآخرة إلا بآخر يحمل عنه ذنوبه هو، وذنوب غيره.

---

(١) تقلب النفس الواحدة فى أجسام مختلفة من البهائم والسباع والطير والبشر، حتى تتهذب النفس.

وإذا صنع الجحود على أعين المعاندين حجابا فعموا وصموا عن إدراك هذا الخلل، فإن الواقع المعاصر هناك يؤكد اتساع مسافة الخلف حتى بين أبناء الملة الواحدة:

ولنقرأ ما نشرته الأهرام القاهرية أخيرا:

«السلفيون المتطرفون» فى كل مكان، أو فى إنجلترا أيضاً على الأقل!

ففى إنجلترا وأسكتلندا بالذات، فرع من الكنيسة البروتستنتينية (كنيسة انجلترا) تسمى «البريسبتياريات»، اجتمعت مؤخراً واتخذت قرارا بفصل وحرمان كافة قضاة إنجلترا (لورد ما كاى) منها، والسبب أن قاضى القضاة حضر صلاة على جثمان ميت.. فى كنيسة (كاثوليكية).

وقال قاضى القضاة أن المتوفى كان صديق عمره، وكان لابد أن يحضر الصلاة على جثمانه، وقالت الكنيسة التى فصلته أنه «دخل كنيسة كاثوليكية، واستمع إلى صلوات كاثوليكية يعتبرونها «بابوية كافرة»، فى حين أن إنجلترا بروتستنتينية وكنيستها بروتستنتينية وملكتها بروتستنتينية، اعتبرت أن كل الكاثوليك فى العالم (ستمائة مليون) كفرة! وعلى قاض القضاة أن يعلن التوبة أو أن يصبح فصله نهائيا!!

وفى الشهر نفسه كانت ثمة قصة أخرى: فريق كرة القدم فى مدينة أسكتلنديه بروتستنتينية معظم أهلها يتبعون الكنيسة نفسها «اشترى» كالأسلوب المتبع فى الدول الغربية لاعب كرة إنجليزيّاً من ناد آخر، ودفعوا فيه مليونا ونصف مليون جنيه إسترلينى، وبعد أن جاء للاعب واستقبل استقبالا حسنا، لم تمض أسابيع حتى عرف أن لاعب الكرة «كاثوليكى»، ولم يقصد أن يخفى ذلك منذ البداية.

ولكن أهالى المدينة ثاروا لهذا الاختيار، وهم بالطبع المشجعون الأساسيون لنادي مدينتهم، واحتج أهالى المدينة على هذا الاختيار، وقالوا أنهم لن يشجعوا نادياً فيه لاعب كرة كاثوليكى خصوصا وأنه ناديهم!

وعبثا حاول النادى و«عقلاء المدينة» أن يحملوا مشجعى النادى على تغيير قرراهم بمقاطعة ناديهم!

كالعادة تغلب المتعصبون الغوغائيون، ووجد النادى أنه قد يغلق أبوابه إذا صمم على بقاء اللاعب، وتقدم اللاعب وأعلن انسحابه من الفريق!!

وقال: إنه لا معنى لأن يلعب لحساب مشجعين يرفضونه، أو أن يحرم نادياً من مشجعيه، ورحل عن النادى وعن المدينة!

حماقات تذكرنا بسخافات المتطرفين لدينا من «السنة» أو من «الشيعة» على السواء.

والذين يحاربون معارك مضى على الذين خاضوها أكثر من ألف سنة، ولم يسفر استئنافها عن أى شيء!]

أما فى الإسلام: فالإنسان طاهر. وبرىء من ذنب ارتكبه غيره، وسوف ينجو فى الآخرة بعمله هو، فضلا منه تعالى.

يقول الله سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [سورة الإسراء آية: ٧٠].

فالإنسان بحكم آدميته.. وبغض النظر عن دينه، له نصيبه من الكرامة.

الكرامة: المؤكدة باللام، وقد، والمتوجه بضمير العظمة، الموحية بحراسة هذه الكرامة من قبل الله العظيم سبحانه وتعالى، والذى تفضل على الإنسان فصان كرامته هبة منه سبحانه، وليس منه من أحد مهما يكن.

وفى موقفه ﷺ من وفد نجران. ما يجلّى سماحة الإسلام، وبساطة العقيدة، وتقديرَ كرامة الإنسان، على نحوٍ شاهد بعظمة الإسلام، وأنه حقّاً هديَّة السماء إلى الأرض.

لقد تسامح الرسول ﷺ مع وفد نجران حينما دخلوا مسجد الإسلام ليؤدوا صلاة النصرانية مما يدل على سعة صدر الداعية، بحيث ينبغى ألا يضيق ذرعا

بمخالِفيه إذا وجد منهم ما يُنْكَر، وبحيث يعتصم بالصبر حين يحين النقاش فيجادلُ بالتى هى أحسن.

قال محمد بن جعفر بن الزبير - فيما روت كتب السيرة والتاريخ - «قدم وفد نجران، عليهم ثياب الحبْرات، وأرديةٌ ذاتُ جمال وبهاء. يقول من رآهم من أصحاب رسول الله ما رأينا وفدا مثلَهم.

وقد حانت صلاتهم فقاموا فى مسجد رسول الله، فقال عليه السلام: دعوهم فَصَلُّوا إلى المشرق، وهم على اختلافٍ فى شأن المسيح يقولون هو الله. ويقولون تارة هو ولده، ويقولون ثالث ثلاثة. تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

ومع بعد الشقة بينهم وبين الفكرة الإسلامية، إلا أنهم وجدوا فى صدر الإسلام متسعا..!

أمة الوسط:

يقولون:

إن الإفراط فى الحذر، يفضى إلى الجبن. والإفراط فى الإِقدام، يفضى إلى التهور. والإفراط فى التأنى. يفضى إلى البلادة. والإفراط فى الاسترخاء يفضى إلى الكسل.

ونضيف إلى ذلك:

أن الإفراط فى الاختلاف يفضى إلى الشقاق، فالافتراق إلى شيَعٍ وأحزاب.

لقد اختلف علماؤنا الأجلاء ولكنه الخلاف الملتزم بالحق، المعترف بالفضل لأهله.

قال الإمام أحمد لابن الإمام الشافعى: أبوك من الستة الذين أدعو لهم وقت السحر.

بل إن الحق الذى جمع بينهم أقامهم على أرقى معانى الوفاء: قال الشافعى لما حَضَرَتْه الوفاة: «ليُغسِّلْنى فلان» فلما حان الغُسل. قال صديقه: «أرونى مفكرتَه» فَوَجَد عليه دَيْناً كبيراً، فنقله إلى ذمته وقال: «هذا هو الغُسل الذى أراده!».

وحين يختلفون، فإنهم لا يُصعِّدون المعركة إرضاء لهواهم، ولا يحاولون استثمار العيوب فى محاولة للقضاء على سمعة الخصم الشريف. ولكنهم يتساءلون. . فى محاولة لالتماس الأعذار للناس:

اختلف الناس فى الحارث بن قيس. التابعى:

فقال قوم: إنه لبخيل.

وقال آخرون: بل هو كريم.

فتابعه رجل فى السوق، فرآه يدقق فى الشراء، ولكنه يعطى من سأله بسهولة. فلما سأله عن تفسير المعادلة قال: «لا أعوِّد نفسى الترف!».

إنه الاختلاف فى الرأى وفى المعاملة. والذى هو محكوم أبداً بضوابط الأخلاق وليس هو الخلاف المباعد بين الرأيين إلى حد التناقض: لقد كان «زفر» صاحبا لأبى حنيفة، ومع ذلك كان يخالفه فى الحكم، ثم يوافق الشافعى فيه وهو على غير مذهبه.

وربما كان هناك من علماء مدرسة الكوفة فى النحو من يوافق مدرسة البصرة فى رأى، وبلا حرج؛ ذلك بأنهم لم ينقلوا العلم نقلا، وإنما تلقَّوْه مشافهة، فرسخت فيهم ملكة البحث فكانوا رجالا، امتد بهم العلم بعد وفاة شيوخهم.

وأين هذا الخلاف الهادف من رجلين اتَّبع كل منهما هواه فقال لصاحبه ممن يُعجَبُون بالجاحظ: ليت شعرى؛ أى شىء كان يحسن الجاحظ؟! فقال له صاحبه: ليت شعرى، أى شىء لم يحسنه الجاحظ؟

إن ذلك الخلاف لا لقاء معه أبداً. .

فكيف تُقنع رجلا يشجُب أديب العربية إلى هذا الحد، بينما الجاحظ ألفَّ كتاب «الحيوان» وهو: مفلوجٌ فى جانبه الأيسر. . لو قُرِص ما أحس. والنُّقْرس فى الجانب الأيمن. . لو مرت عليه ذبابة لتألم!! إن هذا التعاند فى تناول القضايا من شأنه أن يغلق باب الحوار. وهذا خسارة للدعوة ذاتها، فى الوقت الذى يكون الحوار الهادف هو طريقها إلى الذيوع والانتشار.

ولقد استحسن الإمام أحمد ما حُكِى عن حاتم الأصم: أنه قيل له:

«أنت رجل أعجمى لا تُفصح، وما ناظرك أحد إلا قطعته، فبأى شىء تغلبُ خصمك؟

فقال: بثلاث.

* أفرح إذا أصاب خصمى.

* وأحزن إذا أخطأ.

* وأحفظ لسانى عنه أن أقول له ما يسوؤه.

فقال أحمد: ما أعقله من رجل[1].

وقد كان حاتم الأصم يَصْدر فى سلوكه هذا عن وعيه بمسئولية الكلمة والتى عبر عنها بقوله:

«لو أن صاحب خبر جلس إليك ليكتب كلامك لاحترزت منه. وكلامُك يُعَرض على الله تعالى.. فلا تحترز؟!!

ثم هو صادر كذلك عن فهم عميق لطبيعة النفس الإنسانية التى تدافع عن رأيها تحت ضغط العادة، أو وطأة الجهل، ومن ثم، فلا يكون السباب هو الحلّ الأمثل، ولكن الحل هو التعامل مع الخصم بمثل ما تعامل به ﷺ فى صلح الحديبية:

لقد علم ﷺ أن موانع القبول فى قلب مندوب قريش هى: العادة والجهل:

العادة التى حملت «سهيل بن عمرو» على أن يتمسك بإثبات كلمة «باسمك اللهم» بدلا عن «بسم الله الرحمن الرحيم».

والجهل الذى عبر عنه بقوله: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك!

---

(١) عن الفرق بين النصيحة والتعيير ٣٢.

ويعنى ذلك: تركيز الجهود على التخفيف من حدة العادة، وتنوير العقول حتى نعينَها على رؤية الحق.

والمهاترة هنا، غير واردة إطلاقاً!

وهكذا كان يفعل علماؤنا فى جدالهم اللافتِ إلى بيت القصيد، فى عفة وأدب يجعل من المناظرة درساً مفيداً لا مهاترة وتهديداً.

حين يظلم العربى نفسه :

ولقد غاب المنهج الدقيق للحكم على الناس والأحداث، فظلمنا أنفسنا ظلما أعَنَّا به الأعداء علينا، إلى حد حمل البعض على التساؤل: هو طُبِع العرب على الخلاف دون غيرهم من الأمم؟؟

ولقد أجاب ساطع الحصرى بما ملخصه:

فى نظرنا إلى تاريخ الدول الأجنبية، وتاريخ الأمة العربية. نخطئ فى منهج البحث:

ننظر إلى تواريخ الأمم الأخرى عن بعد نظرة إجمالية، فندرك خطوطها الأساسية العامة، دون أن نتعمق دقائقَها وتفاصيلها.

أما بالنسبة للعرب: فندرك التفاصيل دون أن ندرك الخطوط الأساسية العامة.

من أجل ذلك نخطئ حين نقول: إن العرب مخطئون بطبعهم، فالخلافات الدينية والسياسية فى الغرب كانت أعنف، وأشمل من خلافاتنا حتى فى فرنسا التى تظهر أنها أكثر تباعدا عن الخلافات الدينية:

(أ) فهناك خلاف بين الدول والكنيسة.

(ب) وبين الكنيسة والكنيسة.

(جـ) ووصل العنف فى هذه الخلافات إلى حد حملهم على إنشاء محاكم التفتيش وما ارتبط بها من أهوال.

أما عن الاختلافات السياسية: فقد انساح العرب بعد الهجرة فى مشارق

الأرض ومغاربها، من سواحل بحر المحيط الأطلسى، إلى شواطئ نهر السند. وسهول كشغر، ومن سفوح هملايا إلى جبال الألب والبرانس.

فأى سلطة حاكم يحكم هذه البقعة المترامية، ثم لا يكون خلاف؟ مع الأخذ فى الاعتبار رداءة المواصلات.

وفى العصر الحاضر:

لو رجعنا إلى تاريخ الدول المعاصرة من القرون الوسطى، حتى النصف الأول من هذا القرن، فماذا نجد؟

كانت ألمانيا قبل خمسين سنة منقسمة إلى تسع وثلاثين دولة، ولم تتحد إلا بعد جهود كبيرة.

وفرنسا: كانت أسبق الدول إلى الوحدة السياسية الكاملة والتماسك القومى، ولكنها كانت مسرحا لشتى الاختلاف.

من آثار خطأ المنهج:

لما أخطأنا فى منهج النظر. بدا تاريخ أوروبا جبالا شامخة من الخارج، وعن بعد.. بينما لو اقتربنا منها، لوجدناها نجاداً، ووهاداً».

ثم بدا تاريخنا مشوهاً؛ لأننا ننظر إليه من خارجه وعن قرب فنرى عيوبه.

فلنغير زاوية الرؤية، فلننظر من الخارج نظرة شمولية. وسوف نرى أن تاريخنا شامخ.. مرتفع.. على ما به من منخفضات ووهاد.

وأننا ـ مهما اشتط بنا المزار أحسن حالا من غيرنا، فلنكن عند حسن الظن بأنفسنا. وبتاريخنا.

ردم منابع الفتنة:

وما زال أستاذنا الشيخ محمد الغزالى يؤدى دور النذير العريان، الذى يوقظ الضمائر الغافلة، والعيون الغافلة، لتصحو قبل أن تسقط فى حمأة التناحر من جراء اصطناع خلافات حول أمور جزئية تمزق الأمة أشلاء، وقبل أن ينتهزها أعداء

الإسلام فرصة للقضاء على صلاحية التقدم التى كانت هبة الإسلام للمسلمين.

يقول الشيخ(١):

«سمعت جدالا بين أناس يتحدثون عن حكم لمس المرأة، ولمس إحدى السوءتين، والأقوالِ المتضاربة فى هده القضية. فقلت لهم: هذه أحكام تُقَرَّرُ فى خفوت، ويذْكر الخلاف فيها بكثير من التجاوز، وأمرها لا يستحق هذا الحماس، ولا ذلك العناد، فنظروا إلى مستنكرين، فقلت لكبيرهم: أتعرف شيئاً؟ عن السوءة الكبرى فى الإسلام، وجاء الرد بسرعة: أى سوءة؟ قلت: ضياع الإسلام فى الأندلس وذهابُ ريحه، وانتهاء دولته، ومحو حضارته، هل درستم أسباب ذلك، وأخذتم الحيطة حتى لا تتكررَ المأساة؟.

إننى أدهش عندما يجيئنى متقعر يسألنى: هل يقضى المأموم الركعة إذا لم يقرأ الفاتحة، ولكنه أدرك الإمام راكعا؟

لقد قلت لهذا السائل: الجمهور على أنه لا يقضى.

فقال بسماجته: لا.. يجب أن يقضى والسنة الصحيحة توجب ذلك؟

قلت له: ما دام يؤثر الرأى الآخر، فليقض الركعة.

فأراد أن ينشئ معركة علميه فى هذه القضية. فقلت له بصبر نافد:

إن تعلقكم بهذه الخلافات لا مساغ له. وأريد أن أسألك:

التناصر بين المسلمين واجب، فكيف ينصر المسلم فى إفريقيا أخاه فى آسيا؟ هل فكرتم فى ذلك، واكتشفتم وسيلة مادية أو أدبية؟ إن الحكومات تعالج أموراً عادية وعبادية خطيرة، فهل فكرتم فى طريقة لنصحها، وعرض وجوه الرأى عليها. وإلزامها الحق إن هى رفضته، وتأمين معارضيها إذا فكر مستبد فى إيذائهم؟ إن تخلف المسلمين شائن فى دنيا الناس، فهل فكرتم فى أسلوب يكشف عنهم هذا العار، حتى إذا تقدموا صناعيا وحضاريا أمكنهم أن يدافعوا عن عقائدهم، ويحموا مساجدهم من نُظم تريد إغلاقها: ومنعَ اسم الله أن يذكر فيها؟

(١) أزمة الشورى ٨٢: ٨٣.

فقال لى المتفقه المغفل: هذه سياسة، وأنا أكلمك فى الفقه!

قلت: أنا أكلمك فى الفقه، وأنت وأمثالك صرعى سياسات محقورة، شغلت الجماهير بالخلافات الصغيرة. حتى يمضى الفجار فى طريقهم دون عقبات».

وأقول قد أعذر من أنذر.

وكأنى بشاعرنا الإسلامى الغيور يشد آذان هؤلاء الغلمان يذكرهم بماضى الزمان، يوم كان آباؤنا الأولون بالإسلام سادة الدنيا.. كأنى به يصرخ فى وجوههم بهذا العتاب المرير باسم الإسلام قائلا:

كنت مغُروراً بكم إذ كنتمو	شجراً لا تبلغ الطير ذراها
لا تنام الليـــل إلا حولها	حرس ترشح بالموت ظباها
وإذا امتدت إلـــى أغصانها	كف جان قطعت دون جناها
فتراخى الأمر حتى أصبحت	هملا، يطمع فيها من يراها

وما أحوج أمة الإسلام اليوم.. إلى استشعار ماضيها المجيد.. لتنسج اليوم على منواله..

وسقى الله عهودا كانت الشورى.. قاعدة الانطلاق.. وكانت المجالس مباركة طيبة.. يأتيها رزقها من بركات الشيوخ.. وهمم الشباب.

ومن هؤلاء الشيوخ: الأشعث بن قيس.. والذى قال لقومه يوما:

إنما أنا رجل منكم:

ليس لى فضل عليكم.. لكننى:

أبسط لكم وجهى.. وأبذل لكم مالى. وأقضى حقوقكم. وأحوط حريمكم.

فمن فعل مثل فعلى.. فهو مثلى.. ومن زاد فهو خير منى.. ومن زدت عليه فأنا خير منه).

ومن هؤلاء الشباب ذلك الفتى من.. عَبْس والذى قيل له:

ما أكثر صوابكم!! فقال:

نحن ألف رجل.. وفينا حازم واحد.. ونحن نشاوره فكأننا ألف حازم!!

من أخلاق العلماء

تمهيد[1]:

في الوقت الذى اغتر فيه كثير من الناس بأن من كثر جداله فى مسائل الدين. فهو أعلم ممن ليس كذلك.. نرى العلماء من أهل الفقه والخشية خلاف ذلك: فلقد كانت القاعدة عندهم: من كثر علمه.. قل كلامه. والعكس صحيح..

ولقد نأوا بدينهم أن يكون هدفا للخصومات. ورصدوا طاقاتهم لخدمة الحق.. لا لمماراةِ الخلق.

وقد أثمر هذا التجرد فى قلوبهم خلال: التواضع.. والتجرد. والزهد فى المدح. وكسبِ رضا الناس.

ووضعوا بهذه الخلال المباركه حدا للعالم كما ينبغى أن يكون. وهذا ما يقرره الحسن البصرى رضى الله عنه وقد قيل فى رأى قاله: ما سمعنا فقيها يقول هذا.

فقال: وهل رأيتم فقيها قط إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا. الراغب فى الآخرة. البصير بدينه، المواظب على عبادة ربه الذى لا يدارى ولا يمارى.. ينشر حكمة الله إن قُبلت منه يحمدِ الله.. وإن ردت عليه يحمد الله].

وهو الذى زكت هذه الفضائل فى نفسه فآتت أكلها. على ما يقول أيضا:

(الذى لا يحسد من فوقه. ولا يسخر ممن دونه. ولا يأخذ على عِلْم علَّمه لله أجرا) بل إنهم ليزدادون تواضعا. كلما ازدادوا علما.

أى أن العلم فى حياة هؤلاء العلماء كان وسيلة لتعزيز الروابط بينهم وبين غيرهم. بدل أن يكون أداة للتكبر والرغبة فى حب الظهور.. وفساد العلاقات الاجتماعية.

---

(١) راجع مجلة الجامعة السلفية. أكتوبر ١٩٨٥.

ولا شك أن غياب رذائل الحسد والتغاير من حلقة العلم من أسباب نجاح الدرس.. وإتاحة الفرص لتبادل المعلومات بين أرباب الصناعة الواحدة.. بحيث يصبح الجدل الحَسَن طاقة لخدمة الحق.. ومحاربة عدو مشترك هو الجهل.

* * *

عندما يغضب العالم:

فإذا حدث وتغيرت ملامح العالم غضبا.. فذلك لا يكون إلا عند مخالفة لسنة رسول الله ﷺ.

والغضب حينئذ محسوب له.. لا عليه. لأنه غضب لله تعالى. وليس تصفية لحساب قديم. وبينما يخوض المغرور معركة خاسرة لحساب شهوته.. يتجاوز هؤلاء المخلصون تلك الصغائر.. راصدين أسلحتهم للمعركة الحقيقية من أجل الحق.. والتى لا تكون أشخاصهم طرفا فيها. ومن ثم تراهم يحترمون طلاب الحقيقة حيثما كانوا.. لأنهم معهم على الطريق.. وإذن.. فلا يأتون الغضب إلا قليلا.

* * *

من مأثورات عمر:

قال عمر بن عبد العزيز منوها بهذا الرعيل الذى لم يسبق بمثيل:

(أن السابقين عن علم.. وقفوا. وببصر ناقد.. كَفُّوا. وكانوا هم أقوى على البحث.. لو بحثوا. لقد عَدُّو كلامهم من عملهم.. فقلَّ كلامهم.

وانظر إلى أكابر الصحابة رضى الله عنهم وعلمائهم:

كأبى بكر. وعمر. وعلى. ومعاذ. وابن مسعود. وزيد بن ثابت.. كيف كان.. كلامهم أقل من كلام ابن عباسٍ. وهم أعلم منه.

وكذلك كلام التابعين: كلامهم كان أكثر من كلام الصحابة. والصحابة أعلم منهم.

وكذلك: تابعو التابعين: كلامهم أكثر من كلام التابعين. والتابعون أعلم منهم.

فليس العلم بكثرة الرواية ولا بكثرة المقال.

ولكنه نور يُقذفُ فى القلب. يَفْهم له العبد الحق. يَميز به بينه وبين الباطل.

ويعبر عن ذلك بعبارات وجيزة محصِّلةٍ للمقاصد.

وقد كان النبى ﷺ أوتى جوامع الكلم[١]. واختصر له الكلام اختصارا.

ولهذا ورد النهى عن كثرة الكلام والتوسع فى القيل والقال[٢].

وفى الترمذى وغيره عن عبد الله بن عمر مرفوعا:

إن الله لُيبغض البليغ من الرجال. الذى يتخلل بلسانه. كما تتخلل البقرة بلسانها)[٣].

ويعنى ذلك أن النبى ﷺ ومن تبعه بإحسان كانوا يتكلمون بما يحصُل به البلاغ دون تزيُّدٍ أو تكلف.

(وأما كثرة القول. وتشقيقُ الكلام. فإنه مذموم).

وأما قوله ﷺ: إن من البيان لسحرا.

فقد قال العلماء فيه: إنه فى ذم ذلك. لا مادحا له. كما ظن البعض ذلك. ثم رَوَوْا قصته عن ابن عمر[٤]:

عن ابن عمر قال: قدم رجلان من المشرق. خطيبان. على عهد رسول الله ﷺ فقاما فتكلما. ثم قعدا.

وقام ثابت بن قيس. خطيبُ رسول الله ﷺ فتكلم.

فعجب الناس من كلامهما. فقام رسول الله ﷺ يخطب. فقال: «يا أيها الناس: قولوا قولكم. فإنما تشقيق الكلام من الشيطان ثم قال رسول الله ﷺ «إن من البيان لسحرا» والرجلان: الزِّبرقانُ بنُ بدر وعُمَر بن الأهتم).

* * *

(١) المراسيل لأبى داود باب ما جاء فى العلم ص٩ عن أبى قلابة.

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح والجامع لابن عبد البر.

(٣) أبو داود فى الأدب ٧/ ٢٨٨ رقم ٤٨٤٠.

(٤) مختصر المنذرى ٧/ ٢٨٩.

ولم تكن مراكز العلم غنيمة تحتاز غيلة. ولا تحايلا أو تملقا.. ولم تكن كذلك معركة حربية شعارها: من عزّبزّ.. ومن غلب استلب. ولكنها كالعرائس لا تنال إلا بالمهر الغالى.

وكانت حياة العلماء مستمرة.. بمعنى أن كل واحد يأخذ موقعه مع زميله.. أو بعده.. فيكمل المسيرة.. ويضيف إلى خزانة العلم كسبا جديدا تسعد به الأمة.. ومن ثم.. فلم يكن هناك داع للتغاير المقيت..

وكان الاحترام المتبادل على سنة التواضع وهضم النفس. فاتسعت دائرة العلم.. وتعلمت الحياة منهم دروسا فى الأخلاق قبل أن تأخذ عنهم نصوص الحكم.

نماذج:

سئل أبو حنيفة عن علقمة ـ فقيه العراق ـ والأسود. أيهما أفضل فقال:

«والله ما نحن بأهلٍ أن نذكرهم. فكيف نُفضِّل بينهم».

وكان ابن المبارك إذا ذكر أخلاق من سلف يقول:

لا تَعْرِضنَّ لذكرنا فى ذكرهم.

ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد!

***

ولقد ابتليت الحياة (بمن رأى لنفسه فضلا على من تَقدَّمه فى المقال، وتشقيق الكلام. فظن لنفسه عليهم فضلا فى العلم والدرجة عند الله. لفضل خُصَّ به عمن سبقه، فاحتقر من تقدمه، وأزرى عليه بِقلةِ العلم.

ولا يعلم المسكين أن قلة كلام من سلف إنما كان ورعا وخشية لله تعالى، ولو أراد الكلام وإطالته، لما عجز عن ذلك، كما قال ابن عباس لقوم يتمارَوْن فى الدين:

«أما علمتم أن لله عباداً أسكتَتْهم خشية الله من غير عِيٍّ ولا بكَم، وأنهم لَهُمُ العلماء والفصحاء، والطلقاء النبلاء، العلماء بأيام الله.

غير أنهم إذا تذكروا عظمة الله تعالى طاشت لذلك عقولهم، وانكسرت قلوبهم، وانقطعت ألسنتهم، حتى إذا استاقوا من ذلك، تسارعوا إلى الله بالأعمال يعدون أنفسهم من المفرطين، وإنهم لأكياس أقوياء. . .، وإنهم لأبرار).

والفرق بينهما هو نفسه الفرق بين الحكيم والجاهل. .

وإذا كانوا يقولون:

إن العقول مواهب. . والعلوم مكاسب. .

وإذا كانوا يقولون أيضا:

إن اللسان الفاحش. . كالولد العاق. .

فإنك ترى النموذج الأول حكيم فى حواره. .

بمعنى أنه يناقش فى الرأى. .

وأما الثانى فجاهل: يجادل فى الحقائق. ويطلق لسانه ليخوض فيما ليس موضوعا للنقاش. .

وفى يده الهوى. . الذى هو مفتاح السيئات. .

بينما العاقل يظل حكيما لأنه يتهم نفسه. . ويحمى غيره من شره. .

وهو ذلك العالم الذى قيل فيه؟

عندما تبدأ معركة الإنسان مع نفسه. . فهو عندئذ رجل يستحق الذِكر!

وإذا كان من الصعب أحيانا اكتشاف الحق وسط جدل المتخاصمين. . فإن الحكيم لأنه مخلص. . يستعين بالله تعالى. . مستعيذا به من شر نفسه وشيطانه. .

فإذا تحرى الحق لا يمنعه منه مرضاة مخلوق

أو خوف جبار. .

إذا كان كذلك. . بصره الله بالحق. . وأجراه على لسانه فى الوقت الذى ترى فيه غريمه الذى لا يستهدف الحق:

إن الشيطان يرافقه. .ثم يخوص به فى الضلالة خوضا. . فتتراكم آثامه. .

ومن هذه الآثام أنك تراه هجاما يحاسب غريمه على الظنون. . ثم لا يعاتب نفسه على اليقين!

وأولئكم الذين أغلق عليهم باب التوفيق من ستة أشياء:

١ ـ اشتغالهم بالنعمة عن شكرها .

٢ ـ رغبتهم فى العلم وتركهم العمل.

٣ ـ المسارعة إلى الذنب وتأخير التوبة.

٤ ـ الاغترار بصحبة الصالحين . وترك الاقتداء بهم.

٥ ـ إدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها.

٦ ـ إقبال الآخرة عليهم. . وهم معرضون عنها! .

وصدق رسول الله ﷺ :

(البيان من الله، والعىّ من الشيطان، وليس البيان بكثرة الكلام، ولكن البيان الفصلُ فى الحق. وليس العِىُّ قلة الكلام، ولكن العَىَّ مَنْ سِفه الحق)[1].

وما أكثر النماذج الملتزمة بهديه ﷺ .

كتب «مالك» إلى الليث بن سعد يقول:

إنك تأكل الدقاق، وتلبس الرقاق، وتمشى فى الأسواق، فأجابه،الليث يقول الله عزوجل: **﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾**[2].

وهكذا يحترم الليث رأى صاحبه. .

ولكنه يكر عليه بما يجلى الحق عن طريق البرهان الساطع القاطع. . والعائد بالخصم فى النهاية إلى الحق. .بلا مهاترات. . كاشفا بذلك عن وجهة نظر الإسلام

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة.

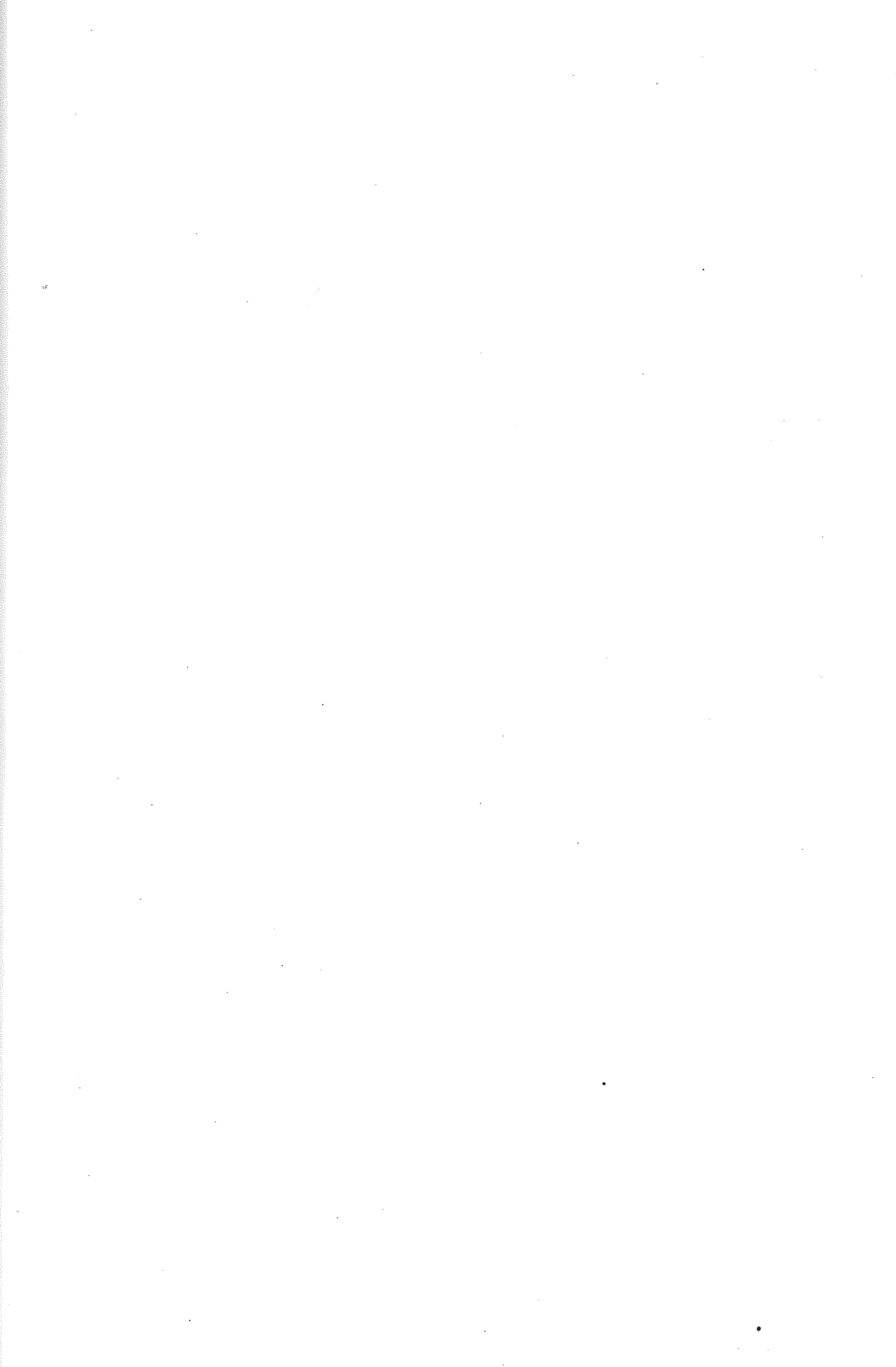
(٢) الأعراف: ٣٢.

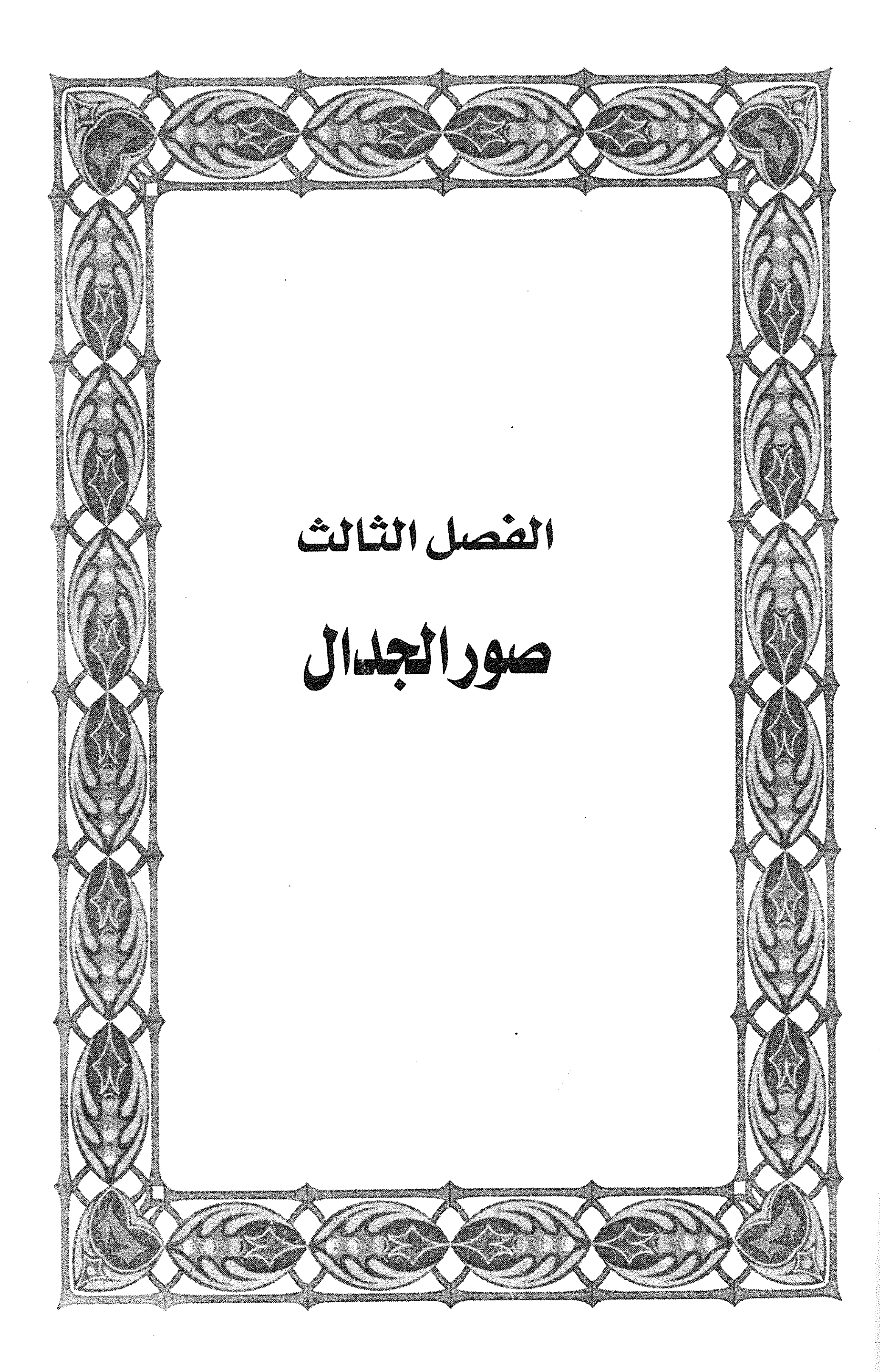
فى الاحتفاظ لكل ذى رأى بحقه فى إبداء رأيه.. شريطة أن يلتزم بالحق بعد ما تبين..

ولا دخل لسمعة العالم فى فرض رأيه بالقوة..

لأن القوة لا تنبع إلا من الحجة نفسها لامن نفس قائلها مهما كان مركزه..

ولا ينبغى أن نحتقر الرأى مهما كان مصدره، ولا أن ترد الفكرة. مهما كان صاحبها مغمورا: إن رثاثة هيئة الغواص فى البحر.. لا تحط أبداً من قدر اللؤلؤ والمَرْجان!!





الفصل الثالث

صور الجدال

يتراشقون.. ولكن بالزهور!

اختصم عثمان بن عفان وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهما. . قال أبو عبيدة. . أنا أفضل منك بثلاث. . فسأله عثمان. . وما هن؟

قال:

الأولى: إنى كنت يوم البيعة حاضرا . . وأنت غائب.

والثانية: شهدت بدرا . . ولم تشهده. .

والثالثة: كنت ممن ثبت يوم أحد، ولم تثبت أنت.

قال عثمان: أما يوم البيعة. . فإن رسول الله ﷺ بعثنى فى حاجة.

ومد يده عنى وقال:

هذه يد عثمان بن عفان. . وكانت يده خيرا من يدى. وأما يوم بدر فإن رسول الله ﷺ استخلفنى على المدينة. . ولم يمكنى مخالفته. . وكانت ابنته رقية مريضة فاشتغلت بخدمتها حتى ماتت ودفنتها. .

وأما انهزامى يوم أحد. . فإن الله عفا عنى. . وأضاف فعلى إلى الشيطان فقال تعالى:

﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور رحيم﴾(١).

إن التحدث بنعمة الله تعالى مبدأ قرآنى. . مأمور به أحيانا، على ما يقول سبحانه وتعالى: **﴿ وأما بنعمة ربك فحدث﴾**(٢).

ولكن المبدأ محكوم فى نفس الوقت بروح القرآن العامة الداعية إلى أن يكون التحدث كغيره من صور الأعمال والأقوال مراداً به الاعتراف بربوبية المنعم سبحانه. . ثم إشاعة النعمة لتظهر آثارها. . بعيداً عن الرياء وما يترتب عليه من غرور يفسد طعم النعمة حين يسير بالإنسان فى اتجاه معاكس لما خلقت له. . وهو المعنى الملحوظ فيما رواه صاحب الكشاف:

(عن عبد الله بن غالب أنه إذا أصبح يقول: رزقنى الله البارحة خيرا. . قرأت

---

(١) آل عمران : ١٥٥. (٢) الضحى.

كذا.. وصليت كذا: فإذا قيل له: يا أبا فراس.. مثلك يقول هذا؟..

قال: يقول الله تعالى: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث..﴾

وأنتم تقولون لاتحدث بنعمة الله)..

وفى هذا الإطار.. يتحدث أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه كاشفا عن تراحب هذه الشخصية الإسلامية التى لم يكن دورها فقط أن تجيد صناعة الموت فى ساحة النضال. بيد أنها كانت بالإيمان تملك ثروة من الأدب العالى ما زالت الإنسانية فى حاجة إليها ليستقيم خطوها على أسس من هذه المبادئ.. فإذا ما رحنا نستلهم هذه المبادئ طالعنا عجبا:

لقد كان الصحابة يختصمون.. إنهم ناس من البشر.. اختلفت منازعهم.. فاختلفت زوايا الرؤية.. لكن خلافهم لم يكن حول دنيا تصاب أو امرأة تنكح.. إنه خلاف لا يفسد للوذ قضية: يستهدف دائما نصره الحق فوق كل اعتبار.. وتتوارى فيه ذات الإنسان فلا تدخل فى دائرة الجدال ليكون البحث جاداً عن الصواب فى كل موضوع.. وعلى هذا النحو، لا مجال للانفعال الذى يحجب دلائل الحق ـ وما دامت ذات الخصم لادخل لها فى حلبة الصراع، فالتجريح غير وارد أبدا.. ولا داعى لأن يستفز أبو عبيدة عثمان فيقول له مثلا كنت ممن ثبت.. وكنت ممن هرب.. ولا بأس أن يعترف عثمان بالهزيمة صراحة وهو اللفظ الذى تحاشاه أبو عبيدة.. ذلك بأن المناظرة تدار لحساب الحق هنا.. وتجاوز الاستفزاز أعون على ظهور الصواب.. ويستفلت النظر بادئ ذى بدء أن دعوى التفضيل تواجه رجلا كعثمان.. وهو زوج بنت رسول الله.. وإذن: فتقرير الحقائق أكبر من كل منصب.. وأقوى من كل سلطة. وإن صهر رسول الله كغيره من الصحاب.. يجوز فى حقه النقد. بل يجب ذلك إذا كان سبيلاً إلى تمحيص النفوس وشخذ همتها وبعث عزيمتها لتتلخص من عيوبها وصولا إلى الكمال.. وشيوع خبر المناظرة هكذا يؤكد استقرار هذا الأمر فى ضمير الأمة.. وصار فى علاقاتها شرعة ومنهاجا. وحتى يحقق النقد ثمرته المرجوة لا يدعى أبو عبيدة الفضل على عثمان مطلقا ودائماً.. لكنه يحدد نقاط التفاضل فى ثلاث.. يرى نفسه أرجح فيها ومعنى ذلك بداهة أن ما سواها من أمور قد يسبقه فيها عثمان.. وحلبة الصراع واسعة ومجالاتها متعددة.

وكما يقولون قد يكون فى المفضول ما ليس فى الفاضل. ولقد تصورت مدى

الشجار الذى يمكن أن يقع بين اثنين فى حياتنا اليوم.. حين يدعى أحدهما تفوقا على زميله. وقد تنداح دائرة الصراع بسبب من غرور الفاضل حين يستحوذ فى ظنه على الفضل كله وفى أسلوب يثير الغبار لتصبح المعركة بين فرد وفرد.. لا بين فكرة وفكرة وحينئذ فسوف تنتهى حتما بهزيمة الفريقين. لكن أبا عبيدة كان يعلم الحياة درسا فى أدب المناظرة ولا يساويه إلا أدب عثمان فى حسن التلقى حين يسأل فى أدب واسترشاد عن هذه الأمور قائلا.. وما هن؟.. لم يقل له: ومن أنت حتى تنقذنى ولا تعرف من أنا حتى تتجرأ على؟ ولم يستخفه الغضب وحب الذات إلى ثورة يكيل فيها الصاع لأخيه صاعين.. فما به من حاجة إلى ذلك بل ربما هش لما سمعه من زميله.. لأنه فى تقديره يعينه على معرفة عيوبه فى محاولة للتخلص منها حتى يكون مع أبى عبيدة فى الفضل سواء.. وفوت الاثنان على الشيطان فرصته فلم يستطع أن يضرب ضربته وربما صارت مآخذ عثمان - بالغضب - أربعة لا ثلاثة:

وربما أيضا أضاع أبو عبيدة بالزهو.. فضائله الثلاث. وإذن: فلم يكن أدب عثمان فى تلقيه.. أقل من أدب أبى عبيدة فى دعواه.. وكان أدبهما معا سبيلا إلى الحق فى موضوع النزاع.

ولقد كان لأبى عبيدة موقف خطير فى غزوة بدر.. حين تصدى لأبيه فقتله وكان الظن.. بمنطق المزايدات أن يذكر هذا الموقف على رأس القائمة وهو يعدد فضائله.. بيد أنه لم يفعل وجعل من مجرد شهوده بدرا كمبدأ موضوعا للتفاضل.. وهو الأمر الذى كان فى مقدور عثمان أن يفعله.. أما ما يحققه المجاهد من تفوق فى المعركة.. فقد يعود إلى ظروف خاصة تتاح لفرد.. ولا تتوافر لآخر.. ولم يكن مفروضا على عثمان أن يكون له والد مشرك ليقتله؟!

وإذا كان من المقرر.. إذا أردت أن تطاع فكلف بما يستطاع فكذلك فى مجال النزاع.. فليكن التفاضل فيما يدخل فى إطار الإمكان بالقدر المتاح للطرفين.. والقضية هى أن رجلا يتحدث بنعمة الله عليه.. وهى كلها أمور حققت الدعوة من ورائها خيرا.. أما الحديث عن الأمجاد الشخصية فلا مكان له فى قلوب كبيرة تحارب وتسالم ابتغاء مرضاة الله تعالى.

وإذا كان عمر رضى الله عنه يقول: رحم الله امرءا أهدى إلى عيوبى فلم يكن موقف عثمان شيئا غير هذا وها هو ذا يدافع عن نفسه فى أدب جم.. فيقرر أنه لم يكن يوم البيعة حاضراً.. لأنه كلف من قبل الرسول «بمهمة» رسمية.. وإذا

كان قد فاته شرف الحضور فما فاته شرف نيابة الرسول . .عنه على نحو جعل له وجودا ساعة البيعة . .وإن كان غائبا. وأبو عبيدة يعلم. ويجب أن يعلم كل مسلم أن يحقيق النصر لا يرد فقط إلى كل يد تحمل السلاح . . بل إن كل جهد مبذول محسوب للإنسان وإن بدا ضئيلا، يقول الحق سبحانه:

﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1].

وكذلك كان عثمان رضى الله عنه لقد«قطع واديا» فى سبيل الله . . فهو مشمول بالآية الكريمة وإذا بدا هذا العمل صغيرا فى أعين البعض . . فإن الآية الكريمة ترد الحق إلى نصابه حين تقدم النفقة الصغيرة على الكبيرة**﴿ وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً ﴾**.

إن جسام الأمور يتحملها جمهور الناس . .ولو أنك واجهتهم بالأدوار المعقدة للوهلة الأولى . .لخارت قواهم وضاعت فى الزحام، أما النفقة الصغيرة . . أما الأدوار الميسرة ولو كان الدور سفراً قاصداً . . ولو كان تبرعاً يسيراً فذلك فى متناول الجميع . .على نحو يجعل معنى الجهاد شاملا متراحبا . . يضم كل الناس . . فإذا الجهد اليسير مضموم إلى مثله يصير عملا كبيراً يصلح الله به الأمة . . ويحقق به النصر المأمول. وفوق ذلك . .

فقد أتحنا الفرصة أمام الأعمى . . والمريض . . والأعرج لينضووا تحت علم الجهاد فى ظل هذا اليسر الذى امتاز به الإسلام . . الذى أتاح الفرصة لمثل هؤلاء أن يكونوا حتى بالكلمة الطيبة . . بالدعوة الخالصة شركاء فى تحقيق الأمل على أن يكون ذلك تفسيرا لتخلف عثمان فى بدر: لقد تخلف عثمان بالمدينة طاعة لرسول الله . . تماما كما كان قتال أبى عبيدة طاعة لرسول الله . . ففيم التفاضل إذن؟ . .

وإذا كان أبو عبيدة قد انتصر على المشركين . . فأكد بذلك معنى البطولة فى الإسلام فإن عثمان حين دفن زوجته بيده أكد معنى الوفاء فى الإسلام أيضاً.

---

(١) التوبة: ١٢٠، ١٢١.

وما أحوج الجماعة إلى ما فى البطولة من قوة يغيظ الله بها الكفار: وما فى الوفاء من قوة يحفظ الله بها الأسرة أن تزول. .ثم يتألق عثمان فى قمة شجاعته الأدبية. . حين يعترف بالهزيمة صراحة. .ولا يغلفها بمعسول الكلام. .

« أما انهزامى يوم أحد. . فقد عفا الله عنى».

لقد سمى الموقف باسمه الحقيقى. . هزيمة. .ولم يقل. . كانت نكسة إنه صادق مع نفسه. . مع الواقع الذى يعايشه وما حدث فى ذلك اليوم لابد أن يكيف التكييف السليم.

إنه أولا: فعل الشيطان الذى سول لبعض المسلمين فانكبوا على الغنائم مخالفين بذلك أمر الرسول.

وثانيا: لقد عفا الله عن المسلمين المنهزمين وأنا منهم. . وتبقى بعد ذلك حاجة المسلمين متجددة إلى مثل هذا الحوار المبارك والذى تواجه فيه الفكرة الفكرة. . ويشتبك فيه الرأى مع الرأى اشتباكا يسفر فى النهاية عن انتصار الحق المجرد. . وتتوارى بالحجاب حظوظ النفس وتطلعاتها: وآمال الإنسان فى التفوق على زميله ولو على حساب الحق. . الذى يجب أن يكون الولاء له وحده والولاء له. . دائماً.

* * *

ابن مسعود.. والاختيار الصعب :

عن مسروق قال:

جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت:

بلغنى أنك تنهى عن الواشمة والواصلة، أشئ وجدته فى كتاب الله، أو عن رسول الله ﷺ ؟قال:

بل شئ وجدته فى كتاب الله تعالى. . وعن رسول الله ﷺ .

قالت: والله لقد تصفحَّتُ ما بين دفتى المصحف فما وجدت الذى تقول قال: فما وجدت فيه : ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾؟[1].

قالت بلى .

---

(١) الحشر: ٧.

قال: فإنى سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن الواصلة (١) والواشمة والنامصة(٢): قالت فلعله فى بعض أهلك؟! قال: ادخلى فانظرى، فدخلت فَنَظَرتْ، ثم خرجت.

فقالت:

ما رأيت شيئا.

فقال لها:

أما حفظت وصية العبد الصالح:

(وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه)(٣).

إن للمرأة هنا صلةً بالقرآن الكريم.

وحين تطرح على بساط البحث قضية من قضايا الأمة.. تتقدم لتُدلى بدلوها بين الرجال، ولم يمنعها الحياء من طلب العلم. ومجادلة الرجال، وصولا إلى الحق.

ثم لا تصدر فى آرائها عن هواها، ولكنها تصدر عن آيات القرآن الكريم الذى ابْتَغَتْه حكما فى موضوع النزاع.

لكن مشكلتها أنها «تصفحت» القرآن ولم تتدبره على نحو يكشف لها عن وجه الصواب. ومجرد حفظ القرآن الكريم.. أو تصفحه.. دون تدبره لا يكفى.. فاللؤلؤ والمرجان.. هناك فى الأعماق.. ولا يستخرجه إلا الغواص الماهر.

وليست هذه القراءة المتعجلة مشكلة المرأة وحدها.. ولكنها مشكلة جماهير غفيرة وقفت بها طاقاتها عند القشرة البادية.. ومن ثم.. كثر الخلاف.. وتعددت وجهات النظر.. بسبب غياب الرؤية الكاشفة المستبصرة.

* * *

وإزاء هذه الظاهرة.. لابد أن يكون على الجانب الآخر صدور وسعة رحبة..

---

(١) الواصلة التى تصل شعراً بشعر زوراً وكذباً. (٢) والنامصة: التى تَنْتف الشعر من وجهها.

(٣) هود: ٨٨.

ترحب بالرأى الآخر.. ولا تضيق به ذرعا.. وكذلك كان ابن مسعود رضى الله عنه.

فقد وجد نفسه أمام امرأة راغبة فى العلم.. بدليل أنها لم تُشنِّع عليه لما خطأ.. فى زعمها. لكنها جاءته تسعى مستوضحة.. ثم هى مشغولة بقضايا الدين.. لا بمظاهر «الموضة» مثلا.. فكان منه ذلك الإرشاد الهين اللين إلى الآية التى تُثبت صحة ما ذهب إليه.

* * *

ولما كانت المرأة مدفوعة بالشوق إلى معرفة الحق.. فقد سلَّمت به لما ظهر على لسان الرجل.

وقد نجح ابن مسعود رضى الله عنه فى الاختبار النظرى.. وبقى عليه أن يثبت جدارته بالنجاح فى الاختبار العملى:

فقد توقعت المرأة أن يكون فى بيت ابن مسعود بعضُ ما ينْهى عنه.. فتطلعت نفسها إلى برد اليقين، لتَسْلم القضية من كل شك..

وهنا يتذرع الداعية بالصبر الجميل.. حتى يتجاوز أخطر مرحلة فى حياة الداعية.

وكان من الممكن أن يعلنها حربا شعواء على المرأة التى تُعرِّض به وبأهله..

لكن إعلان الحرب هنا قضاء على فرص التفاهم. وقطع للطريق أمام نفس مؤمنة تبحث عن الحقيقة من مظانها.. وواجبنا أن نفسح لها الطريق .

* * *

وللصبر فى مثل هذا الموطن أهميته.

إن الصبر القليل.. يصل بنا إلى الراحة الطويلة.

وهو معنى قول ابن المبارك:

« من صبر فما أقل ما يصبر. ومن جَزِع فما أقل ما يتمتع» .

ولو أن ابن مسعود استغل ظهور الحق على يديه فى التشهير بالمرأة وجهلها. .لحقق بذلك متعة ولا شك. ولكنها الرغوة العائمة التى لا تلبث أن تنطفئ. . ثم لا يضيف الحوار جديدا.

ولقد اختار الصبر. .وما فيه من متعة دائمة. . تقف به فى الموقع الأفضل. . وأتاح للمرأة ذاتِها. .ولغيرها من طلاب العلم أن يتقدموا إليه سائلين. .بل متهمين. .وهو هو. . المنبع الرائق الذى لا يعكر صفوه الدلاء.

* * *

وتأمل سعادته الغامرة ، عندما تذرع بالصبر الجميل وسَمَح للمرأة أن تدخل بيته فعلا لترى ما فيه من عيوب مظنونة. . وكانت النتيجة شهادة تقدير للرجل يُتوّجها فى النهاية بهذا الدرس البليغ حين ذكرها بقوله تعالى:

﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه. .﴾

وهكذا تبدو. .وعلى أرض الواقع. . صورة المجادل بالتى هى أحسن. . وكيف استطاع أن يلقن المرأة درسا فى حسن التعامل مع آى القرآن. .هذا الكتاب الكريم الذى لا يعطى أسراره إلا لمن وهبه كل مداركه. . وقد أعطاه ابن مسعود رضى الله كل مداركه فأعطاه القرآن أسراره.



حتى لا تسقط فى هوة الغرور :

تنبأ ﷺ بأقوام مغرورين يزعمون الدين: مجرد أحكام فقهية. أو قراءة للقرآن. وحفظا له دون العمل به.

عن ابن عباس رضى الله عنهما. عن رسول ﷺ . أنه قام ليلة بمكة من الليل.

فقال: اللهم بلغت. (ثلاث مرات).

فقام عمر بن الخطاب. وكان أوَّاها . فقال:

اللهم نَعَمْ. . وَحرَّضت. . وجَهِدت. . ونَصحت.

فقال ﷺ :

لَيَظْهرنَّ الإيمان حتى يَرُدَّ الكفرَ إلى مواطنة. ولَتخَاضَنَّ البحارُ بالإسلام، وليأتين على الناس زمان. يتعلمون فيه القرآن:

يتعلمونه. يقرأونه. ثم يقولون: قد قرأنا وعَلَّمْنا. فمن الذى هو خير منا؟

فهل فى أولئك خير؟

قالوا: يا رسول الله. . من أولئك؟ قال: أولئك منكم. أولئك هم وقود النار»[1].

* * *

يشير الحديث الشريف إلى أن المستقبل لهذا الدين الذى سوف يُظهره الله تعالى على الدين كله.

وإذا توقف زحفه يوما. . فبسبب من الغرور الذى سوف يستبد ببعض السطحيين من المنتسبين إليه. . والذين اكْتَفَوْا بالآيات يقرأونها. .

زاعمين أنهم وصلوا القمة بمجرد تلاوة القرآن الكريم. . بينما ظهور الإسلام

---

(١) رواه الطبرانى، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب.

على الدين كله يطالبهم بتطبيق مضمون هذه الآيات لتصير عملا دءوبا.

وإلا.. فسوف يبتلعهم اليم.. وسوف تَدَاعى عليهم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها.

* * *

والحديث الشريف بهذا المعنى تحذير من مثل هذا الغرور الواقف بالهمم عند السفح.. بينما يتقاضانا الإسلام أن نكون صقورا تحلق فى الأجواء العالية.

وقد وَعَى تاريخنُا الإسلامى هذه الدروس.. وتصدى الفكر الإسلامى لمثل هذه النزعات تصويبا وتسديدا:

قال محمد بن عطية العطوى الشاعر: كنت يوما فى مجلس القاضى يحيى بن أكثم فجاء إليه المغنى المعروف إسحاق بن إبراهيم الموصلى، فأخذ يناظر أهل الكلام حتى انتصف منهم، ثم تكلم فى الفقه فأحسن، وقاس واحتج، وتكلم فى الشعر واللغة ففاق مَنْ حضر.

وبعد أن انتهى من مناظرته أقبل على القاضى يحيى فقال له: أَعزَّك الله. أَفِى شىء مما ناظرت فيه نقصٌ أو مطعن؟

قال القاضى يحيى: لا.

قال الموصلى: فما بالى أقوم بسائر هذه العلوم قيام أهلها، وأنسب إلى فنٍّ واحد قد اقتصر الناس عليه يعنى الغناء؟

قال العطوى: فالتفت إلىَّ القاضى يحيى وقال الجواب فى هذا عليك، وكان العطوى من أهل الجدل.

فقال: للِقاضى يحيى: نعم أعز الله القاضى، الجواب علىّ.

ثم أقبل على إسحاق بن إبراهيم الموصلى فقال له: أبا محمد أنت كالفَرَّاء والأخفش فى النحو؟

قال: لا

قال: فانت فى اللغة ومعرفة الشعر كالأصمعى وابن عبيدة؟

قال: لا.

قال: فانت فى علم الكلام كأبى الهذيل العلاف والنظام البلخى؟

قال: لا.

قال: فانت فى قول الشعر كأبى العتاهية وأبى نواس؟

قال: لا.

قال: فمِنْ ههنا نسبتَ إلى ما نسبت إليه؛ لأنه لا نظير لك فيه. وأنت فى غيره دون رؤساء أهله. فضحك. وقام. وانصرف[1].

***

إن إسحاق الموصلى فنان متعدد المواهب

وعندما نازل الفقهاء والأدباء وعلماء الكلام.. تبين أنه شاطر فى الحوار جدير بالانتصار فى أكثر من ميدان. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

لكن الخطر الذى يتهدد هذه النعمة الكبرى.. ما كان من غروره.. وإعجابه بنفسه.

وكان لابد من وضع حد لهذا الغرور.. وتغيير مسير الرجل قبل أن يهلكهُ غروره. وانتدب لهذه المهمة من يقدر عليها وهو:

محمد العطوى.. والذى أثبت فعلا جدارته. بإدارة مثل هذه المعركة.. حين كشف للفتى عن القمم العليا فى كل فن..

وإن انتصاره يوما فى معارك الجدل لا يعنى أنه حاز قصب السبق.. وإنما هناك من هو أعلم منه، وفوق كل ذى علم عليم.

ولقد كان الموصلى عند حسن الظن به.. حين اعترف بالحق. وعاد إليه

---

(١) مواسم الأدب وآثار العجم والعرب [يذكرنا إقحام الموصلى نفسه فى زمرة العلماء ما نحفظ من قوانين الحوار وهو: إذا ناظرت على أساس من ثمرة الفقهاء فلا تلجأ إلى عرف آخرين كعلماء النحو مثلا.

مقتنعا. بعدما شاهد من فُرسان الحلبة وأفذاذِها..

ثم عاد قانعا بما تفوَّق فيه وهو: الغناء!

عاد بدرس فى أدب الانتماء.. ثم الالتزام بالحق بعدما تبين.

* * *

يستخرجون الشوكة بالشوكة:

روى مسلم عن إبراهيم التيمى عن أبيه. قال: كنا عند حذيفة فقال رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه. وأبليت فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟! لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب: وأخذتنا ريح شديدة وقر. فقال رسول الله ﷺ: ألا رجل يأتينى بخبر القوم. جعله الله معى يوم القيامة. فسكتنا. فلم يجبه منا أحد.

ثم قال مثل ذلك.. فسكتنا ثم قال مثل ذلك فسكتنا فلم يجبه منا أحد فقال: قم يا حذيفة. فأتنا بخبر القوم. فلم أجد بدًّا إذ دعانى باسمى أن أقوم. قال: اذهب فأتنى بخبر القوم ولا تذعرهم على - لا تحركهم تفزعهم - فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشى فى حمام حتى أتيتهم فرأيت أبا سفيان يصلى ظهره بالنار. فوضعت سهما فى كبد القوس.

فأردت أن أرميه. فذكرت قول رسول الله ﷺ: «لاتذعرهم على» ولو رميته لأصبته.

فرجعت وأنا أمشى فى مثل الحمام. فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغت. قررت. فألبسنى رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه - يصلى فيها، فلم أزل نائما حتى أصبحت. فلما أصبحت قال: قم يانومان!!.

* * *

تمهيد:

فى فترة المراهقة يكون النمو الجسدى أسرع من النمو العقلى والوجدانى.

وحين يحس الفتى بأنه وصل إلى المرحلة التى يحمل فيها بعض سمات الرجال.. يتصور نفسه وقد أصبح رجلا بالفعل.. ومن ثم يتطلع إلى حقوقه لدى المجتمع خارج سور الأسرة.. متخطيا مراحل النمو فى محاولة للوصول قبل الأوان إلى عالم الناضجين.. وهنا تحدث معركة صامته بين الرجولة المبكرة.. المحبوسة فى قمقم.. وبين الرجولة الحقة.. حين يحاكى المراهق الكبار.. فى محاولة للزج بنفسه فى زمرتهم.. بل إنه قد يرفض بعض القيم السائدة زاعماً أن لديه ما هو أرشد منها وأولى بالاتباع.. وتحدث الفجوة بين جيلين:

الأمر الذى يتطلب ملء الفجوة بالتدخل الحكيم ليتخلى المراهق عما لا يمكن تحقيقه من أحلام قبل أن يصبح ذلك الصبى الغرير الذى يمد يده ليمسك بالقمر!.. فإذا نجحت التربية الإسلامية فى العودة به ليمشى على الأرض بشراً سويا.. تكون المصالحة قد تمت بين الجيلين.. ويكون الأمر على ما يقول العقاد: «إذا ضمن الشرق الشباب والمستقبل.. فقد ضمن كل شئ وهانت عليه خسارة الحاضر وإن كانت جسيمة».

إن الخوض فى أعماق المراهق رحلة صعبة.. ذلك بأنه لقربه من عهد الطفولة قد يحن إلى بعض مظاهرها.. لكنه فى انطلاقه إلى الأمام قد يتجاوز حدوده.. فإذا نحن زاملناه.. وأرشدناه.. ليرضى عن نفسه.. فمعنى ذلك رضاه عن الآخرين، ومعنى ذلك أيضا: تواصل الأجيال.. لتمضى نحو المستقبل.. متساندة لا متعاندة.

وفى حديث اليوم نموذج لشاب مسلم قفذت به أحلامه الطائرة فوق رؤوس الرعيل الأول، ثم كان للصحابة ذلك التوجيه الذى هو درس اليوم: فما قال الرجل.. وبماذا أجيب؟

ونتساءل أولا عن معنى ما تمناه ذلك الرجل:

إنه يقرر بثقة أنه لو كان عايش الرسول وقاتل مع الرسول لأبلى فى القتال

بلاء غير مسبوق. . ولأرى النبى من شجاعته ما تقر به عينه . .

ورأى حذيفة رضى الله عنه فى منطقه اعتدادا بالنفس يوشك أن يكون غروراً يظلم به الآخرين، فأراد أن يلقنه درساً عن طريق هذا الموقف الصعب فى غزوة الخندق، ليعرف إلى أى حد كان جهاد الصحابة مريراً.

وكيف كانت المواقف التى واجهوها بالغة حدا يتهيبه الأشداء من الرجال . . وقد أودع ذلك كله سؤاله الإنكارى؟ أنت كنت تفعل ذلك؟ ثم ضرب له غزوة الخندق مثلا كاشفا عن خطورة ما لاقى الصحابة من أهوال. غابت عن ذهن ذلك الفتى فكانت هذه الأمنية الطائرة!

معنى الجواب:

لا يحجز الإسلام على دوافع الطموح أن تشق طريقها فى كيان الفتى راغبة فى الإشباع. ولكنه يحاول ضبط النوازع حتى تختمر وتزكو. . وتصلح للإثمار. . فرارا من الطفرة التى تتجاهل مصاعب الطريق وتكاليف النجاح. . والتى تغرها الفتوة المتوثبة. . والأحلام المجنحة. . فلتكن أيها الشباب موجة عالية كالجبل. . ولكن لا تنس أن أصلك الماء!(إن الشجرة من البذرة. . والثمرة خاتمة المطاف ومهما كان إغراء الخاتمة ملحا يخلب الألباب ، فلا ينبغى أن تسقط البذرة من الحساب).

لسان الحال:

والطبيعة من حولنا تنطق بهذا المعنى. . لقد استنطقها الفكر الإسلامى الصائب. . ليعالج فى دنيا الشباب ـ بخاصة ـ تلك النزعة المتعجلة التى لم تستوعب بعد مشكلات المستقبل. . وغاب عنها فى فورة الإحساس بالذات ما يملك الآباء من خبرة لابد منها كقاعدة للانطلاق: إن شجرة الصنوبر تثمر فى ثلاثين سنة. . وشجرة الدباء تصعد فى أسبوعين: فتقول للصنوبر: إن الطريق التى تقطعينها فى ثلاثين سنة. . قطعتها فى أسبوعين ويقال لى شجرة. . ولك شجرة!

قالت لها الصنوبر: مهلا.. حتى تهب رياح الخريف.. فإن ثبت تم فخرك!

ومن مملكة النبات. . إلى مملكة الحيوان:

فعندما نظر الذئب إلى خياله المديد لحظة الغروب ظن أنه شيء كبير قادر على مواجهة الأسد. وهيهات فالفرق هائل:

فما حظى الدينار بنقش اسم الملك فيه حتى صبرت سبيكته على الترداد إلى النار. فنفت عنها الخبث. ثم صبرت على ضربها على السكة. فحينئذ يظهر عليها رقم النقش!

* * *

لسان المقال:

وفى موقف آخر.. يتصدى العارفون لمثل هذه النزعة توجيها وتسديدا. ليشغل الشباب نفسه بواقعه الذى ينبغى أن يكون شغله الشاغل. صارفا نظره عن ماض شاء الله ألا يعيشه رحمة به وإشفاقا عليه:

كان المقداد بن عمرو. رضى الله عنه من أصحاب رسول الله ﷺ السابقين، وقد شهد بدرا وأحدا. والمشاهد كلها مع النبى ﷺ.

وكان فارس المسلمين الوحيد يوم بدر. لقول على رضى الله عنه: «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد».

وروى عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال:

جلسنا إلى المقداد يوما. فمر به رجل فقال:

طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ.

والله لوددنا أنا رأينا ما رأيت. وشهدنا ما شهدت. فاستمعت فجعلت أعجب ما قال إلا خيرا.

ثم أقبل عليه ما يحمل أحدكم على أن يتمنى محضرا غيبه الله عزوجل؟ لا يدرى لو شهده كيف كان يكون فيه؟!

والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام كبهم الله عزوجل على مناخرهم فى جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه. أولا تحمدن الله إذ أخرجكم الله عزوجل لا تعرفون إلا ربكم. مصدقين بما جاء به نبيكم عليه السلام وقد كفيتم البلاء بغيركم؟

والله لقد بعث النبى ﷺ على أشد حال بعث عليه نبى من الأنبياء. فى فترة وجاهلية. ما يرون دينا أفضل من عبادة الأوثان.

فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل. وفرق بين الوالد وولده حتى أن الرجل ليرى والده أو ولده أو أخاه كافرا وقد فتح الله تعالى قفل قلبه للإيمان ليعلم أنه قد هلك من دخل النار. فلا تقر عينه وهو يعلم أن حميمه فى النار وأنها التى قال الله عزوجل: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ (١).

***

دروس من الخندق:

إن الجيل الصاعد من الشباب يجد له مكانا فى مجالس الأشياخ من الجيل القديم ولا يجلسون كما يقول كاتب أوروبى« أنه كان يجلس بين يدى أبيه كقطعة من الخشب»!.. وإنما يبدون الرأى.. الذى يفسح له الآباء الطريق.. ولكن تحت إشرافهم.. حتى إذا أوشك الرأى أن يشتط كانت مبادرة التصحيح.. بلا تجريح!

***

لماذا الخندق بالذات:

وقد اختار حذيفة رضى الله عنه غزوة الخندق بالذات لما كان فيها من أهوال لا يثبت فيها إلا الرجال.. فلقد كانت ليلة ليلاء:

---

(١) الفرقان: ٧٤.

- لقد كانت الرياح شديدة تكاد لقوة اندفاعها أن «تأخذهم» بعيدا وهم لا يستطيعون الانفلات من قبضتها.

- وكانت درجة الحرارة عند الصفر.. تكاد الدماء من البرد أو «القر» أن تتجمد فى العروق..

- فإذا أضيف الظلام إلى الموقف تكشف بعد آخر من إبعاد الموقف العصيب..

- وإلى جانب ذلك كله تتنادى القوى العدوانية بالويل والثبور..

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ (١).

* * *

البحث عن الفارس:

فى هذا الجو العصيب تبدو الحاجة إلى معرفة قوات العدو.. ورصد حركته.. وصولا إلى تقرير واف يكون منطلقا للزحف.. وهو الدور الذى يبحث عن فارس متميز يحكم أداءه بدقة وحذر..

ومن أجل ذلك لا يفرض ﷺ الدور الصعب.. وإنما يعرضه.. ليتقدم المجاهد الذى يستأنس من نفسه سلامة الأداء.

القائد يستنهض الهمم:

حرض ﷺ عزائم الصحابة.. بحثا عن فدائى يقوم بهذا الدور:

(أ) إنه يعرض برفق.. ليثير رجولة الرجال. حتى تقول كلمتها فى موقف لا ينهض بتبعاته إلا الرجال.. «ألا رجل»؟؟.

---

(١) الأحزاب: ١٠/ ١١.

(ب) ثم هو يعد من ينهض بأن يكون مع الرسول يوم القيامة جزاء كريما تشرئب إليه الأعناق.

(جـ) ويكرر ﷺ العرض ثلاث مرات.. فلا يسمع جوابا من صحابة يستشعرون ضخامة المسئولية.

***

تكليف حذيفة:

ويختار رسول الله ﷺ حذيفة رضى الله عنه لينفذ ما أمر به الرسول..ولا يقال حينئذ: إن الرسول قد فرض الدور فرضا.. فهو عليه الصلاة والسلام يعرف أصحابه..بكل ما لهم من ميول وملكات ومواهب..

ويعرف أيضا أن الإنسان قد يستهين بقدرته على إنجاز عمل ما.. وهو فى حاجة إلى القائد الملهم الذى يكتشف مواهبه. وكذلك فعل الرسول حين اختار حذيفة بالذات.

ألم يتخير رسول الله حذيفة بالذات ليخصه بمعرفة أعيان المنافقين.. فكان يعرفهم وحده دون بقية الصحابة جميعا؟

ولقد عبر حذيفة عن صعوبة المهمة بقوله:

« فلم أجد بدا إذ دعانى باسمى أن أقوم»!!

***

المهمة الصعبة:

لم تكن مهمة حذيفة فقط أن يأتى الرسول بخبر الأعداء..وإذا كان ذلك مهما فاهم منه أن يكون على حذر خوفا من النكسة.

ولعل هذا سر الأسرار فى اختيار حذيفة بالذات.. وإلا فما أكثر المتحمسين من الصحابة الراغبين فى الانطلاق. .لكن نصبيهم من التروى ضئيل قد لا يصل بهم إلى ما يريدون. .من أجل ذلك يوصيه ﷺ: (لا تذعرهم على) أى لا تحركهم.. ولا تشعرهم بوجودك حتى لا نخوض معركة لم يحن أوانها بعد.

حذيفة يندمج فى الدور:

مضى حذيفة رضى الله عنه فى هذا البرد الشديد وكأنما كان يمشى فى حمام دافئ.. لقد اندمج فى الدور.. ونسى الصقيع الذى يلفح وجهه، ويقيد حركته.. ولم يكن فى وعيه إلا أن يكون عند حسن ظن الرسول ﷺ.

فلما رأى أبا سفيان يستدفئ بالنار وهم بإطلاق سهمه القاتل عليه.. رد موجة الحماس إلى أعماقه حين ذكر وصية الرسول بأن يكون حكيما ولا يشعرهم به!

وأنجز حذيفة رضى الله عنه مهمته.. ثم عاد أيضا فيما يشبه الحمام الدافئ فلما أخبر الرسول بخبر القوم.. عاد إليه إحساسه بالبرد وذلك قوله:

«فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم. وفرغت قررت».

***

القائد الإنسان

ويرى القائد الأعلى رجله القادم من رحلة الموت مقرورا. .فيسرع ليلقى عليه فضل عباءته.. بيد حانية. .من ورائها قلب إنسان يقدر رجاله قدرهم. .وتكاد أن تسمع وجيب ذلك القلب شفقة عليهم. .وليس هو القائد المتربع على كرسيه العالى يرسل أوامره لتطاع طاعة عمياء صماء..

إنما هو موصول القلب بهم. .فإذا مسهم الإعياء من دقة الأداء فرض لهم نصيبهم من الراحة. .حفاظا على طاقات هى أغلى من الذهب..

وأقوى من السلاح . . فإذا أخذ الجندى حذيفة نصيبه من النوم العميق أيقظه القائد الإنسان بنفس اليد الحانية والقلب الشفيق . . و . . ليصحو الراقد . . فيجد البسمة تترقرق على وجهه كأنه مذهبه . . وعلى لسانه تلك الدعابة الجميلة المنعشة :

قسم يانومان:

أما بعد: فما أجمل أن يفتح الشباب صدورهم للحكمة الهادية بدل أن يمشوا على الأشواك بأقدام عارية!

وإذا كان من حقهم التعبير عن غضبهم النبيل ولاء الحق . . فلا ينبغى أن يكون ذلك على حساب شيبة شابت فى الإسلام ، لها بلاؤها . . ولها قدرها . . أجل . لا ينبغى أن يستخرجوا الشوكة . . بالشوكة!!

* * *

عندما نحقق باللين ما لا نحققه بالشدة :

كان مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة يدعوان الناس إلى الله تعالى فى المدينة المنورة قبل الهجرة.

وتعرض لهما «أُسيد بن حضير». وكان سيد قومه قائلا:

ما جاء بكما إلى حيِّنا، تُسفِّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إذا كنتما لا تريدان الخروج من الحياة« أى إن كنتما حريصين على الحياة».

فقال له مصعب رضى الله عنه:

أولا تجلسُ فتسمع؟ فإن رضيت أمرنا قبلته. وإن كرهته كففنا عنك ما تكره، فتأثر «أسيد بن حضير» فجلس، وأنصت، وألقى حربته، وبعد أن أفرغ «مصعب » رضى الله عنه من تلاوة القرآن وبيان مبادئ الإسلام أعلن« أسيد» أسلامه، وتبعه من قومه كثيرون.

صعوبة الموقف :

والموقف هنا حافل بالدروس والعبر :

فهو أولا صعب: لأن الداعية مهدد بالموت لو استمر فى دعوته.

والتهديد آت من القادر على تنفيذه، وهو «أسيد» سيدُ قومه، فى الوقت الذى يحس فى الداعية بالغربة، فى ديار بعيدة: بلا أهل ولا عشيرة.

وماذا عسى أن يفعل زميله «أسعد» إزاء جبهة قوية قادرة على وضع نهاية لحياته مع أخيه مصعب؟.

ومن ناحية أخرى: فمعنى السكوت والكفِّ عنِ الدعوة أن ينتهى دور«مصعب» وإعلان إفلاس الداعية المرسل من قبل رسول الله ﷺ ليفتح للدعوة سوقا رابحة،بعد أن حاولت الوثنية خنقها فى مكة المكرمة.

***

حساسيات عائلية:

أضف إلى ذلك أن «أسعد بن زرارة»:

(أ) أنصارى. . و«أسيد» أنصارى.

(ب) و«أسعد» خزرجى. . و«أسيد» أوسى.

(جـ) وكان أسعد أصغر منه سنا .

كل ذلك شكل مجموعة من الحساسيات تلقى بالعبء كله على عاتق «مصعب» من حيث مبادرة «أسعد» محفوظة بالمخاطر. . لأن مخاطبته «أسيد» لن تَلقى قبولا. . فليتكلم الغريب. . أفضل، فسوف يكون حديثه مقبولا. .

ولو تصورنا أن «مصعبا» كان هو الإمام بالمدينة؛ لأن الأوس والخزرج لم يكن أحد منهم فى مستهل الدعوة - يرضى بإمامة الآخر.. لو تصورنا ذلك لأدركنا على الفور كيف أخذ «مصعب» بزمام المبادرة، وبدأ يتحمل مسئولية المواجهة.

***

الكلم الطيب:

شرع مصعب يدير الموقف بالكلم الطيب.. لاسيما وهو لا يملك مالا..ولا جاها.. يضغط به على خصمه:

لا خيل عندك تُهديها ولا مال

فليُسعد النطق إن لم يُسعد الحال

وقد بدت بوادر الحكمة فيما يلى:

(أ) لم يأمره بالجلوس.. لكنه عرض فكرة الجلوس للاستماع ليستجيب..أولا يستجيب..«أولا تجلس».

(ب) استدعى عقل المدعو ليقف إلى جانبه لما حَصَرَ الموضوع فى واحد من احتمالين..ليختار هو ما يحلو له.

(جـ) فلما لم يحس المدعو بأن الداعية يفرض عليه رأيه.. بدأ يفْردُ شراعه ليمضى على موج هادئ.

(د) وقد أعانه مصعب على ذلك بما تعلمه من دروس الرسول ﷺ بشأن علاج الغضب الذى لا ينبغى ألا نمكنه إجهاض الحوار.

إن الواقف. . وبالذات إذا كان معه سلاحه. . أقربُ إلى الهجوم على الفريسة من الجالس أو المضطجع. .

ولذلك يأمر الرسول الغاضب بتغيير وضعه الجسمى من الوقوف. إلى الجلوس. . أو الاتكاء. . ليبتعد عن الوضع الذى يُعينه على سرعة الانتقام من غريمه. . ولذلك قال مصعب:

« ألا تجلس. . فستمع. . » ولم يقل «ألا تسمع. . »

(هـ) ونجحت الخطة. . وجلس المدعو. .

بل وألقى حَرْبَتَه. .

وبدأت مدارِكُه تستعد لاستقبال التوجيه!

بعدما ألْقى ما يعنيه على العدوان وهو سلاحه. . وبعد ما هدأت أعصابه. . بالجلوس.

* * *

ركائز الدعوة:

ولقد انطلق« مصعب» رضى الله عنه من ذات القاعدة التى كان ينطلق منها ﷺ وهى:

١ ـ إنزال الناس منازلَهم. .

وقد أدرك أن «أسيدا» زعيم قومه. .

ومن ثم فأسلوب تعامله يختلف مثلا عن دعوة واحد من أتباعه .

ونذكرهنا ما روته عائشة رضى الله عنها.

(إنها كانت فى سفر. فأمرت الناس من قريش بغذاء. . فمر رجل غنى. ذو هيئة فقالت: ادعوه. . فنزل . فأكل . ومضى.

وجاء سائل. فأمرت له بكسرة.

فقالوا لها:

امرتينا أن ندعو هذا الغنى. وأمرت لهذا السائل بكسرة؟ فقالت: إن هذا الغنى لم يجمل بنا إلا ما صنعناه به.

وإن هذا السائل سأل، فأمرت به بما أرضاه.

وأن رسول الله ﷺ أمرنا أن ننزل الناس منازلهم».

٢ ـ بداية العلاج من الداخل بتهيئة نفس المدعو ليتلقى التوجيه.. وينفعل به.. فلما جاءت الآيات القرآنية رطبة على لسان مصعب.. كانت النفس أرضا خصبة.. طرية.. مستعدة للإنبات.. فاهتزت.. وربت.. وأنبتت من كل زوج بهيج هو إعلان «أسيد» إسلامه.. ومن ورائه أتباعه!!

* * *

إنه إذا كان مهما أن ندعو بالقرآن.. فَأَهَمُّ منه أن نكون قبل ذلك قرآنيين فلا نضغط.. ولا نجرح..، لا نمنّ.. وأن نستوعب الحقائق القرآنية بقلوبنا.. فإذا انطلقت منها الآيات.. انطلقت من قاعدة مكينة فأصابت الهدف. أما مجرد الحفظ.. والإلقاء.. مجرد إلقاء البَذْر فوق رؤوس الناس.. فسوف يسقط الحب على الطريق فتلتهمه الطيور.. ولا يكون نبات!!

«لقد كان عمر رضى الله عنه يستمع إلى الآية فيخشع لها قلبه.. ويتأثر إلى حد المرض. ويعوده العواد أياما وليالى.. لما أصابه من وقع الآية فى حسه ونفسه..» وها هو ذا مصعب رضى الله عنه يطلق الآية من قلب سليم، فأصاب الهدف.

لقد أنهى حركة التمرد فى قلب المدعو.. ثم ألقى له حب الحصيد.. فوقع الصيد فى الشباك.. وبرغبته الخالصة!

وكان على موعد مع الإسلام.

أما بعد:

فإذا لم يجد الدعاة ثمرة سريعة لجهودهم. . فليرجعوا إلى أنفسهم. . فَالْعِلة هناك!

ولنبدأ الحركة من داخل أنفسنا ولا. . حتى نحسمها بالوعى. . وإنزال الناس منازلهم. . واحترام إنسانية الإنسان. . وتقدير الخبرة الإنسانية. والتعامل مع القرآن كما ينبغى. .

ومن يفعل ذلك. . فقد فاز. . وفازت معه والدعوة بأناس كانوا بالأمس عقبات على الطريق. . واليوم يصيرون بالحكمة معالم هدى. . ومرفأ يقين.

الرجوع إلى الحق فضيلة:

وقع خلاف بين عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة رضى الله عنهما فسبه المغيرة.

فقال عمرو:

يا قوم: أيسبنى ابنُ شعبة؟!

وكان ابنه عبد الله حاضرا. . وكان صالحا. أسلم قبل أبيه فقال: إنا لله. . دعوت بدعوى القبائل. وقد نُهى عنها.

فأعتق عمرو ثلاثين رقبة:

يتفاوت الناس فى درجة الثقافة ونوعيتها. .

كما يتفاوتون فى المدارك. . والأمزجة. .

وهذا شىء طبيعى. . ومن شأنه أن يوقع الناس فى الاختلاف. .

ولابأس أن يختلف الناس. . لكن المهم كيف يخرجون من دوامة الاختلاف أصفياء. . متعاونين على البر والتقوى. . جاعلين من هذا الاختلاف فرصة تُزودهم بتجارب وخبرات تجعلهم أقدر على التعايش من بعدُ فى وئام وسلام.

ألا وأن النهر الجارى لا يكف عن الحركة أبدا. . ولكنه محكوم بشاطئين. . ووجهة. . وغاية. . فلنختلف. . لنأتلف.

إنهم فى حاجة إلى أمور:

١ ـ رغبة فى الإصلاح تحرك المخلصين على فض النزاع..

٢ ـ استعداد المتخاصمين لعودة المياه إلى مجاريها.

٣ ـ النزول على رأى أهل الخير وواسطته..

* * *

وفى هذا الموقف الذى نتأمله الآن شاهد على ما نقول:

فعمرو بن العاص زعيم ينتسب إلى قبيلة كبيرة..

ثم هو قائد عسكرى له ماضيه المرموق فى الدفاع عن الدعوة.. بالإضافة إلى أنه غنى يملك ـ من بين ما يملك ـ ثلاثين مملوكا هم الذين أعتقهم تكفيرا لذنبه فى التعريض بزميله المغيرة المسلم.

فلما شتمه المغيرة وهو فى ظنه أقل منه منزلة..عز عليه ذلك.. وعدَّ هذا استهانة به.. فأعلن استياءه من رجل كالمغيرة يتطاول عليه فيسبه.. بينما المسافة بينهما بعيدة.

* * *

ولو كانت مقاييس الدنيا هى الحاكمة لانضم إليه ابنه عبد الله يدافع عن أبيه بالحق والباطل.

ولكن كان من حسن حظ الاثنين معا أن كان عبد الله موجوداً.. وتدخل على الفور يعاتب أباه فى أدب.

ونلاحظ أن عبد الله فى نقده لأبيه لم يكن قاسيا:

فلم يقل له: «دعوت بدعوى الجاهلية» وفضَّل عليها لفظَ «القبائل».. ولعلها أخفُّ وقعاً منها..

أى أنه اختار الأسلوب الخفيف الوقع..حتى لا يتفر أباه أكثر .. وفى نفس الوقت يفتح له طريق العودة إلى الحق برفق ولين ولاحظ أنه يتجاهل سب المغيرة

لأبيه.. فقد تكون فورة يعود بعدها إلى الحق.. والفورة قد لا يكون من ورائها نزعة قبلية..أما رد أبيه فقد أيقظ فتنة كانت نائمة..

ولا شك أن المغيرة قد استراح لمنطلق الابن الذى هو أبلغ من رده وهو الأجنبى.. حيث لا يهز الشجرة إلا فرع منها.. ولا شك أن موقف عبد الله قد هدَّأ من ثورة كان من الممكن أن تشتعل..لكن المنطلق الحكيم من الابن ترك أثره على الموقف كله.. وأثمر فى النهاية ثمرته المرجوة على النحو التالى: فلقد أحس أبوه بخطئه..

ثم لم يكتف بالإحساس المجرد.. وإنما عبر عن توبته بتحرير هذا العدد الكبير من العبيد لعل أخاه فى الإسلام يرضى.. وقبل هذا لعل الله تعالى يقبله..بعد ما أخطأ وقرر العودة إلى الحق..

* * *

وهكذا كان ولاء السلف الصالح للحق وحده بغض النظر عن الأشخاص.. وهكذا أيضا تبدو حاجة المسلمين إلى الأخيار الذين يتدخلون فى الوقت المناسب لفض النزاع بين المسلمين المختلفين..وهى مهمة لو أخلص المسلمون لها.. لكان حالهم أفضل مما هم عليه اليوم.

أما بعد: فقد ظهرت أهمية العنصر الثالث فى فض النزاع لاسيما إذا كان قريبا للمعتدى تماما كما أن الموعظة من مؤمن آل فرعون كانت نافعة لأنه كان واحدا من أفراد البلاط الملكى.

عندما يحتار الإنسان بين عقله وقلبه :

ماذا يفعل شاب فتى قوى.. صدرت إليه الأوامر مشددة من جهة عليا لينفذ حكما صارما.. هو شخصيا غير مقتنع به.

سوف يحتار بين عقله وقلبه:

عقله الذى يأمره بالطاعة..

وقلبه الخائف من نتائج تنفيذ القرار!

إن اتساع الأفق . .والشجاعة الأدبية. . والإحساس بكرامة الإنسان. . كل أولئك كفيل بإنهاء الموقف. . واحتواء الأزمة:

وهذا الموقف شاهد صدق يؤكد هذا المعنى:

***

فقد أرسل معاوية رضى الله عنه قدرا من المال إلى رجل من الأنصار. . فاستقله الأنصارى (عده قليلا) فقال لابنه:

خذ هذا المال. . ورده إلى معاوية واضرب به وجهه. . وأقسم عليه أن يفعل. . ونظرا لقسوة القرار. . فلم يشأ الفتى أن يطيع والده طاعة عمياء تمهد للصدام بين والده والحاكم. .

لقد قرر ألا يكون نسخة مكررة من أبيه. . فإذا مات أبوه مات بعده. .

لكنه قرر أن يكون رجلا:

قال لمعاوية معتذرا عن أبيه:

أبى متسرع. .وفيه حدة. . وقد أمرنى بكيت وكيت. .وأقسم على أن أفعل. .ولا أقدر على مخالفته. . .

***

إن الفتى يؤكد انتماءه لوالده. .

لكنه فى نفس الوقت يريد الخروج بنفسه وبأبيه من أزمة محققة. .

فكان هذا الاعتذار. . وكان الأثر واضحا لدى معاوية الذى قدر للفتى دوره الحكيم. . وزاد الصلة أضعافا. . فعاد الفتى إلى أبيه بالخير الوفير وفوق هذا عاد إليه بالدرس البليغ وكيف ينال الإنسان بالحكمة أضعاف ما ينال بالشدة. .ثم كان مثلا لإخوانه من الشباب. .حتى لا يكونوا دمى فى يد أحد. . لأن لهم عقولا تفرض عليهم أن يستقلوا وألا يكونوا لعبا فى أسواق العرائس.

ومن تدبير الله تعالى أن يمسك بأطراف القضية هذا الابن الراشد. . الذى

ناوشه عقله وقلبه.. فصار بين شقى الرحى.. لكن حيرته لم تطل.. فقد قرر حسم القضية بالحكمة ولحساب الحق:

فقد صان ود أبيه أولا ـ مهما كان خطؤه ـ وذلك باعتذاره عنه بأن فيه حدة طبع.. فمهد السبيل أمام الخليفة ليحسن استقبال ما سوف يحدث..

ثم أفضى الابن بما حدث.. مؤكدا له أنه لن يخالف أباه.. وترك الأمر لحكم الخليفة الذى اتسع قلبه وساعد الولد على بر أبيه.. فليفعل ما أمره..

ثم كانت هذه اللمحة الكريمة حين أمره بالرفق.. لا بوصف كونه خليفة.. ولكن بوصفه عما له وذلك قوله (أطع أباك. وارفق بعمك).

وكان حلم معاوية رضى الله عنه قطرات من الماء البارد اطفأت النار التى أوقدها والد غشوم..

ومن قبله كانت حكمة الابن الذى حرص أشد الحرص على أن يبقى انتماؤه لأسرته قائما دائما.. فطاعة الوالد أساسية فى منهج الإسلام وفى نفس الوقت يدفع عن أبيه غضب الخليفة وانتقامه.. وعلى جناحين من:

حلم الحاكم..

وحكمة الشاب.. انتهت الأزمة بسلام.

فلما جاء يزيد بن معاوية محمولا على موجة الحماس الغاضب من أجل الكرامة المضيعة فى زعمه.. رده أبوه بالحسنى.. مؤكدا له أن الرفق والحلم كلاهما خير.. وما هان الحليم.. وما هزم الحكيم.. ثم تركه يمضى مع تجربته التى سوف تثبت له يوما أنه (لا يكون مع الحلم ندامة ولا مذلة).

ولاحظ من حكمة الوالد.. معاوية رضى الله عنه:

لقد كان يملك فرض رأيه على ولده باللهجة الحاسمة الجازمة..

ولو فعل.. فلن يلومه أحد..

ولكنه رضى الله عنه.. اختار طريق الحوار سبيلا إلى إقناع ولده بشرعية القرار..

حيث أكد له:

أن الحليم.. لا يهون..

وأن الحكيم.. لا يُهزم..

ولئن بدا الحليم فى اللحظة الحرجة.. ساكنا هادئا..

بينما كان الطرف الآخر فيما يشبه المنتصر.. لكنه الانتصار المؤقت.. والذى سوف يفسح الطريق أمام الحكيم ليتبوأ مكانه العلىّ.. فى قلوب الناس.

المسلمون اليوم

حاول أن تقارن بين هذه الصورة الآنفة.. وبين ما يحدث اليوم فى بيوتنا.. ليتأكد لك مدى حاجتنا إلى العودة الراشدة. إلى تاريخنا.. نستلهمه قواعد إعداد أبنائنا ليكونوا من بعدنا امتدادا لحياتنا. يقول باحث عصرى:

«أنت لا تستطيع أن تجرى حوارا مع الشبان.. لا لأن الحوار مستحيل ولكن لأن هناك فروقا كثيرة بيننا.. أفكارنا لها زمن، وأفكارهم لها زمن فكل زمن له فكر، وكل فكر له زمن والغلط فين؟

لاغلط، أى شاب يريد أن يكون مستقلا فى تفكيره: من حقه ونحن نريد أن ننصحه: هذا واجبنا. وبعد ذلك هو حر يأخذ ويترك ما شاء.. هل تستخدم يدك فى إقناعه. هل تستخدم مالك فى منعه من الخروج والدخول والجلوس مع زملائه؟ وإذا جاءوا إلى البيت وأقفلوا الباب عليهم تضايقت! لا بأس:

فإذا فعلت ذلك فما هو رد الفعل؟ رد الفعل أنك لن تصبح صديقا لابنك.. ولا يصدقك. وفى بعده عنك اقتراب من آخرين أقوى أثرا لأنهم أقرب إلى عقله وقلبه.. وكلما تباعدت المسافة بينك وبينه أصبح الموقف صعبا. فما هو الحل؟ لا حل لأنه لا توجد مشكلة، فالشاب لا يجد أحدا يعجب به. ولا أحدا يصدقه. ولا أحدا يحترم رغباته واندفاعاته.. هل هو شاذ؟ ليس شاذا هل هو مجنون؟ ليس مجنونا.. هل نحن مخرفون؟ لسنا كذلك. إذن ماذا؟

الشبان هاربون.. هاربون من البيت ومن المدرسة ومن الجميع إلى أين؟ إلى

حياة خاصة.. إلى نوع من التمرد على كل شيء.. ومن مظاهر التمرد: الإهمال في السلوك وفي الملابس وإلى الهرب بالمخدرات من كل نوع.. ثم إلى أحضان الجماعات المتطرفة.

ليس الشبان فقط هم الذين يحتاجون إلى توعية أو إلى حوار. وإنما الآباء والأمهات. إنهم خائفون على أولادهم هذا طبيعي. ولكن الأولاد قد ركبوا رؤوسهم الصغيرة ولكنها ليست صغيرة لدرجة أنهم لا يفكرون، بل يفكرون كثيرا ولكن بعيدا عن آذان وعيون الآباء والأمهات» .

إن الواجب ليحتم علينا إنشاء عادة التفكير الحر المستقل.. لدى أبنائنا.. وكذلك يفعل المربون المنصفون.. الذين حاولوا ذلك أخذ النشء إلى الحقيقة عن طريق تكوين عادة الحوار أخذا وعطاء:

قال المدرس القديم وهو ينصح المدرس الجديد:

سوف تجد في كل صف طالبا واحدا على الأقل ميالا إلى الجدل والنقاش.

وسوف تحس عندئذ برغبة في ردعه أو تجاهله.

وأنصحك ألا تفعل!

فقد يكون هو الطالب الوحيد الذي ينصت إليك!

وهو الطالب الذي نريده جادا في طلب الحق..

وليس هو الشاهد المشاكس الذي سأله المحامي قائلا:

كيف تقول: رأيت الحادث على بعد خمسة وثلاثين ميلا؟ هل يمكن..

فقال الشاهد:

أنا أرى الشمس وهي تبعد عني بأكثر من مليون!!

وهكذا يفعل المتشاكسون الساعون في إبطال الحق.. وإحقاق الباطل!!

الحجاج.. وسالم بن عبد الله

لما أرسل الحجاج الفتى «سالم بن عبد الله بن عمر» لينفذ حكم الإعدام فى واحد من رعيته.. كانت مهمة رسول الحجاج صعبة جدا:

فالحجاج شديد البأس.. ولن يتهاون مع سالم إذا لم يطبق المهمة حرفيا.

***

وخرج الفتى ومعه سيفه.. ويبدو أنه لم يكن مقتنعا بالمهمة..

فلما وصل إلى المحكوم عليه قال له:

هل صليت الصبح؟

قال الرجل: نعم..

وسرعان ما عاد «سالم» إلى الحجاج الذى سأله عما تم فألقى السلاح بين يديه وقال له:

كيف أقتل رجلا صلى معنا الصبح؟

لقد قال رسول الله ﷺ:

(من صلى الصبح فهو فى ذمة الله)[1].

وكيف أجرؤ على قتل رجل فى ذمة الله.. فى رعايته.. فى حماه؟ ذلك ما لا يكون!!

***

وهكذا.. يفعل العقل المتفتح.. والفهم المستنير.. والقلب الموصول بهموم الناس..

إن الحجاج لن ينوب عن الفتى فى تلقى عذاب الله..

فهو مسئول مسئولية مباشرة عن عمله.. فليكن رجلا عاملا للحق.. فالحق يبقى.. لكن الرجال يذهبون.

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى وغيرهم وهو فى الترغيب/ ٥٤٢.

أما بعد:

فما أحوجنا إلى الحكمة لدى الشباب سبيلا إلى مستقبل أفضل.. ورحم الله شوقى حين يقول موجها الشباب إلى التى هى أقوم:

عالجوا الحكمة واستشفوا بها ... وأنشدوا ما ضل منها فى السير
واقرءوا آداب من قبلكم ... ربما علَّم حيًّا من غبر
واغنموا ما سخر الله لكم ... من جمال فى المعانى والصور
واطلبوا العلم لذات العلم لا ... لشهـــادات وآراب أخـــــر
كم غلام خامل فى درسه ... صار بحر العلم أستاذ العصر
ومجدٍّ فيه أمسى خاملا ... ليس فيمن غاب أو فيمن حضر

التثبت قبل الحكم:

ربما أثيرت حول إنسان شائعات تنال من عرضه. وتحط من سمعته.. فما هو موقفك أيها المسلم؟

ينبغى أن تحسن الظن بأخيك المسلم.. لا سيما إذا كان عالما فاضلا يعينك على فقه دينك.. ويمهد لك السبيل إلى الجنة..

ويفرض عليك الإسلام أن تتثبت قبل أن تحكم.. حتى لا تحبط عملك الطيب.. بالحكم الخاطئ..

يقول سبحانه:

﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾[1].

إن التسرع فى الحكم واصل بك إلى الندم.. فى وقت لا ينفع فيه الندم.. بعد أن جرحت بالكلمة الطائشة قيادتك الدينية.. وحققت لأعداء الإسلام أمنية حاولوها فلم ينالوها.. وهانتذا تخدمهم من حيث لا تشعر!

(١) الحجرات: ٦.

وفى تاريخنا الإسلامى مواقف كاشفة عن معادن طيبة.. تسمع.. فلا تصدق إلا بعد البحث والنظر.. ولا تجعل من صدورها أقفاص اتهام تحبس فيها الأبرياء.. بلا تحقيق ولا محاكمة:

قال ابن عبد البر فى «جامع بيان العلم»:

قالت امرأة لإبراهيم النخعى:

يا أبا عمران:

أنتم معاشر العلماء أحد الناس «أسرعهم غضبا» وألوم الناس «تقصد: أكثرهم تريثا وبخلا بالمال».

فقال لها:

أما ما ذكرت من الحدة: فإن العلم معنا.. والجهل مع مخالفينا.. وهم يأبون إلا دفع علمنا بجهلهم.. فمن ذا يطيق الصبر على هذا؟!

وأما اللوم.. أو البخل: فأنتم تعلمون تعذر الدرهم الحلال.

وإنا لا نبتغى الدرهم إلا حلالا..

فإذا صار إلينا لم نخرجه إلا فى وجهه الذى لابد منه).

* * *

إن المرأة هنا لا تحبس نفسها فى مطبخ الطعام..

وإنما هى تعيش هموم مجتمعها:

تطلب العلم.. وتسأل.. وتجادل..

وحين تجادل: فبالحسنى أولا، فلم تناد العالم باسمه المجرد.. وإنما تناديه: يا أبا عمران..

ثم إنها لم تحصر همها فى ملبسه.. أو شكله.. أو ماذا يأكل..

وإنما تتجاوز هذه القشرة الظاهرة. فدار سؤالها حول عناصر شخصيته المؤثرة فى مجرى الحياة..

وإذن فهى :

تحب العلماء . . وتقدرهم قدرهم . .

ومن واقع حرصها على كرامتهم تسأل مسترشدة راجية أن يطمئن قلبها ليظل العلماء فى القمة ، حتى يغيظ الله بهم الكفار !

ويعترف العالم بأن العلماء فيهم حدة؛ لأن مخالفيهم يقابلون معروفهم بالشدة . . وبأن للبخل سببا راجعا إلى أن ثروتهم حلال .

ولما كان العثور على الدرهم الحلال صعبا فهم لا يخرجونه إلا بالدم كما يقولون .

* * *

وعادت المرأة إلى بيتها . . بعد أن عادت إليها صلتها الطيبة بعلماء أجلاء . . من حقهم علينا أن نحتفظ بهم كرماء . . ليردوا إلينا الجميل ضوءا كاشفا . .

* * *

الدعوة بين الدفاع.. والاندفاع

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[1]:

تمهيد:

على كثرة ما يتجاذب الناس من أطراف الأحاديث.. تظل كلمة الدعوة واسطة العقد. وطوق النجاة.. ويظل صاحبها حادى الركب. والرائد الذى لا يكذب أهله.. بما يقدم للناس من هدى. وما يمنع عنهم من ردى: يقول سبحانه:

﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[2].

تنفى الآية الكريمة أن يكون فى أحاديث الناس من خير إلا أن يكون أمرا بصدقة.. تجدد مرافق الأمة، أو بمعروف.. تصلح به النفوس. أو إصلاح.. يتوحد به الصف.

ويظل ذلك النشاط كله حبرا على ورق حتى يكون حسبة لله تعالى. وعندئذ فجزاؤه أجر بلا حدود ويكفيه نفاسة أن شهد بعظمه العظيم سبحانه وتعالى.

وظيفة الداعية

ولا يستحق الداعية هذا الجزاء الأوفى من فراغ. وإنما هى طبيعة وظيفته التى تفرض عليه أن يكون: صالحا.. مصلحا.. ويعنى صلاحه كما بينت الآية الكريمة الأولى:

(أ) أن يكون فى دعوته محكوما بالهدف الأسمى (دعا إلى الله..).

---

(١) فصلت: ٣٣، ٣٥.　　(٢) النساء: ١١٤.

(ب) وأن يكون عاملا على وفق الشريعة لا كما شاء له هواه: (وعمل صالحا..).

(جـ) أن يكون انتسابه إلى قافلة الدعوة شرفا يعتز به.. على ما يقول الألوسى:

(وقال ـ إننى من المسلمين ـ أى: تلفظ بذلك ابتهاجا بأنه منهم. وتفاخرا به مع قصد الثواب. إذ هو لا ينافيه).

فإن كان على هذا المستوى.. فهو قائد الركب.. بلا منازع.. ولا أحد أحسن منه.

(ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله)

من الصلاح إلى الإصلاح

فإذا خطا الداعية خطوته الثانية ليصلح ما أفسد الناس.. فقد وضع صلاحه موضع التنفيذ وليستعد لتحمل تبعات وظيفته:

إنه ـ منذ الخطوة الأولى يثير عليه أصحاب الهوى.. حين يسفه أحلامهم. ويحقر من دنياهم التى بها يفتنون. إنه صادق.. يكشف عن زيف الكاذبين.. أمين.. يتصدى للخائنين.. مصالح اجتماعى.. يقطع الطريق على المفسدين..

يرى المجتمع كما يقول إقبال:

(الصفوف معوجة منشقة. والقلوب خاوية حائرة. والسجدة جامدة. خامدة لا حرارة فيها ولا شوق فقد انطفأت شعلة القلب وخمدت جمرة الفؤاد.

يسمع الخطب والمواعظ.. لكنها ـ لخواء النفس ـ لا توقظ ركب الحياة الوسنان السكران».

ومن ثم.. يخوض منذ اللحظة الأولى حربا ساخنة.. وبين جنبيه قلب شاعر حساس من ذلك النوع الذى قال عنه العربى وقد سئل:

لم كانت المراثى أجمل أشعاركم؟ فقال: لأنا نقولها وقلوبنا تحترق.

ومن أجل صعوبة المهمة هكذا.. كان الداعية مستهدفا بالأذى والسخرية من قبل أصحاب الشهوات - فماذا يفعل؟ عليه أن يأخذ موقف الدفاع.. لا موقف الهجوم.. إن الملاح لا يدرب فى الأمواج الهادئة.. وإنما وسط العواصف الهوج.. والأمواج المتلاطمة.. وعليه أن يتحمل مسئوليته بنجاح..

{ادفع..}

ولكن بأية وسيلة يدافع الموج الغاضب؟ تجيبنا الآية الكريمة:

﴿ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن﴾.

(لا تستوى فى الذات.. ولا فى الآثار.. ولا فى الحكم..

وقفة تأمل

فى سورة الحشر يقول سبحانه وتعالى: **﴿لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحابة الجنة هم الفائزون﴾**.

فالآية تنفى استواء المؤمنين والكافرين.. فالمؤمنون وحدهم هم الفائزون.. ولقد جاءت الواو العاطفة وليس معها «لا»..

أما هنا فى آية فصلت. فقد قرنت الواو «بلا» هكذا:

﴿ولا تستوى الحسنة ولا السيئة﴾.

وربما جاز لنا أن نقول:

أن تكرار اللام يشير إلى أنه بالإضافة إلى نفى استواء السيئة والحسنة إلا أن كلا منهما مستويات بعضها فوق بعض:

فالحسنة فى ذاتها درجات..

والسيئة فى ذاتها دركات..

وإذن فالداعية مأمور فى مواجهة العنف من قبل المدعو: ألا يقف عند الوسيلة الحسنة: الأصغر والصغيرة.. أو الكبيرة.. وإنما عليه أن يكون على أعلى

مستويات الحسن. . فيواجه المدعو بالأحس. . بالأكبر دائماً. .

وربما فرض عليه ـ مرحليا ـ أن يتغاضى عن السيئة الأصغر ـ أو الصغيرة. . ثم يواجه الكبيرة. . والأكبر. بما يليق به من كمال. .

بالتى. . هى. . بالذات. . أحسن الوسائل.

فليس وراءها فى الحسن وراء.

(مسوغات الإحسان)

١ ـ من دواعى الدفاع بالتى هى أحسن ما يتعلق بطبيعة الوظيفة.

٢ ـ وما يتعلق بالمدعو نفسه وما يحيط به من ظروف.

أما بالنسبة للداعى. . فهو مرآة أخيه المؤمن:

وماذا يعنى كونه «مرآة»؟

معناه:

(أ) أنك تعكس عيوب المدعو. . لتنكشف أمام عينيه. .

(ب) ثم إنك تكشفها فى صدق. . وبلا تزيد.

(جـ) وفى صمت وبلا تجريح.

(د) تقول له بلسان الحال: هذه عيوبك أنت. . أنت الذى اجترحتها. . وأنت سيد مصيرك.

(هـ) ويراها المدعو بعينيه ماثلة بين يديه. . فيصبح لسان الحال أبلغ من لسان المقال. . فيستجيب.

* * *

ولو زايل الداعى مكانه منتقما. . فقد استوى الماء والخشبه. . وصار الواعظ فى حاجة إلى واعظ والطبيب فى حاجة إلى طبيب، وتحول الأمر إلى معركة حامية تنتفخ فيها أوداجنا. . ونستدعى لها كل قوانا. . فى معركة خاسرة.

ويرحم الله ابن عباس.

فقد قال له رجل: يلقانى الرجل الفاسق. فيخاطبنى بخير أفأرد عليه؟

قال: لو خاطبنى فرعون بخير لرددت عليه بما هو أحسن منه.

٢ ـ أما فيما يتعلق بالمدعو:

فعلى الداعى ملاحظة أن المدعو لن يقبل على فكرته تلقائيا.. وإنما يستقبلها ـ كما يقرر العلماء ـ مقارنا لها بمعتقداته، وعاداته ومصالحه الخاصة.

وقد يقبل الفكرة بقلبه.. ويرفضها بعقله. وقد يحدث العكس..

فلابد إذن من حسن العرض.. وحسن الوسيلة لترجيح ما من شأنه الرجحان.. وإنقاذ المدعو من لحظة التمزق حيال اختبارات جذابة. لا يملك من فرط جاذبيتها أن يتخذ بشأنها القرار الحاسم.

فإذا تسلحنا بالطريقة المثلى عاد الرشد المسلوب.. وظهر الجمال المحجوب..

فإذا أضفنا إلى ذلك أن المدعو قد يكون مجموعة من ذوى الجاه والسلطان ممن يقدرون على محاربتك فى رزقك ووظيفتك.. تبين لنا كم تكون الحكمة أصلح الوسائل بإطلاق.

من صور الدفاع بالتى هى أحسن

عندما شتم رجل أحد العارفين قال له المشتوم:

إن كنت صادقا.. فغفر الله لى.

وإن كنت كاذبا.. فغفر الله لك.

ولقد هم أبو بكر رضى الله عنه أن يرد على رجل شتمه مرة.. ومرة.. هم أن يأخذ موقف الهجوم فغضب ﷺ وهم بالقيام من المجلس مسجلا ما ينبغى أن يكون فى مثل هذه الظروف.

فإما أن تقول خيرا فتغنم.. أو تصمت فتسلم.

وعلى الذين يطلبون الجنة أن يكونوا أهلا لها ـ بالحلم والتسامح.. ولقد

حفت الجنة بالمكاره.. فليسع إليها الساعون كادحين.. فقد خلقوا فى كبد:

يا من تضايقك الفعال.. لا من التى ومن الذى

ادفع ـ فديتك ـ بالتى.. حتى ترى فإذا الذى

أين المدفوع؟

ولا تذكرة الآية الكريمة «السيئة» وهى مفعول قوله تعالى: ﴿**ادفع**﴾.

لكنها فقط تذكر الوسيلة.. وهى العنصر الفعال:

﴿**بالتى هى أحسن..**﴾.

وربما ـ والله تعالى أعلم بمراده ـ كان ذلك إشارة إلى أن الداعية الكفء.. القادر على تمثل الحسن فى مخاطبة الجاهلين.. لا يكاد يطل من عليائه حتى تذوب السيئة فلا يبقى لها أثر.. ولا سيما والدعوة هنا فى بيئة مسلمة يراد لها أن تظل واضعة أقدامها على الصراط المستقيم، أما فى البيئة الجاهلة فقد صرح الحق تعالى.. بالسيئة.. وذلك فى سورة «المؤمنون».

﴿**ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون**﴾.

والفرق هائل بين أن تكون المواجهة مع مسلم عاص، ولكنه مقر بالوحدانية مثلك.

وبين كافر عنيد يعفر جبهته للصنم.

لا خصومة حقيقية بينك وبين الأول.. وإذن فلا سيئة.. وإنما حالة «خلل» يحتاج إلى ترتيب.. وغفلة تحتاج إلى تذكير.

ونذكر هنا بعض الكاتبين الذين يتعرضون لوقائع السيرة النبوية فينقلون المواقف من هناك.. ثم يسقطونها على واقعنا الراهن.. بلا تفريق.

لقد كان هناك أبو جهل.. وأبو لهب.. وكعب بن الأشرف.. يقفون فى تحالف باغ يحاول وأد الدعوة فى مهدها.. وإذن فمن الظلم أن أقول للشباب عاملوا الخطائين من المسلمين اليوم.. بما كان يليق بهؤلاء المارقين.

ثمرة الحكمة

ويخرج الداعية من المعركة التى أدارتها الحكمة.. بصيد ثمين:

﴿**فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم**﴾

ستظفر بولى..   وولى حميم..

ستظفر برجل يأخذ مكانه إلى جانبك داعيا إلى الله مثلك.. وسيحفظ لك الجميل أبداً. لماذا..؟

لقد كان فى إمكانك أن ترد على غشمه:

بالصمت.. إعراضا عنه

أو بالعدل.. تأديبا له ..

لكنك تجاوزت ذلك.. وضاعفت الإحسان إليه.. ولكن ولائك له لن يكون مائة فى المائة.. بل ﴿**كأنه ولى حميم**﴾.

إنه يوشك أن يكون كذلك... وأمامك الفرصة أن تواصل الإحسان لتكسبه.. وإلى الأبد:

عداوة مستوردة

ولا تقول الآية الكريمة:

﴿**فإذا عدوك..**﴾

فليس هو عدوا لك فى الواقع..

وإنما صنعت الظروف الأسيفة بينك وبينه حاجزا.

﴿**بينك وبينه عداوة**﴾

إنها عداوة مستوردة من جهة أجنبية.. من عدوكما المشترك: الشيطان.

«**وما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله..**».

ولا يمكن أن يصل إلى هذه القمة إلا الذين صبروا:

﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾.

ولا يمكن لكل داع أن يتصدى لها. . فالعظائم كفؤها العظماء.

كل صابر هو الذى يلقاها وكل من يلقاها فهو ذو حظ عظيم.

إذن: كل صابر ذو حظ عظيم.

أو هكذا يقول المنطق السليم.

إن الداعية ربان ماهر:

فلتكن الحكمة مجدافة. . ليستخرج من قاع المحيط لؤلؤا ومرجانا. . ثم ليصل بالمدعو إلى البر سالما:

يواجه الموقف المتأزم: بالحكمة الضابطة.

والكرامة التى لا تساوم بالدنيا كلها على مثقال ذرة من إيمانه.

جاعلا من الصبر الجميل وقوده [بحيث يُرى دائما: صلبا لا ينحنى.

عزيزا لا يذل. . وقورا لا يهتز. . ثابتا لا يتغير].

ومهما ادعى المدعون واتهم المتهمون فإن أمره على ما يقول الشاعر:

وهبنى قلت هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء

الدعوة بين التكديس والبناء

روى البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: كان غلام يهودى يخدم النبى ﷺ. فمرض. فأتاه النبى ﷺ يعوده. فقعد عند رأسه فقال له: أسلم.

فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له:

أطع أبا القاسم ﷺ. فأسلم. فخرج النبى ﷺ وهو يقول: الحمد لله الذى أنقذه من النار(١).

مدخل:

كانت المرأة فى الجاهلية لا يعيش لها ولد فتلزم نفسها: إن جاءها ولد أن تهوده.. ليعيش! فلما أجليت «بنوا النضير» كان فيهم من أبناء الأنصار. فقالوا:

لا ندع أبناءنا.. فأنزل الله تعالى: ﴿**لا إكراه فى الدين**﴾.

وقال ﷺ لما نزلت: «**قد خير الله أصحابكم**»:

فإن اختاروكم فهم منكم. وإن اختاروهم فهم منهم(٢).

ومعنى هذا:

أن قضية الإيمان والكفر بيد الإنسان وحده.. فى إطار من مشيئته سبحانه.. فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

وهؤلاء الأبناء الذين تهودوا تحت إشراف آبائهم وأمهاتهم لهم الخيار.. فإن شاءوا ظلوا هودا.. أو عادوا إلى قواعدهم سالمين.. فلا إكراه فى الدين.

وظيفة الرسول:

ولقد كانت وظيفته ﷺ قائمة على هذا الأساس:

---

(١) فتح البارى ٣ كتاب الجنائز.

(٢) راجع تفسير المنار.

كان يبين للناس ما نزل إليهم.. جاعلا من نفسه قدوة حسنة تملأ وعيهم.. وهذا هو البلاغ الذى تنتهى به مهمته.. ليكون قرار الإيمان بعد ذلك من صنع الإنسان.. وبمحض اختياره.

ذلك بأن الإيمان إذعان النفس من الداخل.. وهو سر بين العبد وربه سبحانه.. ومن المستحيل أن يفرض الإذعان بالقوة.. فلا سبيل لأحد إليه ولا سلطان لجبار عليه!

وإذا كان للمعجزات المادية قبل الإسلام سلطانها فى مخاطبة الحواس.. حيث لم يكن العقل الإنسانى حينئذ قد بلغ رشده.. فقد واجه الإسلام عقولا راشدة.. فتعامل معها.. بالكلمه الهادية.. والقدوة البانية.. فربى أمما.. وصاغ رجالا.

وقد مارست الدولة الرومانية ألوانا من الضغط ضد قلة اعتنقت المسيحية.

فلما دخل الإمبراطور قسطنطين المسيحية.. بدأت حملة الإرهاب لفرض المسيحية بالقوه.. بل إن الدولة باشرت الإرهاب حتى ضد قلة من المسيحيين لم يكونوا مع الدولة وخالفوها فى تصور طبيعة المسيح عليه السلام. وكان فشلها الذريع برهانا على أن العقائد لا تفرض بقوة السلاح، وأن حرية الاعتقاد حق أساسى من حقوق الإنسان فحرمانه منها سلب لكرامته وإهدار لآدميته.. ومن هنا جاء قوله تعالى:

﴿لا إكراه فى الدين﴾ يمثل قاعدة ذهبية.. تجعل من حرية الإنسان بديهة من البدائه لا تحتمل المناقشة.

ولأن يتخبط الإنسان فى الظلمات مستقلا برأيه خير ألف مرة من أن يمضى معصوب العينين خلف كل ناعق.

(إن ركوب الخطأ عن رأى الإنسان وتقديره غير المدخول عليه بإكراه أو خداع. أو تضليل - هو خير من الانقياد للصواب عن قهر وقسر. وعن تمويه وتلبيس.

إذ الأول يسير ومعه عقله وتفكيره.

وليس ببعيد أن يلتقى يوما بالصواب الذى ضل عنه.

أما الآخر: فإنه يسير بلا عقل ولا تفكير..

ويسير بعقل غيره. وتفكير غيره..

وليس ببعيد أن يلتفت يوما فلا يجد من أعاره عقله وتفكيره. فإذا هو كتلة جامدة. أو تمثال من لحم ودم. لا حياة فيه ولا معقول له.

إن الأول مبصر يتخبط فى الظلام. ولكنه إذا رأى النور. أبصر واهتدى واستقام على سواء السبيل.

أما الآخر: فهو أعمى يقاد لكل يد تمتد إليه.

وكما انقاد ليد من ينصح له ويهديه. فإنه لن يمتنع عن الانقياد لمن يمكر به ويضله. وهل يملك الأعمى أن يأخذ طريقا غير طريق من يقوده ويمسك بيده»(١).

فى مجال التطبيق:

والحديث الشريف الذى نحن بصدد التعليق عليه صورة مشرفة تشكل منهجاً عمليا فى الدعوة ينبغى أن يحتذى:

لقد كان ﷺ حريصا على إسلام قومه إلى حد يظن من يراه أنه قاتل نفسه هما.. حرصاً عليهم ورأفة بهم، وذلك قوله تعالى: ﴿**لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين**﴾(٢).

ولا شك أن حرصه على إسلام غلامه اليهودى كان أقوى.. وفاء بحق العشرة الدائمة.. وإنقاذاً لنفس تقاسمه بأساء الحياة وضرائها..

ولنا أن نقول أيضاً:

إن الخبثاء الذين قالوا لما ضلت ناقة الرسول: يزعم محمد أنه يأتى بخبر السماء.. ثم هو لا يعرف أين ضلت ناقته؟!

هؤلاء الخبثاء ربما قالوا:

---

(١) عبد الكريم الخطيب: التفسير القرآنى ج٢/ ٣١٩.

(٢) الشعراء: ٣.

هذا الذى يزعم أنه جاء بالهدى.. لم يستطع أن يهدى غلاما سلس القياد سهل القبول؟!

القدوة تتحدث عن نفسها:

إن محمداً ﷺ سيد البيت.. وولى نعمة الخادم اليهودى..

وكان المتوقع أن يستغل سلطته لفرض دعوته محققاً بذلك أملا يراوده بالليل والنهار.

ومع قدرته ﷺ على الضغط ومشروعية رغبته الملحة فى إسلام الفتى..

إلا أنه لم يسمح لنفسه أن يلوى عنقه إلى الحق.. منطلقاً فى ذلك من قاعدة قرآنية تقول:

﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾(١).

فلم يشأ سبحانه أن يفرض الإيمان بالقوة..

وكذلك فعل الرسول ﷺ حين استبعد القوة من قاموس الدعوة. لتكون للقدوة داخل البيت دورها فى تشكيل عقل الغلام اليهودى ووجدانه.

ماذا يرى الغلام:

إنه مع سيد البيت ﷺ.. على مائدة واحدة!

يأكل مما يأكل..

يلبس مما يلبس..

يتعاونان معا على إنجاز مصالح البيت:

يكلفه بما يطيق..

فإن عجز ساعده..

لا يقول لشىء صنعه: لم صنعته..

---

(١) الشعراء: ٤.

ولا لشيء تركه: لم تركته..

ويتحرك الغلام داخل بيت النبوة بلا حساسية مفوضا من قبله ﷺ.

وإذا استعصى على قلوب مسلمة اليوم أن تتوحد فى رحاب المسجد الجامع.. واتسعت مسافة الخلف بينهم إزاء قضية تعددت فيها آراء الفقهاء.

إذا تعذر هذا.. فلأننا لم ندرك بعد عظمة النبوة التى تمد يدها حتى للمخالفين فى الدين..

وضيقت المسافة بهذا الود.. فتوافرت فرصة الهداية والتوفيق.

وهذا وده ﷺ يبلغ مداه حين يمرض الفتى.. فماذا حدث؟

لم يرسل النبى مندوبا إليه يبلغه تمنياته بالشفاء، فالمشاعر الحية لا تصح فيها الإنابة!!

وإنما ذهب إليه بنفسه..

ولا شك أن لهذا الذى رأه الفتى تأثيره القوى إلى حد وضعه على مشارف الإيمان.. فلما وافت ساعة الصفر.. كان مستعدا لهذا الإيمان.

***

بين التكديس والبناء:

يحرص «الانتخابيون» من الناس على وفرة الأعداد المرتبطة بهم ضمانا للنجاح المأمول فى المعركة الانتخابية..

لا يهم إن كان هؤلاء التابعون رجالا.. أو كانوا ظلالا!

ولكن الرسول الأعظم يتصرف طبق منهج آخر: كان ﷺ يريد رجالا أشداء على الكفار رحماء بينهم.. يحمل أحدهم روحه على كفه رخيصة..

واهبا هذه الروح لبارئها.. ليبقى الحق من بعده أبدا.. لم يكن يهمه الكم.. بقدر ما أهمه الكيف:

من أجل ذلك لم يفرض الإيمان على غلامه اليهودى راجيا أن يزداد الطابور

واحدا. وإنما كانت له خطته الرامية إلى غزوه سلميا من الداخل. حتى إذا اقتنع بالتوحيد دينا.. رصد نفسه من أجل ذلك التوحيد.. وبدا الموحدون للأعين بناء مرصوصا على تقوى من الله ورضوان.. غير قابل للهدم..

لقد استأذنه بعض المشركين فى تأجيل إسلامه شهرين.. فأجله أربعة أشهر!

ولقد كان العباس فى بيعة العقبة الثانية يأخذ العهد على ثلاثة وسبعين من الرجال.. واثنتين من النساء..

وكان العدد كبيرا يغرى بالتساهل.. لكن العباس سألهم عن مدى استعدادهم لنصرته.. فإن استطاعوا فبها.. وإلا فلا عهد بينهم من حيث كان محمد فى عزة من قومه ومنعة.

وكان موقف العباس منسجما مع منهج الرسول فى الدعوة التى تصوغ الرجال.. ولا تبحث عن جماهير غفيرة.. على طريقة سدنة المعارك الانتخابية الباحثين عن الأصوات. ولو كانوا فى برزخ الأموات؟!!

ولعلنا نذكر أنه ﷺ.. وعلى مدى ثلاث عشرة سنة فى مكة المكرمة لم يسلم معه إلا أقل من مائتين..

لكن الواحد منهم كان على ما يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٥].

ولما هاجروا إلى المدينة على قلتهم كانوا نواة جيش قوى.. جاهد فى الله حق جهاده بالكلمة قبل أن يجاهد بالسيف حتى أفزع اليهود انتشار الإسلام بين الأوس والخزرج بينما لم تنفع فيهم دعوة اليهود أربعة قرون!!

* * *

التخطيط للدعوة:

إن القلب المجلوب إلى مريض، والمزروع خلف ضلوعه. سوف ينبذه الجسم يوما. لأنه مملكة غريبة.

أما القلب المطبوع.. فهو القادر على منح صاحبه الحياة بإذن واهب الحياة سبحانه.

وكذلك الفكرة:

إنها غريبة.. إذا فرضتها فرضا..

فإذا أردت لها أن تنمو وتزكو.. فهيئ لها التربة الصالحة.. والجو المناسب.. ثم ضعها أيضا فى الوقت المناسب.. وسوف تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.. وكذلك فعل ﷺ هنا.

***

من خصائص المنهج النبوى:

لم تكن القدوة حركة آلية داخل البيت.. يستقبلها ذهن غافل وقلب ذاهل..

وإنما هى القدوة المدعومة بالتخطيط البالغ حد الدقة احتواء للفتى من داخله أولا..

وبدا ذلك واضحا فيما يلى:

(أ) اختيار المكان المناسب للدعوة.

(ب) والظرف المناسب أيضا ..

(جـ) والأسلوب المركز الذى يجىء فى أوانه فيصيب الهدف.

١ ـ أما عن المكان المناسب:

فقد كان من المكن دعوة الغلام إلى الإسلام فى بيت النبى ﷺ.. لكنه لم يفعل.. لماذا؟ ربما جاز لنا أن نقول: إن أعداء الدعوة قد ينتهزونها فرصة زاعمين أن محمداً استغل تبعية خادمه له واحتياجه إليه ففرض عقيدته.. فقبلها الفتى حياء.. أو خوفا.. أو مصلحة..

ومن ثم.. كان من الأوفق أن تكون فى عقر داره وفى بيت أبيه.. بل ومشورته أيضا!

٢ ـ أما عن الظرف المناسب:

فقد مرض الخادم.. ونقل إلى بيت والده.. ولم يشأ ﷺ أن يرسل «مندوبا» ينقل عنه مشاعر الود وخالص الدعاء ـ كما أشرنا ـ ولكنه ذهب بنفسه.. فكانت زيارته شرفا عظيما. ترك آثاره على كل من فى البيت الذى أيقظت المبادرة قلوبهم فتفتحت على شخصية من الرأفة والرحمة بمكان.. مع اختلاف الأديان..

١ ـ إن لحظة المرض فرصة يحس فيها المريض بالضعف يكون فيها أحوج ما يكون إلى القوة العليا التى لن ينقذه من محنته إلا هى.. بعد أن تعطلت أسباب الدنيا.

وهنا تكون النفس أقرب إلى الإيمان فى حالة ضعفها أكثر منها فى حالة حيويتها وتدفقها.

٢ ـ من أجل ذلك يختار ﷺ هذه اللحظة الخصبة فى حياة الغلام:

(أ) قلب سعيد بالزيارة.. شاكرلها.. مقبل على صاحبها..

(ب) نفس تحس بالضعف.. وتبحث عن المعين.. فإذا هو يحتويها بقلبه الكبير الواسع..

٣ ـ وتجيء الدعوة إلى الإسلام فى كلمة واحدة لا تزيد:

(أسلم) وفى عقر دار أبيه!

*****

مسك الختام:

ويحتار الخادم:

بين الرسول عن يمينه..

ووالده.. عن شماله!!

ولم تطل حيرة الغلام.. فقد أمره والده بطاعة أبى القاسم.. فأعلن إسلاما ليس وليد ساعته وإنما كان نارا تحت الرماد.. لم ينطفئ جمرها يوما.. فلما وافت

الحكمة البالغة أعلنت عن نفسها بلا تردد..

ولم يكن الوالد اليهودى أن يأذن لولده بالإسلام من فراغ.. فقد ترامت إليه عن طريق ولده أنباء خلق عظيم تفرد به ﷺ.. وما أسعد ولده أن يكون ممن يستظلون بهذا الشرف العظيم. ولقد أثمرت الحكمة النبوية ثمرتها بإيمان الغلام.. وقد كان من ثمراتها أيضا أن فرضت احترامها على الوالد الذى لم يعلن إسلامه لكنه أعلن اعترافه بعظمة الإسلام فى شخص رسوله العظيم...

ولعلها أن تكون بداية النهاية التى يعلن فيها الوالد أيضا إسلامه، ليلحق بولده.

سعادة الداعية:

ويسجل الرسول الكريم سعادته بإسلام خادمه قائلا:

(الحمد لله الذى أنقذه من النار).

وفى الوقت الذى يتراشق فيه بعض المسلمين اليوم بالنبال.. والسلاح من أجل ركعتين.. تعددت حولهما الآراء.. وفى الوقت الذى يرسم كل فريق فى خياله صورة لجهنم وهى تحرق الفريق الآخر.. لأنه خالف رأيه.. فإن الرسول يطل على الدنيا بقلب يسع الناس جميعا.. قلب يغرس الطريق بالأزاهير..

ويتفتح كهذه الزهور للأعداء.. الذين يصيرون أصدقاء بهذا التسامح وهذا الفهم المتراحب لأصول دعوة نريد للمتحمسين أن يفهموها.. وأن يفقهوا ما قاله الإمام الثورى رضى الله عنه:

إنما الفقه: الرخصة من ثقة..

أما التشدد.. فيحسنه كل أحد!

وبعد:

فلقد كان ﷺ فوق القمة.. وها هوذا يفرح بالقادم الجديد.. ليأخذ مكانه فى عليائها..

كان الرسول من أهل الجنة. . وها هو ذا يفرح بالضيف الوافد. . وهو بهذا يعالج مرضا اجتماعيا تمكن من قلوب أناس يحبون أن يظلوا وحدهم فى الجنة. . ووحدهم على القمة. . فإذا حاول تابع من أتباعهم أن يقترب من مكانتهم. . ردوه بعنف. . وما أشد الخسران حين يموت هؤلاء القادة الأنانيون. . فلا تجد من يحمل الراية من بعدهم.

أما محمد ﷺ فما زال كما يقول الشاعر :

إن النبى لحى فى ضمائرنا ففى ... على الزمان يرى منها ويستمع

قلوب يقوم الدين يحرسها ... وفى قلوب يقوم الحب والولع

مبادئ عامة للحوار
من القرآن الكريم

١) هنا فرق بين خصومة العداوة وخصومة الرأى.

فمخاصم الرأى معك.. وعلى أرض مشتركة.. غير أن زاوية الرؤية اختلفت.. فاختلف الرأى..

وكلاكما.. مصيب.. ما دام مخلصا..

ومن القواعد المسلمة:

للمجتهد المصيب أجران

للمجتهد المخطئ أجر

ولأنكما على أرض مشتركة.. فقد يكون طبعيا أن تفتح له صدرك.. وأن تفسح له الطريق حتى يعرض وجهة نظره كاملة.

أما الخصم المعادى.. وهو المعاند الجاحد.. فقد كان موقف القرآن منه كما يلى:

١ - مهما كانت عداوته.

٢ - ومهما كان دَرْكْ الضلال الذى نحط إليه.

٣ - فليظلَّ حقه محفوظا فى عرض رأيه..

٤ - بل إذا عرضته أنت.. فعلى غاية ما تكون الأمانة.. وبمنطق الأقوياء الذين لا يخافون.. لأنهم من اليقين يستمرون براهينهم.. ومن ثم لا يخافون.

بل إن القرآن الكريم لَيُحرَّ من المعاند على أن يكشف عن ساق ويشمر عن ذراع ليبحث.. ويفكر.. ويعمق.. ليتخذ قراره فى النهاية.

٢) مثال:

ومن عظمة القرآن الكريم:

أنه يقول لعدوه الألد:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[١].

ما معنى هذا؟

معناه

أن القرآن الكريم يقول لعدوه: تفكر.. بمفردك.. أو بمعاونة زميلك فى العناد.. وهات كلَّ ما عندك.. وإذن.. فهو لا يأخذ خصمه على غرة.. وقبل أن يستعد.. وإنما يحرٍّ منه.. ويَدْفعه..

بل إنه لا يقول للمعاند: تفكر.. وإنما يقول له ـ وبصورة أبلغ ـ أفلا تتفكرون؟

إنه يطلب من الجميع.. أن يتفكروا.. وفى هذا من التحدى ما فيه..

بل إنه يُنْكر عليهم عدم التفكير.. وكأنما يقول:

أىُّ شىء يمنعكم من التفكير.. فيما يسبه التوبيخ على هذه السلبية..

وهل هناك عظمة أربى من خصم يطالب خصمه..

وعلى ساحة المعركة.. أن يجنِّد جنده.. ويشحذ حده.. ويستدعى كل ما يملك؟!

(١) سبأ: ٤٦.

ومن دروس القرآن:

وفاء المحاور للحق . . وإنصافه لخصمه إلى الحد الذى يعينه على التسليم بالحق الذى يتقن فى شدِّ أزره بالبراهين . .

وهذا ما حدث:

فالله تعالى بعد أن يُهيب بالكفار أن يتفكروا . . بل بعد أن ينكر عليهم ألا يتفكروا . . يلفت نظرهم إلى ما يحملهم على الثقة بمحمد ﷺ . وضرورة تصديقه.

أولا: فهو صاحبكم . . صاحبكم الذى صاحبتموه . . وخبرتموه عن قرب . . فأنتم أدرى الناس به . . وشهادتكم له . . ليست مفروضة عليكم من الخارج . . وإنما فى استطاعتكم أنتم من خلال مصاحبتكم له أن تشهدوا بأنه على الحق.

وثانيا: لقد اتفقت كلمتكم على أنه: الصادق الأمين . .

وما هو بمجنون . .

ثالثا: ثم هو لا يرهقكم فيطلبُ منكم على البلاغ أجرا . .

فما لكم لا تؤمنون برجل ظهرت دلائل صدقه؟

ولكن:

مع هذه السماحة . . ومع إرخاء الحبل للمعاند . إلى حدِّ تدليله . . إلا أن الجدال يجب أن يتوقف . . إذا بدا أنه صار عقيما . .

ومن أمثلة ذلك:

الإمام مالك رضى الله عنه:

كان إذا حاوره شاك قال له:

إنى على بينة من ربى . .

وأنت شاك..

فابحث لنفسك عن شاك مثلك..

أفكلما جاءنا رجلٌ أجدل من رجل تركنا من أجل سنة محمد ﷺ ؟

والفرق هائل بين موقفه رضى الله عنه من هذا الشاك.. وبين موقفه من تلميذ وفى.. مسترشد جاء يقول له:

أنا أعرِف السنة.. فهل أجادل عنها؟

فقال له:

لا..

ولكن.. قُلْها.. فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر!!

وإنها لفتوى عالِم فقيه.. ذكى.. هو واحد من مدرسة المؤمنين الموقنين.. الذين اتسعت صدورهم.. إلى حد أنهم كانوا فى السفر.. يكون فيهم الصائم.. وفيهم المفطر.. فلا ينكر أحد على أحد..

لقد كانوا يحبون الوحدة.. الوحدة التى بها حقَّقُوا آمال الإسلام فيهم.. وكانوا بها فى الخالدين.

أخطاء عروض موصل إداريه

أدب الحوار

من خلال حواره تعالى مع الملائكة

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠، ٣٣].

فالله تعالى هو الخالق البارئ المصور.. القادر القاهر..

وكان من الممكن أن يَخْلقَ.. ويُخلفَ.. بلا إعلامِ أحد.. لكنه تعالى يعلمنا من خلال هذا الموقف.. ألا نفرض الرأى مهما يكن موقعنا:

فكل صاحب ولاية.. لا يستبد برأيه..

فما دام العمل فى الديوان هو قضيتنا جميعا.. فليكن لكل فرد حقه فى أن يبدى ما يراه صالحا مصلحا.. مهما كان موقعه فى السلم الوظيفى.

لكن لأمر ليس حظيرة من غير باب:

فما دمت تملك الرأى.. فلابد أن تدخل به ساحة الحوار ومعك براهينك التى تشد من أزره.. وليست المسألة مجرد عرضِ فكرة مع العجز عن الدفاع عنها..

وموقف الملائكة شاهد بذلك:

فقد استوضحوا الأمر من الله تعالى..

وفى أَيْمانهم أدلتهم التى ترشحهم دون آدم لخلافة الله تعالى:

١ ـ فقد علموا من فساد هذا النوع ما يحملهم على إنكار خلافته.

٢ ـ وإذا كان ولابد من خليفة.. فليكن ذلك النوعَ المرشح بخصائصه الذاتية لها.. وهم الملائكة.. لأنهم كما قالوا:

ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك.

٣ ـ ويتلطف الحق تعالى معهم قائلا:

﴿إنى أعلم ما لا تعلمون﴾

ثم يعقد الامتحان الذى جلّى للملائكة حكمة اختباره تعالى لآدم خليفة له سبحانه وتعالى.

٤ ـ ويتأكد بذلك معنى مهم وهو:

أن صاحب الحق لا يعتِمد فقط على أنه على الحق..

وإنما رِفقا بالخصم ـ يُرخى له الحبل.. فى سبيل إقناعه..

٥ ـ وإذا كان بعض المجادلين يصرون على إحراج الطرف الآخر.. فإن الحق تعالى لا يُعنِّفهم.. وإنما يتلطف بهم.. ليعينهم على أمر الله تعالى.

٦ ـ ولقد حقَّقَت الحكمة هدفها حين أتى الجدال أكله:

حيث اعترفت الملائكة بالحق بعد ما تبين.

ولا يزال الموقف حافلا بالدروس:

فمع يقين الملائكة بحكمته تعالى.. وصدق حديثه.. بل لا أحد أصدق من الله حديثا.. لكنهم يتساءلون..

يتساءلون متعجبين.. لا منكرين.. لأن الأمر كان على خلاف مقايسهم

. كيف يُترك أهل الطاعة . . ويُستخلفُ أهل المعصية؟

إن جدالهم مشدود إلى محور الحق . . وليس نضْحَ هوى . .

وهو درس لمن يظن نفسه مركز الكون . . فيَرْفُضُ أن يَنْقُده أحد اعتمادا على أنه مبعوث العناية الإلهية . . وإذن . . فلا معقب لحكمه!!

ودرس أيضا لكل عامل فى تعامله مع رئيسه :

فليس من الحكمة أن تواجهه برأيك الذى تسفِّه به رأيه . وإنما ـ وفى ضوء الآيات الكريمة ـ يمكن أن تقول له :

نحن نثق بك . .

وننزهك عن السطحية والعبث . . ومثلك لا يتورَّط فى خطأ متعمداً . .

وإنما فقط . . نحن نستوضح . . مجردُ استفسار . . علامة استفهام ترفرف فوق رءوسنا . . ومن حقنا عليك أن تطمئن قلوبنا بما يُزيل عنها العجب . .

ودرس آخر :

إن استرسال المتحاورَيْن فى حشد الأدلة النظرية قد لا يحسم القضية . .

من أجل ذلك لابد من الاحتكام إلى الأدلة العملية . . التجريبية . . والتى يشترك فى تأملها العقل . . والعين . . والأذن . . وكل المدارك . . لتستقر فى الأعماق يقينا فوق الشك . . وفوق الجدل .

وهذا ما حدث عندما عرض تعالى على الملائكة الأسماء . . فلم يعرفوا . . وأخيرا اعترفوا لآدم بالفضل .

دولة الباطل ساعة

قد يبدو الباطل.. وفى مرحلة من مراحل الصراع.. قد يبدو فى أوج قوته.. مزهوا بها..

فى الوقت الذى يكون أهل الحق فى حالة من الضعف.. الذى فرق شملهم..

وهنا.. قد يتسلل اليأس إلى قلوب أهل التقوى.. وربما استرخت لذلك إرادتهم..

لا سيما ومقادير العالم من حولهم تبدو وكأنها فى يد أعدائهم المدين بقوتهم..

وقد حدث ذلك فعلا لما خرج قارون على قومه {فى زينته} فبهرت الضعفاء زينته وهيلمانه.. ولكن القرآن الكريم يقطع على هذه النزعة السلبية الطريق ليقول:

﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[1].

وما دمتم أنتم المؤمنين.. فلا تيأسوا.. لأنه لا يأس مع الإيمان.. وأن العاقبة للتقوى.

يقول تعالى:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[2].

ويلاحظ المفسرون أن الله تعالى ذكر الباطل فى أقوى أحواله.. وأهواله..

---

(١) يوسف: ٨٧. (٢) القصص: ٤: ٦.

والحق فى أضعف مواقفه . .

فالباطل ممثلا فى فروعه:

١ ـ عالٍ . . متكبر . . متمكن . . ثابت الأقدام فى الأرض . .

٢ ـ وقد مزّق خصومه إلى أشلاء وتفاريق ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ مستقلا بهم . . مستهينا بأقدارهم . .

﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ .

٣ ـ يستضعفهم إلى الحد الذى يذبّح . . كما شاء . . يذبِّح مبالغة . . وليس فقط بذْبح . . فيبقى من شاء ويتخلص ممن شاء . .

وعلى الطرف الآخر يبدو المحقون على غاية ما يكون الهوان بين يدى الباطل . .

ولكن الله سبحانه وتعالى يديل لهم من عدوهم فى النهاية . .

إن الله تعالى إنما يكون ناصرا من نصر دينه ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1] .

والساحة مفتوحة لكل من أراد أن ينصر دين الله تعالى . . باللسان . .

فإذا فرضت المعركة . . فبالسنان!؟

---

(١) محمد : ٧.

النقد فى منطق الإسلام

قبل الإسلام.. كانت القبيلة تبحث عن الشاعر.. قبل أن تبحث عن الناصح..

ذلك بأن الشاعر - كما قيل - يرسم لها واقعا ورديا من خياله هو.. فيهدهد مشاعرها.. ويتملق عواصفها..

لقد كانت تفضل أن تعيش مع الوهم..

والواهمون يكرهون النقد.. يكرهون تصور الرأى الآخر.. لأن النقد الذى يهدم جزءا من حياتهم.. يأتى على البنيان كله من القواعد..

ولكن الإسلام له حساب آخر:

إنه يبحث عن الناصح الأمين..

الناصح: الذى ينقد.. لا الذى ينقض!

وهو أفضل من المادحين الكاذبين..

من آثار الدهم

عندما تضيق الصدور بالنقد يحدث ما يلى:

١ - تتراكم الأخطاء.

٢ - ثم تتراجع فرص الإصلاح..

٣ - تموت فى الصدور ملكة الكشف عن العيوب.

أما فى الإسلام

فإن النقد قاعدة أساسية.. والحوار سبيل أصيل فى إحقاق الحق وإبطال الباطل..

١ ـ فهو ينطلق من قاعدة إنسانية:

ترشد.. ولا تحقد.. تقوّم.. ولا تجرّم..

٢ ـ ثم إن غايته الإصلاح..

٣ ـ ثم هو رؤية للقضية التى يدور حولها الجدال بأكثر من عين... ومدارستها بأكثر من عقل فيتكشف كل زواياها.

٣ ـ وحتى إذا ظهر لعيب فى بعض جوانبها فإنها لا تسقط البناء كله.. كما فى دولة الشعراء..

فقد تتخلص الشجرة من بعض أغصانها اليابسة.. لكنها تظل شجرة ظليلة.. مثمرة.. تماما كهذا الصحابى الذى أمسك الراية بيمينه..

فلما قطعت.. أمسكها بشمال.. فلما قطعت حملها بعضديه..

وتصور كيف تسقط يدا المجاهد.. ثم لا يسقط هو.. لأنه مسبوك الكيان بالإيمان..

وليس هو بالذى يستكين للهجمة الغادرة!

فجهلا بالناصح.. ومرحبا بالانتصاح..

وبهما معا يطلع الصباح.. لنجنى من احتكاك العقول ثمرات مباركات..

لقد قرأ تلميذ الشافعى كتابه.. الرسالة.. ثمانين مرة..

وفى كل مرة كان يكتشف من العيوب ما ينبغى إصلاحه..

وذلك دور الحوار الذى يدور حول القضية.. التى تزداد عمقا.. وتزداد به اتساعا.. وإمتاعا!

أهمية الاختلاف:

كم تكون الحياة رتيبة باهتة مملة.. لو سار الأحياء فيها على رأى واحد!!

إن الاختلاف ظاهرة كونية.. وظاهرة بشرية:

لكن المهم:

ما هى القاعدة التى تصدر عنها الآراء المشتجرة؟

الترشيد؟.. أم التبديد؟

التجريح.. أم التصحيح..

تلك هى القضية

لقد قالوا عن أبى عبيدة.. «راوية العربى الأكبر» قالوا عنه:

إنه كان يكسر البيت إذا أنشده

وكان يخطئ إذا قرأ القرآن؟!

لكن أديب العربية الأكبر.. الجاحظ. يقول عنه:

«لم يكن فى الأرض: خارجى.. ولا حجاعى.. أعلم بجميع العلوم من أبى عبيدة»!

إن الناس ينسجمون مع كل حسناتك.. لكن.. من منهم الذى يغفر لك زلاتك.. من خلال نظرته الموضوعية التى لا تدفن الحسنات.. ثم تركز على السيئات.. منطلقة من نزعة: تصفية الحسابات؟!

فى محراب الجامعة

تعتبر الجامعات مصدر الحقائق. والمبادئ. والخبرات..

والتى تؤتى أكلها عن طريق أبحاث تلبى حاجة من حاجات الأمة.

والتى لا تكون فقط مجرد ثماري بحثية يراد بها: مجرد الحصول على درجة عملية.. أو الترقى إلى أعلى فى السلم الوظيفى.. أو كما قال علماؤنا:

ولكى يغطى البحث حاجة ملحة:

فلا من باحث..

ولابد من مشرف..

مشرف: يسدد الخطى..

ويصحح الخطأ..

وينظم المشوش..

ويعدِّل المعوج..

ويبقى الباحث هو المسئول الأول عن بحثه..

لقد دخل معذك التأليف..

ومن ألَّف.. فقد استهدف..

وإذا كان مُهما أن يفعل الإنسان ما يُكتَب.. فعلية ـ وبنفس القوة ـ أن يَكتب ما يُقرأ!

يعينه على ذلك أمور:

١ ـ أن يعيش فكرته.. وبحرارة.. ثلاثة أشهر ليكتب ثلاثة أيام.. فقط... ويكتب ثلاث صفحات!!

٢ ـ كثرة المراجع.. ويعنى ذلك وفرة المعلومات التى يغترف منها.. حتى لا

يكرر نفسه ليكون القارئ بين يدى طاقة من الأزاهير تستوعب كل عناصر الفكرة حتى تتكامل.

٣ ـ وتنوعها..

٤ ـ ثم عمق الاستنباط.

٥ ـ والأمانه العلمية فى النقل..

٦ ـ ويتم ذلك عبر أسلوب واضح.. مركز.. جميل..

إن فكرة البحث فى البداية.. تكون كما قيل بحق:

ذلك الجدول.. الصغير المنعزل..

ولكنه بالقراءة المستوعبة.. تتراكم أفكار.. ليكون المحيط..

إنك تأكل.. على قدر معدة واحدة..

وتلبس.. على قدر جسد واحد..

وأنت تشغل مكانا واحدا.. لا عدة أمكنة!

ولكنك بالقراءة تصبح مجموعة من الحيوات.. التى تجعلك أخْصُب عمرا.. وأبقى أثرا.

وإذا كان ملحِّن القصيدة.. يركز.. ثم يحاول أن يتسرب إلى باطن الحروف.. والكلمات.. ثم يكسوها نغما شجيا..

فجدير بالباحث الإسلامى أن يكون أجمل... وأكمل.. على قدر خطورة رسالته. وآثارها فى دنيا الناس.

فهرس الكتاب

مطبعة جزيرة الورد

المنصورة ـ نوسا البحر

☎ ٠٥٠/ ٤٤١١٩١